الإعجاز القرآني

في التعامل مع النفس البشرية

عيسى إبراهيم اللوباني

دار المأمون للنشر والتوزيع

الإعجاز القرآني

في التعامل مع النفس البشرية

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٩/٢/٥٩٢)

٢٢٥

اللوباني، عيسى إبراهيم
الإعجاز القرآني في التعامل مع النفس البشرية/ عيسى إبراهيم اللوباني_ عمان: دار المأمون، ٢٠٠٩ .
(٢٤٩) ص
ر.أ: (٥٩٢ / ٢/ ٢٠٠٩).
الواصفات: / إعجاز القرآن/ / القرآن/ / الإنسان/ / العبادات/ الإسلام/

❖ أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail: daralmamoun@maktoob.com

الإعجاز القرآني

في التعامل مع النفس البشرية

عيسى إبراهيم اللوباني

دار المأمون للنشر والتوزيع

فهرس الموضوعات

المقدمة

الإعجاز القرآن في التعامل مع النفس البشرية

قرون عديدة مرت على وصول رسالة السماء إلى الأرض التي تضمنها القرآن الكريم وما زال الإنسان المسلم يكتشف كل يوم الجديد المعجز في هذا الكتاب الكريم ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣] معجزات كونية وأخرى تتعلق بمخلوقات الله من الإنسان وحتى أصغر مخلوقاته، معجزات مادية لا عد لها ولا حصر اكتشفها الإنسان وأثبتها في مختلف العصور ولاسيما في هذا العصر الذي نعيش والذي تجلت به معجزات القرآن الكريم كما لم يحدث من قبل وعلى مختلف الصعد.

وفي هذا الكتاب سنتناول جانباً من معجزات القرآن الكريم وهو الجانب المتعلق بالنفس الإنسانية وكيف تعامل معها هذا الكتاب المعجز بكل أحوالها وتقلباتها وانفعالاتها ورغباتها بحيث يجعل منها نفساً نقية مطمئنة خالية من العقد والأمراض النفسية المختلفة، نفساً تفيض بالخير والسكينة والعطاء وحب الخير، تسعى لتوفير العدل والرحمة في هذه الحياة الدنيا، كما لا تخشى الموت ولقاء ربها لأنها تؤمن بما ينتظرها بعد الممات وفي الحياة الأخرى.

وهذا الإعجاز القرآني في التعامل مع النفس الإنسانية إلى جانب معجزاته الأخرى الكثيرة والمتجددة المستمرة من الأسباب التي كان لها الأثر الأكبر في تمسك المسلمين بقرائهم جيلاً بعد جيل ويوماً بعد آخر، وسبب تمسكهم بتعاليم الإسلام وأحكامه. هذا إلى جانب السبب الأول وهو حفظ الخالق سبحانه لهذه الدعوة ومشيئته باستمرارها إلى يوم الدين ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:

٩]. ونحن نعيش ونلمس مدى أثر الإسلام في نفوس أتباعه على اختلاف أجناسهم ومستوى ثقافاتهم رغم القرون التي مرت على نزول الرسالة ورغم كل ما يحمله هذا العصر من إنجازات علمية وفكرية وإنسانية لم يسبق لها مثيل، والتي حولت الكثير من أحلام الإنسان وتخيلاته إلى حقائق ملموسة معاشة.

والملفت للنظر هو تلك النظريات الكثيرة التي ظهرت منذ ظهور الإسلام في العالم الإسلامي وغير الإسلامي والتي اجتمع على وضعها عشرات العلماء والمفكرين والمثقفين والذين يواكبون العصر وأحداثه ومجرياته، والكل ادعى بأن همه الأول كان حل مشاكل البشرية وإحلال السعادة والرفاه في الحياة الإنسانية. ولكن هذه النظريات ورغم وعودها وبريقها وتحللها من القيود الأخلاقية والقيم الإنسانية إلا أنها لم تزد الإنسان إلا حيرة وارتباكاً.

لا بل إنها ضاعفت من المشاكل التي يعاني منها الإنسان المعاصر وساهمت في حيرته وضياعه. وكان ذلك لأن هذه النظريات عجزت عن التعامل مع النفس الإنسانية بتقلباتها وأسرارها ورغباتها.

وما انهيار الأنظمة الشيوعية في العالم رغم كل الإمكانيات التي كانت تمتلكها، ورغم آلاف المثقفين المنتشرين في مختلف أنحاء الأرض والذين كانوا يرون أن لا خلاص للعالم إلا بالأخذ بالنظرية الماركسية وتطبيقاتها فقد كانت تعني نهاية التقدم الفكري والمادي للإنسانية بنظر معتنقيها. ولكن المفاجأة كانت في سرعة انهيار هذه الأنظمة رغم ما مارسته من كبت وقمع للحريات في مجتمعاتها، انهارت تماماً وكأنها لم تكن بكل أنظمتها ومنظماتها وكأنها بنايات لا أساس لها. وبنيت على جرف هار فانهار بها.

ولو تمعنا قليلاً في أسباب ما حدث لرأينا أن تلك النظرية قد أخفقت في التعامل مع النفس البشرية؛ فقد أهملت تماماً الجانب الروحي عند الإنسان لا بل وحاربته واعتبرته خرافياً، وجعلت كل هموم الإنسان وطموحاته تنحصر في تأمين

طعامه وشرابه وملبسه والأغرب من ذلك أنها أخفقت في تأمين هذه الحاجات الإنسانية بالشكل والصورة التي يطمح إليها الإنسان فكانت شعوبها من أفقر الشعوب وأكثرها حرماناً كما أنها أهملت الإنسان كوجود مستقل معتز بذاته واعتبرته سناً لا قيمة له في دولاب الحياة مثلما أنها أهملت حرية الإنسان تماماً وفرضت عليه أنواعاً مختلفة من الإرهاب والقيود وكبت الحريات ورغم أن هذه النظرية كانت تنكر الإيمان باليوم الآخر إلا أنها كانت تطلب من الأجيال التي تعيش تحت ظلالها التضحية بالرفاهية الموعودة لتنعم بها الأجيال اللاحقة. وهذا قمة الجهل بالنفس الإنسانية، فإذا كان هذا الإنسان لا يؤمن ولا يطمح في حياة أخرى وليس أمامه سوى فرصة هذه الحياة التي يعيشها والتي لن تتكرر فلماذا وبأي حق يضحي من أجل غيره وإكراماً لأجيال لاحقة.

لاسيما وأنه كان يرى قادته ومحاسيبهم وأنصارهم يتنعمون بمختلف أشكال وأصناف الرفاهية وأين كل هذا من مبادئ الإسلام وتعاليمه التي كرمت الإنسان وجعلته كياناً قائماً بذاته مسؤولاً عن أعماله وحددت له طرق السير الصحيحة في حياته وبلا إفراط ولا تفريط. فلا تسلط من إنسان على آخر، ولا ثروة فاحشة وفقر متقع، لا إلغاء للملكية الفردية ولا إحتكار لها من قبل فئات قليلة من أبناء المجتمع، وتقديم المصلحة العامة دائماً على الخاصة وسوف نرى كل ذلك في ثنايا الكتاب الذي بين أيدينا.

وهذا لا يعني أن المذهب الآخر والمعروف بالنظام الرأسمالي هو أحسن حالاً، فهذا العالم لا يعرف غير المال قيمة له، إنه مذهب متوحش لا مكان به إلا للقوي والذي يستطيع أن يجمع أكبر قدر من المال وبالطريقة التي يراها وكل الطرق أمامه مشروعة، فالغاية تبرر الوسيلة، إنه نظام خالٍ من كل أبعاد إنسانية فلا مانع في ظلاله من وجود الفقراء والمرضى والمتشردين مقابل وجود فئات قليلة تتحكم بمعظم ثروات المجتمع وبالتالي تسيّر هذا المجتمع وفق مصالحها وأهوائها، وضرر

مثل هذه الفئات لا ينحصر في مجتمعاتها بل إنها ومن خلال الشركات العابرة للقارات وهي شركات احتكارية تسبب الأضرار لملايين السكان مقابل تحقيق مصالح أفراد ربما يعدون على أصابع اليدين، لا بل لا مانع لتلك الفئات من التسبب في الحروب وقتل الآلاف في سبيل تحقيق مكاسبها المادية الجشعة.

وما الأزمة التي مر بها النظام الاقتصادي الرأسمالي العالمي أواخر عام ٢٠٠٨م ولا يزال إلا أنصع دليل على فشل هذا النظام ووحشيته، هذا النظام الذي يخلو من كل بعد إنساني عندما يتعلق الأمر بالمال وطرق كسبه. هذا النظام اعتبره البعض بأنه يمثل النظام الأخير في مسيرة البشرية فإنه لا يمكن أن يكون له نقيض كباقي الأنظمة التي عرفتها البشرية طوال تاريخها. ولكنه وإن بدت سوءاته بشكل مفاجئ للسواد الأعظم من البشر إلاّ أن بعض أو كثير من علماء الاقتصاد المرموقين حذروا من النهاية المفجعة والمصائب التي ستحل بالعالم إن بقي هذا النظام منفلتاً من عقاله ليكرس سلطة وسيادة مجموعات قليلة من أصحاب المال على مقدرات العالم، وإن عصر ما سمي بالعولمة والتجارة الحرة لا يمكن إلا أن يؤدي إلى تراجع الازدهار وتباطؤ النمو وبالتالي فقدان المجتمعات المتقدمة نفسها لكثير من المزايا التي تمتعت بها والازدهار الذي عاشته لسنوات، حيث تحول الاقتصاد من اقتصاد إنتاج إلى اقتصاد أوراق تديرها البورصات العالمية والمضاربات والسندات وغيرها من وسائل جمع الثروة السريع.

لذلك فلا غرابة أن نجد الأصوات ترتفع الآن لإيجاد نظام بديل يعيد التوازن للحياة الاقتصادية في العالم. وإذا كان علماء الاقتصاد يخشون على بلدانهم المتقدمة من مثل الأوضاع التي ذكرنا فما بالنا بالدول الفقيرة والنامية وماذا سيحل بها في ظل نظام رأسمالي متوحش.. في مثل هذه الظروف التي مرت وتمر بها البشرية أصبح لزاماً على المسلمين أن يبرزوا ما لديهم من تعاليم ففيها انقاذ للبشرية مما تعاني وعلى مختلف المستويات. الإسلام الذي جاء لصالح كل فئات المجتمع لا

يحابي أحداً على حساب أحد مهما كان مركزه أو مقدار ما يملك فهو تشريع رب العالمين والذي لا يقف مع فئة أو جماعة ضد أخرى. الإسلام الذي رسم الطريق للإنسان لينال السعادة في الدنيا والآخرة ودون تسلط ولا هيمنة من طبقات أو فئات على أخرى.

الإسلام الذي وازن مطالب الإنسان في حياته الدنيا وما يرجوه من حياة بعد الممات ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: ٧٧]، ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١]، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧].

إنه القرآن الكريم الذي يهدي لما هو أقوم وأبقى وما على المسلمين سوى تدبر آيات هذا الكتاب الكريم ليحققوا السعادة في الدارين ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

فليس غير تعاليم القرآن الكريم والمبادئ السامية التي تضمها كل كلمة من كلماته من يحقق طموحات الإنسان وأهدافه، ويحقق له السعادة في الدارين، وليس هذا حديث عواطف أو تعصب ولكنها الحقيقة التي عاشتها البشرية لفترات من الزمن لم تشهد انحرافاً عن طريق القرآن والتزمت بأحكامه الصحيحة والنقية ولكن ما هو مطلوب من المسلمين كافة هو تصحيح المسيرة والإيمان بالتطور والتغييرات الدائمة في حياة البشر وفق العصور المتلاحقة وإيلاء العقل المكانة التي يجب أن يحظى بها في هذه الحياة الدنيا، أما الجمود والثبات واجترار الماضي بشكل مستمر والوقوف على الأطلال للبكاء والتحسر، كل هذا لا يبني حضارة متقدمة للأمة الإسلامية ولا يعطي النموذج المطلوب للبشرية جمعاء، لا بل وينفي كل ما ذكرناه سابقاً حول النموذج والحل الإسلامي المرتقب وتزداد الأمور سوءاً عند المسلمين

وغيرهم من الأمم، وفي فصول الكتاب سوف نرى معجزة القرآن الكريم في التعامل مع نفس الإنسان وتقلباتها، وإكسابها السعادة والطمأنينة وهو ما يبحث عنه الإنسان منذ أن كان على هذه الأرض ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧] صدق الله العظيم.

عيسى اللوباني

٢٠٠٨/١٠/١٥

عمان الأردن

ضرورة إبراز الهوية الإسلامية لعلم النفس

القرآن الكريم أنزل من الخالق سبحانه لمخاطبة الإنسان بالدرجة الأولى وإرشاده للطريق القويم في حياته، من خلال تحديد سلوكيات الإنسان في هذه الحياة وبيان السليم منها والصحيح وتمييزه عن السلوكيات المنحرفة والخاطئة.

وما دام الأمر كذلك فليس غريباً أن نجد في آيات القرآن الكريم مجالاً واسعاً لدراسة النفس البشرية وتقلباتها، إطلاقها متحررة من القيود تلهث وراء نزواتها وتطلق العنان لشهواتها بلا حدود أو قيود، أو نفوس وضعت رقابة ومتابعة ذاتية للتأكد من عدم انحراف النفس عن الطريق السوي أو إساءة استعمال ما حباها الله من نعم عقلية وحسية فالرقابة الداخلية الفعالة والصارمة تستطيع غالباً أن تمنع الخطأ وتقي النفس من الشطط أو الزلل والانحراف، أما إذا كانت الرقابة ضعيفة أو معدومة فسوف تنساق النفس في نزواتها وتطلق العنان لشهواتها بلا حدود أو قيود.

ويشير القرآن الكريم إلى من يملك القدرة على كبح جماح نفسه يستطيع السيطرة عليها وأن يوجهها إلى فعل الخير وينهاها عن الشر ومتى فعل ذلك فهو من الفائزين قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]، وقال تعالى ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

ويحدثنا القرآن الكريم عن مرتبتين للنفس مرتبة عليا لأهل التقوى الذين

يخافون الله ويتمسكون بأوامره وينتهون عن نواهيه، ومرتبة دنيا للرافضين لأوامر الله المعطلين لحدوده، ولأهل الضلال الميالين إلى الانحراف وارتكاب الفواحش والمنكرات.

أما المرتبة العليا للنفس فإنها تشمل:

١- النفس المطمئنة:

وهي النفس التي تخاف الله وتؤمن بلقائه وترضى بقضائه، وتقنع بعطائه ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧- ٢٨].

٢- النفس اللوامة:

وهي النفس التي تشعر بالذنب فتندم على ما فات وتلوم عليه، فهي في مرتبة الضمير الذي يتولى مهمة الرقابة الداخلية على السلوك، مما يجعل المؤمن يعمل دائماً على مساءلة نفسه ومحاسبتها ومعاتبتها على ما يصدر منها من زلات أو هفوات في قوله أو عمله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١-٢].

٣- النفس الزكية:

وهي النفس الطاهرة من الخبث والدنس والشرك بالله، فهي لا تحنث ولا ترتكب معصية ولا تخالف أوامر الله. فتزكية النفس يتحقق بفعل الطاعات، وبالعمل الصالح، وبتطهيرها من رذائل السلوك وعدم حملها على الانحراف.

﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف: ٧٤]، ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨]، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

المرتبة الدنيا للنفس:

وهي مرتبة النفوس التي استباحت حرمات الله، واتبعت هواها، وارتكبت المعاصي، ولم تستجب لداعي الحق ومنها:

١- النفس الحاسدة:

وهي التي تكره الخير لغيرها وتتمنى لهم الشر والمكاره، ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: ١٠٩].

٢- النفس الآثمة:

وهي التي لا ترتدع عن فعل الكبائر ولا تنتهي عما نهى الله عنه، ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]، ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [النساء: ١١١].

٣- النفس الأمارة بالسوء:

وهي التي تدفع صاحبها إلى ارتكاب المعاصي وفعل الرذائل والسعي إلى الفواحش دون مراعاة للحرمات أو تفكير في سوء المصير ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

٤- النفس الظالمة:

وهي التي تنتهي بصاحبها إلى الظلم سواء كان ذلك عن طريق مخالفة أوامر الله وعدم اجتناب نواهيه، أو عن طريق ظلم النفس بدفعها إلى الخطايا والذنوب، أو عن طريق ظلم الآخرين ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾

[يونس: ٥٤]، ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة: ٥٩]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧].

٥- النفس المخادعة:

وهي التي تخطط الدسائس، وتتآمر على الآخرين، وتتبع الطرق الملتوية في تحقيق أهدافها عن طريق المكر والخداع، ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ١٨]، ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

٦- النفس ذات النزوع الجنسي المحرم:

وهي التي تنقاد لسيطرة الدوافع الجنسية فتستجيب لها بطرق غير مشروعة، وهي بذلك تنزل بصاحبها إلى مرتبة دنيا، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

٧- النفس المستكبرة العاتية:

وهي التي تنخدع بقوتها فلا ترى غير نفسها ولا تتصور من هو أقوى منها، مما يجعلها تتمادى في الشعور بالعظمة والتكبر وتزداد عتوا، ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٦]، ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩].

٨- النفس البخيلة:

وهي التي تسعى إلى كسب المال واكتنازه وعدم انفاقه في القطاعات المختلفة أو في مصارفه الشرعية وشخصية البخيل من الشخصيات المذمومة في الأديان وفي الأعراف لأنها شخصية تأخذ ولا تعطي، وتفضل الوقوف موقف المتفرج على أن تساهم وتشارك مع الآخرين.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ٣٧]، ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وبعد هذه الجولة مع أوصاف النفوس البشيرة المختلفة في القرآن الكريم والنفاذ إلى أعماقها نفاذ العالم البصير والذي يعجز كل علماء الأرض عن الاتيان بمثله ولو اجتمعوا أفلا يحق لنا أن نتساءل أين الأسماء العربية والمسلمة اللامعة في مجال علم النفس، فالدارس لعلم النفس مع الأسف أو المتخصص فيه لا يطالع إلا أسماء أجنبية وتعبيرات غريبة عليه أينما ذهب ولا يصادف ما يشير إلى وجود أسس علمية متينة يمكن أن يقوم عليها (علم نفس إسلامي) ذو طبيعة إسلامية تتمشى مع العقل والمنطق، ولا تتعارض مع الدين، وترتكز على مصدر لا يأتيه الشك، وهو القرآن الكريم والذي نزل أصلاً للتعامل مع هذه النفس البشرية وانقاذها من الظلمات، وليرسم لها طرق الفلاح والرشاد، وليوجد النفس الإنسانية المطمئنة الراضية وهو ما تفتقد إليه الإنسانية في هذا العصر بالذات. حيث انتشرت الأمراض النفسية حتى أصبح قلة من أفراد المجتمعات غير الإسلامية ولاسيما المتقدمة في مضمار المدنية هم الذين لا يعانون من هذه الأمراض.

والقرآن الكريم يشمل القواعد العريضة لعلم نفس الإنسان، فقد تناول الكتاب الكريم مواضيع النفس، والسلوك، والثواب والعقاب والتعليم والقدرات، والاتجاهات والدوافع وأنواع الاضطرابات ومصادرها، وبعض أساليب العلاج النفسي وغير ذلك كثير.

فهل يتحرك العلماء المسلمون لوضع أسس علم النفس الإسلامي، بعيداً عن نظريات فرويد وفلسفات التربية الإغريقية والمعرفة اليونانية أو الاستعانة بما لا يتصادم مع النظريات الإسلامية نسأل الله ذلك وتنتظر العمل النافع وكل ذلك يعتمد على أن تكون كل أعمالنا خالصة لوجه الله تعالى وخدمة عباده وليس رياء ولا نفاقاً، أو تحقيق المكاسب الشخصية الدنيوية بكل صورها وأشكالها.

والخالق سبحانه وهو خالق النفس البشرية والأعلم بخفاياها يرسم لنا طريق النهوض كلما كبونا، فالنهوض لا يتحقق بكثرة الدعاء والعبادات التي لا تعدو أن تكون أكثر من عادات تأصلت في حياتنا، حيث لا نرى لها أثراً في تغير سلوكياتنا وطريقة حياتنا وممارستنا.

التغيير يبدأ في تغيير ما في نفوسنا، وإلا فلا تغيير في طبيعة حياتنا إلى الحياة التي نتصورها ونتوق لتحقيقها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

صدق الله العظيم

ونفس وما سواها

الإنسان منذ أقدم العصور وهو يبحث عن ذاته، مدركاً بغريزته وفطرته أنه مخلوق متميز، وأن هذا الجسم المادي الذي هو صورته ليس إلا وعاء يضم بداخله ما هو أهم من مكونات الإنسان المادية وأعظم، إنه يضم نفس هذا الإنسان وعقله، وهو ما يميزه عن بقية المخلوقات، ويعطيه أهمية خاصة في هذه الحياة وعلى سطح هذا الكوكب.

فلاسفة اليونان أمثال أفلاطون وأرسطو بحثوا في جوهر النفس الإنسانية وماهيتها، ثم جاء علماء مسلمون أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وغيرهم وبحثوا في النفس الإنسانية متأثرين أحياناً بفلاسفة اليونان ونظرياتهم حول ماهية النفس البشرية. لاسيما وأنهم رأوا أن آراء هؤلاء العلماء اليونانيين قد لا تصادم الإسلام ولا تعارضه يقول الكندي في رسالة عنوانها (رسالة يعقوب بن إسحاق الكندي في أنه توجد جواهر لا أجسام لها) عن النفس يقول: النفس هي صورة الحي العقلي وهي نوعه، وإذ هي جوهر، وهي جوهر النوع فهي لا جسم لأن النوع لا جسم بل هو العام الذي يعم أشخاصه (أي أشخاص النوع) التي هي الأجسام. وإذن فالنفس لا جسم، بل هي جوهر لا طول له ولا عرض ولا عمق، وهي جوهر الإنسان وليست شيئاً غريباً عارضاً له، إذ هي كالإنسان للبدن لحاجته إليها دون أن تحتاج هي إليه.

والنفس بسيطة ذات شرف وكمال عظيمة الشأن جوهرها جوهر الباري عز وجل، فهي جوهر إلهي روحاني بما يُرى من شرف طباعها ومضادتها لما يعرض للبدن من الشهوات والغضب.

فالنفس الإنسانية ذات الأصل الإلهي هي الكفيلة بمنع القوة الغضبية التي قد تثير الإنسان في بعض الأوقات من أن يفعل فعله، وتضبطه كما يضبط الفارس الفرس إذا همّ أن يجمح به. كذلك فإن هذه النفس العقلية هي التي تمنع القوة الشهوية عند الإنسان وتضادها.

وهذه النفس التي هي من نور الباري عز وجل إذا هي فارقت البدن علمت كل ما في العالم، لا تخفى عليها خافية، فالنفس إذا فارقت البدن صارت في عالم الحق الذي يشع فيه نور الباري سبحانه.

وهذه النفس إذا تجردت وفارقت هذا البدن وصارت في عالم العقل فوق الفلك، طارت في نور الباري ورأت الباري عز وجل، وحلت في ملكوته فانكشف لها علم كل شيء، وصارت الأشياء كلها بارزة لها كمثل ما هي بارزة للباري سبحانه لأننا إذا كنا ونحن في هذا العالم الفاني المليء بالدنس قد نرى فيه أشياء كثيرة بضوء الشمس فكيف إذا تجردت نفوسنا وصارت مطابقة لعالم الديمومة، تنظر بنور الباري عز وجل فهي لا محالة ترى بنور الباري كل ظاهر وخفي وتقف على كل سر وعلانية.

فهذا العالم شبه ممر للنفس وليس مقراً لها إنه الجسر الذي تعبر عليه الآليات المختلفة. فليس لنا هنا مقام طويل، وإنما مقامنا ومستقرنا العالم الأعلى الشريف الذي تنتقل إليه نفوسنا بعد الموت، حيث تقرب من باريها وتراه رؤية عقلية حسية، ويفيض عليها من نوره ورحمته وهذه النفس البشرية إذا أرادت أن تسمو لتصل إلى أجلّ مكان وأشرفه، وأرادت أن لا تخفى عليها خافية فلا سبيل إليها لبلوغ هذا المقام والرتبة الشريفة إلا بالتطهر من الأدناس والأرجاس. فالإنسان إذا تطهر منها انصقلت نفسه وصغت، وقوة هذه النفس قريبة الشبه بقوة الإله تعالى شأنه إذا هي تجردت من البدن وفارقته وصارت في عالمها الذي هو عالم الربوبية.

والعجيب بعد كل هذا من الإنسان كيف يهمل نفسه ويبعدها عن باريها وحالها هذه الحالة الشريفة وإذا كان لهذا الإنسان أن يحزن ويبكي فعليه أن يحزن ويكثر البكاء على من يهمل نفسه وينهمك في ارتكاب الشهوات الحقيرة التي تكسبه الشر وتميل بطبعه إلى طبع البهائم. فالطهر الحق هو طهر النفس لا طهر البدن. فليعلم هذا الإنسان المتعجل دائماً أن مقامه في هذا العالم إنما هو كلمحة ثم تصير إلى العالم الحقيقي لتبقى فيه إلى أبد الآبدين. فالإنسان في هذه الدنيا ليس إلا عابر سبيل بإرادة الخالق سبحانه. ومن يدرك ذلك ويفهمه فلابد أن يسعده الله تعالى في دنياه وآخرته.

النفس في الفلسفة العربية الإسلامية

القرآن الكريم ذكر النفس في مواضع عديدة قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١]، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

هذه الآيات الكريمة وغيرها وردت في القرآن الكريم لوصف النفس الإنسانية وتقلباتها وأسرارها. ولقد تلقف علماء الكلام المسلمون هذه الآيات الكريمة ليخرجوا للعالم بنظريات رائعة حول النفس الإنسانية مستمدة من النظرة الدينية الإسلامية، مستعينين بذلك بالآراء اليونانية والهندية وغيرها من تلك الآراء التي لا تعارض الفكر الإسلامي لا بل ربما اتفقت معه في مواقف كثيرة.

وكان من الطبيعي أن تختلف آراء علماء المسلمين حول النفس البشرية

وماهيتها، فظهرت آراء الأشعري والباقلاني، ثم آراء المعتزلة وابن سينا وابن خلدون وغيرهم، وسوف نعرض لبعض هذه الآراء:

بالنسبة للروح نجد أن المعتزلة اختلفوا حول حدودها فهي مفهوم ما ورائي. وهكذا قال بعضهم "الروح هي جسم وهي النفس"، وقال آخرون "إنها عرض" وأعلن فريق آخر لا أدريته فصرح أنه: "لا يدري أن الروح جوهر هي أو عرض" أما النفس فقال عنها الأصم "النفس هي هذا البدن بعينه لا غير" وقال معتزلي آخر إنها معنى هي ومعنى موجود، ذات حدود وإنها غير مفارقة في هذا العالم، ورأها ثالث على أنها "معنى بين الجوهر والجسم" ورابع قال "هي عرض من الأعراض يوجد في هذا الجسم".

النفس عند ابن سينا:

يعتبر ابن سينا خير ممثل للفلسفة العربية الإسلامية (العربية النطق، الإسلامية حضارياً) إنه نموذج للفيلسوف بالمعنى اليوناني للكلمة في الحضارة العربية الإسلامية. انتفع ممن سبقه إلى أقصى الحدود ثم أضحى ولمدة طويلة منبعاً ومدرسة.

وابن سينا من أنفع الذين يمكن الاعتماد عليهم من فلاسفة المسلمين في القطاع النفساني، فقد اهتم اهتماماً بالغاً (بالنفس) وكتب في هذا الميدان بحوثاً عدة. كما وضع شرحاً لكتاب أرسطو في النفس وله بعض الرسائل في هذا المضمار لم تزل مخطوطة.

إثبات وجود النفس:

يستهل ابن سينا دراسته للنفس باثبات وجودها تاركاً تحديدها، كما هو الحال اليوم بعدم تحديد نهائي لعلم ما، إلى ما بعد التحقيقات.

فما هي براهينه:

البرهان الأول: يدور حول انفعالات الإنسان التي لا نجدها عند الحيوان (الضحك، التعجب، البكاء الخجل) وكذلك النطق وما يمثله وبكونه عند الإنسان من عالم الرموز والتجريد وأنواع العلم والمعرفة مثل التصديق (العلم الناتج عن القياس والبرهان) والتصور (العلم المكتسب بالحد، لا لزوم هنا لمبادئ يجري عليها أو ينتج وفقاً لها) وهنا يقول ابن سينا إن هذه الانفعالات (أحوال نفسية وهذه الخصائص للإنسان، موجودة حية بسبب النفس التي له.

البرهان الثاني: هو ما يسمى بـ (برهان الاستمرار) النفس ثابتة مستمرة (يتذكر المرء الكثير من ماضيه) البدن يكون بالعكس، في تحلل وانتقاص فالنفس إذن مغايرة للبدن، إنها واحدة ودائمة والقول بوحدة النفس هو البرهان الثالث، فهناك شيء جامع لسائر الأحاسيس والادراكات والأفعال إنه النفس إلـ "أنا" (أنا أمشي – أنا أتكلم – أنا أسمع).

النفس حادثة، خالدة، واحدة رغم تعدد قواها.

النفس جوهر، مغايرة للجسم، تستطيع أن تكون دون بدن ولا يصح العكس، لكنها لا تكون قبل البدن بل توجد معه. ومما يميز مذهب ابن سينا الحاحه على هذه الثنائية وعلى أن النفس غير موضوعة في جزء من أجزاء البدن وأنها خالدة، صحيح أنها تحدث مع البدن، بيد أنها لا تفسد بفسادة وإن كانت صورته، وابن سينا يرفض التناسخ.

أما ابن خلدون فقد تعمق وأضاف إلى ما يسمى اليوم (علم النفس الاجتماعي) وإلى علم الاجتماع بعامة. فقد قال ابن خلدون بقانون التقليد: يقلد الإنسان من غلبه، من هو أقوى منه، العامة تقلد الملوك، والفقراء يقلدون الأثرياء، والتقليد يتم عن اقتناع داخلي، عن اعتقاد ينبع من النفس. كذلك يفسر ابن

خلدون قيام الدول، أو أعمار الدول وبقائها وأركانها وأدوارها – كما يفسر لحمة القبيلة باحساس واحد بشعور عام، شبه وحيد هو العصبية، إنه يفسر نشوء الدولة ووجود القبيلة بمشاعر فردية إنسانية. وضمن المصطلحات الحديثة فإن هذا ينطبق على التفسيرات النفسانية للمجتمع.

وفي مجال علم النفس الاجتماعي فإن ابن خلدون يذكرنا بنظرية (روح المجموعة البشرية) (عقل المجتمع أو الجماعة البشرية) عند مال دوغل (١٨٧١-١٩٣٨).

وعن المجتمعات المختلفة يقول: (لكل مجتمع نفسية عامة تميز أفراده، وتعطيهم شخصيتهم فالمجتمع الحضري يعطي أفراده نفسية وخصائص معينة، والمجتمع البدوي يميز أفراده بلون خاص؛ ظواهر اجتماعية تحدد السلوك والنفسية للأفراد ذلك عطاء خلدوني خلاق يؤكد أن الأوضاع وتطور العلوم والصناعات سبب الاختلاف بين العقول ثم بين الأمم وداخل المجتمعات.

كذلك يقول ابن خلدون بتأثير المناخ والإقليم والأرض والتربة في تكوين نفسية الفرد، كما في تمييز المجتمع وظواهره المختلفة.

معظم هذه الآراء لابن خلدون – وهي خطرات ولمحات أحياناً، وأحياناً معمقة ومنهجية حتى أقصاها، تؤوب إلى علم المجتمع، إلى علم النفس الاجتماعي لا إلى علم النفس العام، ولا إلى النفس في الفلسفة، فبصدد وجود النفس وخلودها وما أشبه فإن ابن خلدون بقي في ذلك كله تقياً مؤمناً بالله وبرسالة الإسلام الخالدة بعيداً عن شطحات الفلاسفة وتعليلاتهم وتقلباتهم وأحياناً غموض أفكارهم وإبهامها عن العامة.

ونستطيع القول بأن نفس الإنسان هي التي تتوسط العقل والبدن، فهذه النفس هي التي تعكس طبيعة ممارسات الإنسان وسلوكياته ورغباته وفق تركيبه الذهني، فالإنسان المؤمن مثلاً نرى أن عقله وبواسطة الإيمان يفرز ممارسات هي بنظرة تمثل

الأخلاق الفاضلة والقيم النبيلة وأعمال الخير التي فرضها الخالق على عباده، وهذا كله ينعكس على نفس هذا الإنسان فنراها راضية مطمئنة تتميز بالتقوى والاستقامة في السلوكيات إزاء نفس الإنسان حاملها وإزاء الآخرين، وهي ليست أمّارة بالسوء كغيرها من النفوس التي ابتعد أصحابها عن جادة الصواب واتبعوا الهوى وغلبتهم نفسهم الأمارة بالسوء والتي كانت انعكاساً لفكر ذلك الإنسان واعتقاداته.

فالنفس الإنسانية إذن هي ذلك الميدان الواسع الذي تبرز فيه كل انفعالات الإنسان ورغباته، هي مركز سعادة الإنسان وشقائه، بساطته وتعقيداته، سلامته وأمراضه النفسية وعقده، لذلك عرف العالم اليوم ما يسمى بالعقد النفسية، وغيرها من الأمراض التي تصيب هذه النفس وما أكثرها وأكثر أسمائها، فالنفس إذن هي محرك كل السلوكيات البشرية والناتجة عن إفرازات الدماغ البشري وطبيعة تركيبته التي تتحكم بها عوامل مختلفة منها الوراثية وأخرى البيئية المحيطة بمعيشة الإنسان ومستواه الاجتماعي والثقافي إلى جانب تجارب الحياة المختلفة. وهذه النفس بارتباطها بالعقل هي جوهر الوجود الإنساني لذلك نرى الخالق سبحانه يقول: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧- ٨] وقال سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ [الرعد: ٤٢] والخالق سبحانه اختصر كل شخص بنفسه فصور لنا أن كل نفس يوم القيامة تحشر ومعها من يقودها للحساب ومن يشهد عليها ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١].

كذلك فإن النفس لتحاسب الإنسان يوم القيامة على إهماله وتقصيره لأنها هي التي صدرت عن ذلك السلوك، فهي أدرى به من غيره، إذ هي والكتاب المقروء سواء في تقرير الحقيقة السلوكية ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، ولأن النفس الإنسانية هي جوهر شخصية الإنسان ومستودع الكثير

من سلوكياته فإننا نرى القرآن الكريم يصور مدى أهمية هذه النفس بقوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١] أي بما كسبت من أعمال هي لا غيرها المسؤولة عنها، فهي التي تجادل عما فعلت ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]، ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ [الرعد: ٤٢]، فالنفس إذن تكسب عملها بمحض حريتها واختيارها وإرادتها، فهي إذن رهينة عملها الذي سيحاسبها الله به. ماذا أودع الله سبحانه في النفس؟.

حينما يصدر السلوك عن النفس، وتكون مسؤولة عنه إذاً لا بد أن تكون النفس الإنسانية مصدراً لدوافع السلوك، ومستودعاً لها، ففيها الفكر والغرائز والاستعدادات والقابليات والأحاسيس والعواطف، والإنسان يصدر بسلوكه عن كل ما استودع فيه، وهي الحقيقة التي كان للقرآن الكريم السبق في كشفها.

ففي النفس معرفة الله، وهو ما يسمى بالشعور الديني الفطري في الإنسان.

وفي النفس معرفة الخيرو الشر ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧- ١٠]، وهذه النفس تحتضن الميل الفطري إلى الخير ونبذ الشر لأن الميل إلى الشر يعني الانحراف عن الفطرة السليمة وفراغ القلب من النور الإلهي والذي يقترن بالحق الفطري الساطع.

وفي النفس أيضاً يكمن ما في الإنسان من الإرادة والتحمل ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨] كذلك فإن في النفس البشرية كل ما أودع الله في الإنسان من عواطف مثل: عاطفة الإشفاق والألم المعنوي ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ - أي مهلكها - أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وكذلك عاطفة الحزن ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨].

عاطفة الخوف ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٧]، عاطفة الحب والميل النفسي: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

وفيها الرغبة ﴿وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وفيها الشهوة الجنسية ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]، ففي النفس ميل جنسي، كما أن فيها إباءاً وتسامياً.

وفي النفس أيضاً التذوق والاستمتاع للطعام والشراب والجمال الطبيعي والمعنوي ﴿وَفِيهَا - الجنة - مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١]، وما تشمل الأخيلة والتصورات والأماني الإنسانية.

وكذلك فإن في النفس الإنسانية الحس المعنوي والشعور بالتعب والجهد ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧].

وفي النفس كذلك النوايا والهواجس ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، نخلص من كل ما سبق إلى نتيجة مؤداها أن إهمال النفس إساءة كبيرة إليها، فإن من استوعب فهم الحياة ونظامها الرباني، وتجاوب معه سلبياً، بسلوك رديء سيء، أو نقيض الهدى الرباني، فهو مسيء إلى نفسه.

كذلك فإن من أهمل نفسه بالتفهيم النظري والتدريب العملي على اتباع منهج الخالق سبحانه فلا شك أن نفسه سوف تذوى وتموت طاقاتها فيفشل

صاحبها ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٠] أي فشل من أهملها وأخفى طاقاتها إذا لم يستغلها ولم ينمها.

ومن معجزات هذا الكتاب المعجز القرآن الكريم الإقرار بالفروق الفردية في النفس الإنسانية صحيح أن هذه النفس تجتمع صفاتها في إطار واحد لها خصائص الجنس الإنساني، إلاّ أن فيها من الفروق الفردية التي تخصب الحياة وتجددها وتطويرها قال تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٤]، أي أن سلوك كل إنسان يتجاوب مع ما في نفسه من فروق تختلف عما في غيره ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وعلى العموم نستطيع أن نتتبع ثلاثة أنواع للنفس الإنسانية في القرآن الكريم كما أسلفنا في غير موضع. وهي:

النفس المطمئنة ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ [الفجر: ٢٧- ٢٨].

النفس اللوامة: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢] التي تلومه على أخطائه وتقصيره.

النفس الأمارة: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ٥٣] والقرآن الكريم يجمل أنواع النفس الإنسانية في آية جامعة: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

كيف عالج القرآن الأمراض النفسية؟

صحيح أن القرآن الكريم يبين النفس المطمئنة لدى الإنسان المسلم، ولكن هذا لا يعني أن بعضاً من المسلمين يصابون بأمراض نفسية نتيجة عوامل مختلفة، وإن كان هذا الإنسان المسلم أقل الناس تعرضاً لمثل هذه الأمراض وذلك لفضل تعاليم الإسلام في الوقاية والعلاج للمشكلات النفسية المستعصية، فقد ثبت من دراسة حالات الاكتئاب النفسي أن نسبة تصل إلى ١٥٪ من المرض يقدمون على الانتحار، وتصل نسبة الانتحار في الدول المتقدمة إلى ٤٢ لكل ١٠٠ ألف في السويد والدنمارك و ٤ لكل ١٠٠ ألف في المجر و ٣٦ لكل ١٠٠ ألف في الولايات المتحدة وبريطانيا بينما تقل هذه النسبة في الدول العربية والإسلامية إلى نحو ٢ لكل ١٠ ألف في مصر مثلاً أي أقل بنسبة ٢٠ ضعفاً والفضل في ذلك يعود إلى تعاليم الإسلام الواضحة حول الانتحار وقتل النفس، ومثال آخر مشكلة تعاطي وإدمان الكحول التي تتسبب في الكثير من المضاعفات والحالات المرضية عضوياً ونفسياً، وينجم عنها زيادة في نسبة الحوادث والجرائم لاسيما العائلية منها، وهي مشكلة تكاد تكون هامشية في الدول العربية والإسلامية بفضل تحريم الخمور في القرآن الكريم.

أما علاج القرآن الكريم لبعض الأمراض النفسية، فلنأخذ مثالاً على ذلك مرض خطير يصيب الكثير من الناس وتمتلىء به المصحات والعيادات النفسية، إنه مرض الفصام.

وهو مرض خطير ينتشر انتشاراً واسعاً وله تعريفات كثيرة فيعرفه كربيلن: أنه الخرف المبكر وملامحه الاكلينيكية السلبية والانسحاب وفقد الإرادة وضعف الحكم على الأمور والتناقض بين الوجدان والسلوك والتفاعل العام واضطراب التفكير

وعدم التمييز بين الواقع والخيال.

وفي تعريف آخر حاول بلولر أن يقسم الأعراض المرضية إلى أعراض جوهرية أساسية مثل اضطراب التفكير واضطراب الوجدان وثنائية المشاعر. ثم أعراض مصاحبة مثل الهلاوسة والضلالات. ويعد بولر أول من أطلق على الفصام اسم (شيزوفرينيا) ومعناه الانقسام العقلي الذي يختلط عند عامة الناس مع ازدواج الشخصية (اضطراب تعدد الشخصية والفصام له أنواع منها الفصام الاضطهادي وفيه ينشغل المريض بواحد أو أكثر من الضلالات أو هلاوس سمعية شديدة، والفصام غير المنتظم يبرز فيه لا خلل الحركي في صورة الجمود وغرابة الحركات الإرادية ومحاكاة الكلام أو الحركة إلى جانب أنواع أخرى منه.

وغالباً ما يحدث الفصام بين الخامسة عشرة والأربعين من العمر من زيادة الحدوث مع أواخر العشرينات.

والسؤال الآن ما علاقة ذلك بالإعجاز القرآني لمرض الفصام وللإجابة نقول إن القرآن ذكر هذه الأعراض والأصناف وشخص هذه الحالات وأكد على أنها ترجع إلى خلل في التعليم وتعد اضطراباً خطيراً يؤثر على الفرد وعلى المجتمع.

ففي سورة البقرة نجد رب العزة يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ
ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ
غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم
بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي
قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ
لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا
يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ

ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ٦- ١٦] إنهم لا يسمعون ولا ينصتون فقلوبهم وعقولهم مغلقة على تقليدهم ويعانون من اضطراب في القلب والسمع والبصر يصل إلى حد الهلاوس والضلالات فهم لا يسمعون إلا صوت ألسنتهم هم فئة من المجتمع لديهم اضطراب في الوجدان والسلوك وخلل اجتماعي، فهو منسلخ عاطفياً عن كل ما حوله.

وعلاقته مضطربة بالعالم الخارجي فيما يسميه علماء النفس "بالذاتوية"، أيضاً يعاني من خلل في الروابط الاجتماعية ولديه رابطة مزودجة وثنائية في التفكير وسلوكه يخالف ويناقض وجدانه ولا يرعى قواعد المجتمع ولا أصوله وتتضاءل عنده القيم والأعراف الاجتماعية. وسبب ذلك كله أنهم اشتروا الضلالة بالهدى فهم يتاجرون بالخسارة والعلاج هنا في الآية شراء الإيمان واتباع الهدى واتخاذ معية الله في كل شيء.

العلاج الإسلامي للاكتئاب:

الاكتئاب مرض نفسي خطير يصاب به الكبار والصغار أيضاً كما ثبت مؤخراً. والاكتئاب يعني أن يستمر الوجدان لمدة طويلة في حالة سوداوية. وتحدث استجابة الاكتئاب في المواقف العصبية الشديدة في الشخصية المتكاملة، وفي مواقف بسيطة في الشخصية العصابية المهيأة لذلك.

وعادة ما يظهر الاكتئاب لدى الأطفال في شكل مشاعر الحزن والعجز والذنب والإحساس بالدولية. ويرتبط الاكتئاب لدى الأطفال بكثير من المشاكل

والاضطرابات الأخرى مثل الشكاوى العضوية والغضب وتدني المستوى الأكاديمي. وكذلك الصعوبة في التركيز والانتباه، ويتمكن منه التشاؤم واليأس، إلى جانبه الأرق والتعب السريع وانخفاض مستوى الطاقة والأداء.

في الأذرع والسيقان:

والإسلام بنظرته الشاملة للإنسان في كل أمور حياته الدنيوية والأخروية يجنب الإنسان كافة المنغصات أو توقع الأخطار لأنه ربى الإنسان على التوكل على الله والثقة بمشيئته وإن الخير كله بيد الله سبحانه وتعالى. وإن أي خير أو شر يصيب الإنسان في حياته إنما حكمة منه سبحانه وفيه كل الخير للإنسان في كل الحالات. فربما كانت ضارة نافعة، ومنفعة بها الكثير غير المتوقع. لذلك فإن الإنسان المسلم الحق والمؤمن كما يجب أن يكون الإيمان لا يمكن أن يصاب بالإحباط مهما كانت الدواعي له عند غيره من البشر كموت أعزاء أو فقدان ثروة أو منصب أو جاه، فالإنسان المسلم عليه أن يتعلم الصبر إزاء أحداث ونوائب الدهر.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٥) ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦) أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)﴾ [الزمر: ١٠] وقال جل من قائل: ﴿وَٱلْعَصْرِ (١) إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ (٢) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

فالإسلام يربي المسلم على فضيلة الصبر والتي لا تعادلها أي فضيلة أخرى عرفتها البشرية.

أما موقف الإنسان المسلم الذي أسرف على نفسه في الذنوب وأصابه الهم والحسرة جراء ذلك، فإن القرآن يفتح له باب التوبة والمغفرة وثقة الإنسان برحمة ربه وهو الغفور الرحيم كل ذلك وغيره يخفف على الإنسان المسلم من تبكيت النفس وتراكم الحزن في داخله وهو الأمر الذي يؤدي إلى الاكتئاب وغيره من الأمراض النفسية. قال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣ -٥٤]، ولو رجعنا لأحاديث الرسول ﷺ في التوبة وعفو الله فسوف نجدها كثيرة، قال عليه الصلاة والسلام "إن التوبة باباً عرضه ما بين المشرق والمغرب".

ومن أساليب علاج الاكتئاب الحب والتعاون مع الآخرين وقد توافرت الآيات إلى جانب الأحاديث التي تؤكد ضرورة وجود الحب في العلاقات الإنسانية كصمام أمان للبشرية وليست العلاقات النفعية الانتهازية. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ﴾ [الحشر: ٩]، وقال الرسول ﷺ "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

والحقيقة أن الإسلام في علاجه للأمراض النفسية أو العضوية لا ينكر استخدامه الأدوية الأخرى، لأن الإسلام دين العلم والعقل والتفكير والمعرفة، وفي نظرته لكيفية علاج الاكتئاب فإنه يتبع المحاور الآتية:

١- على الإنسان المسلم أن يمتثل لأوامر الله سبحانه وتعالى بالصبر على كافة ظروف الحياة وأن لا يسرف على نفسه ولا يعض البنان ندماً لا ما سوف يكون قد كان.

٢- أن لا يسرف الإنسان على نفسه بالآثام والذنوب وإنما عليه أن يدرك أن باب التوبة مفتوح ليل نهار طالما هو التزم بشروط التوبة وعزم على عدم العودة على ما فات من معاصي.

٣- أن يقيم علاقات حب حقيقية مع الآخرين دون غايات ومصالح يرجوها، وبذلك لا يكون بحاجة إلى الانكفاء على الذات وعدم البوح للآخرين بما ينغص صدره من كروب وهموم ولا نجد أبلغ من دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٧- ٨٩].

٤- كذلك فإن القيام بالعبادات والتقرب إلى الله من أنجع أدوية الأمراض النفسية وإعطاء الإنسان مزيداً من الثقة بالنفس، وعدم الخوف من بشر أمثاله ورد القلق على غده ومستقبله وهي أهم ما يسبب مرض الاكتئاب.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. أما الابتعاد عن ذكره وطاعته سبحانه فإنه يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه لاسيما فيما يتعلق بالتعب النفسي ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩] فمن يسعى لكي يحقق للنفس السكينة والطمأنينة والسعادة فلا بد أن يتجه صوب الإيمان بالله الحصن الحصين والركن الركين، فلا راحة للإنسان ولا رفعة ولا طهارة ولا خير سوى الإيمان بالله العلي القدير.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

العلاج الإسلامي للقلق:

القلق من أمراض العصر الذي نعيشه ولعله أكثر الأمراض النفسية شيوعاً، فالقلق يعم الكثيرون من أبناء الأجيال المعاصرة وعلى إختلاف أعمارهم وطبقاتهم ومكاناتهم الاجتماعية ودرجات العلم والوعي بينهم، ولكل سببه في القلق الذي يعتريه، البعض مما يشعر به من ضياع وفراغ روحي جعل نفسه خواءاً وليس له موقف في الحياة، يعيش تائهاً، كمن ضل السبيل ودائم البحث عن الطريق الذي ربما يوصل إلى مكان أو هدف ربما يبحث أو لا يبحث عنه.

والبعض قلق على مستقبله في الحياة القادمة وهل سوف يستطيع أن يجد موضع قدم في تزاحم الأقدام المخيف الذي يراه مائلاً أمامه؟

وآخر قلق لخواء روحه وقلبه من الإيمان والبحث المستمر عن ماهية الحياة والإنسان والموت وما بعد الموت والذي غالباً لا يصل إلى نتائج حاسمة يركن إليها وتطمئن بها نفسه. والبعض قلق على منصب هام وصل إليه أو مركز اجتماعي وجاه تبوأه وربما كان يستحقه أو لا يستحقه فهو دائم القلق على وضعه وما ستؤول إليه أموره في المستقبل. والمحصلة أن لكل أسبابه فيما يعاني من قلق، ولكن كل هؤلاء من البعيدين عن مفهوم الإيمان الصحيح وغير المؤمنين بقضاء الله وقدره، وأن أمور الإنسان كلها بيد الله سبحانه "والذي خلق الإنسان في كبد" فالله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه لأنه أقرب إليه من حبل الوريد، لذا فإن الخروج أو التمرد على هذا القانون قد يقود الإنسان حقاً إلى طرق التوتر والتمزق.

والدين الإسلامي أفاض في تقديم القوانين والقواعد والتي لو اتبعها الإنسان فسوف تقوده حتماً إلى السواء النفسي.

فالإسلام يربي الفرد على التوكل على الله والذي يزيل من الفرد كافة العوامل التي تقوده إلى الخوف والقلق والتوجس ثم إن الإسلام يعلم الإنسان أن المرزق بيد الله ولذلك يجب أن يثق الإنسان بهذه الحقيقة وأن الله سبحانه يسبب

الأسباب. فمن كان رزقه على الله فلا يحزن بشرط الأخذ بالأسباب. ولعل هذه القناعة تجعل الإنسان لا يخشى أي شيء لأن رزقه على الخالق سبحانه، وحتى لو ابتلي الإنسان بالعوز والفقر فيجب أن يقتنع أن ذلك لا يتم عبثاً بل بحكمة من الله ولا يعلمها إلا هو سبحانه ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

كذلك فإن الإسلام جعل من الإنسان المسلم إنساناً اجتماعياً يرفض العزلة والانطواء على النفس وعدم الاهتمام بقضايا غيره من المسلمين فالله دائماً في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، لذلك فإن عدم الانكفاء على الذات والاهتمام بقضايا الآخرين يجعل الإنسان إنساناً خيراً بطبعه واصلاً لرحمه عائداً للمرض مشاركاً في تشييع الجنازات، باحثاً عن مشاكل الفقراء والمساكين وأصحاب المشاكل لمديد العون لهم. وهذا ما يدخل السرور في قلب الإنسان ويجعله دائماً متعائلاً بعيداً عن القلق والأمراض النفسية التي يتميز بها هذا العصر.

كذلك فإن الإسلام بأمر الإنسان المسلم مواجهة الإساءة بالحسنى وعدم مقابلة الشر بمثله ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، فكثرة الخلافات والمشاكل بين أبناء المجتمع الواحد تجعل الإنسان دائم القلق غير أمين أحياناً على روحه أو ماله وعرضه، والقرآن الكريم المنزل من الله سبحانه خالق هذه النفس البشرية والأعلم بخباياها نراه يقول في كتابه الكريم ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] وقال جل من قائل ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣]، وبعد فهذه جوانب من الأساليب التي قدمها القرآن الكريم بصورة واقعية وعلمية لمواجهة قلق الحياة ومنغصاتها. ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

وما دمنا بصدد الكلام حول العلاج القرآني للأمراض النفسية فلا يقوتنا أن نتكلم عن أهمية تحريم الإسلام للخمور وكل ما شاكلها من مواد تذهب بعقل الإنسان وتعمل على تحطيم أعصابه وتعريضه لاختل الأمراض الجسدية والنفسية معاً. وهي الآفات التي يمتاز بها عصرنا الراهن ويراها ويسمع عنها عدا عمن يعيشها كل من ألقى السمع وهو بصير فمشاكل المخدرات والإدمان تمثل أخطر أمراض العصر وقد جيشت لها مختلف دول العالم رجال الأمن والجمارك والأطباء والمصحات النفسية لمحاولة علاج أمراضها ومحاولة القضاء عليها أو التخفيف من آثارها القاتلة. فأي معجزة حققها القرآن الكريم حينما أمر بتحريم هذه الخبائث قبل مئات القرون وعمل على محاربتها ومنع إنتاجها والاتجار بها وبالتالي انتشارها، ويكفي لبيان خطورة هذه الأمة أن كل من يمارسها وفي كل أنحاء العالم يعتبر مريضاً يستحق الرعاية والعلاج، وتختلف دول العالم تصرف الملايين على هؤلاء المرضى.

أما الأموال التي تصرف للحصول على تلك السموم فإنها لو أنفقت على خدمة الإنسان على سطح هذا الكوكب لعمت الرفاهية مختلف أرجاء المعمورة، ولزال الفقر والتخلف الذي يعم ملايين البشر في العالم، وللدلالة على إنحطاط هذه المواد أن من يقوم بترويجها وبيعها يعتبر في كافة أنحاء العالم مجرماً خارجاً على القانون، وتعتبر أمواله غير شرعية. فأي عظمة هذه التي ترى القرآن الكريم قد وضعها في قلب ونفس الإنسان المؤمن وأي صحة نفسية غرسها وكرسها في هذه النفس، إنها معجزات القرآن الكريم المتجددة دوماً والتي يقف على أسرارها جيلاً بعد جيل ليتحقق استمرار الإعجاز القرآني إلى قيام الساعة، وهو الإعجاز الذي أراده الخالق سبحانه أن يكون في استعمال العقل البشري بالشكل الصحيح والأمثل، ويعكس المعجزات المادية للأنبياء الآخرين والذين انتهت بنهايتهم، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣].

ضبط النفس البشرية

خالق النفس البشرية أدرى بخباياها وأسرارها وتقلباتها، النفس البشرية الأمارة بالسوء والتي تلهث وراء العاجلة وتذر الأجلة النفس التي تميل إلى إشباع غرائزها وإرضاء ميولها وأهوائها ونزواتها وما أكثرها وأقربها من متناول يد الإنسان الذي يجري وراءها ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧- ١٠].

الخالق سبحانه الذي سوى النفس البشرية أرادها أن تكون بتلك الصفات والطبائع ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. خلق الإنسان وهداه النجدين إما شاكراً وإما كفوراً، حلق به طبائع الخير والشر ووضعه أمام طريقين طريق يقوده للخيرو الجنة في النهاية وينال بذلك سعادة الدارين، والآخر طريق يسوقه للشر ومهالكه في الدنيا والآخرة.

الله سبحانه وتعالى الذي يعلم خفايا هذه النفس البشرية لم يترك لها الحبل على غاربه ولكنه سبحانه شرع لضبط هذه النفس البشرية وتقلب أهوائها. لأنه سبحانه يصلح بأن غياب هذه الضوابط لابد أن يقود المجتمعات الإنسانية إلى الفوضى والدمار. فالعكوف على اللذائذ ومطاوعة الأهواء وإجابة الرغبات الدنيا أمراض إذا تمكنت من الأمم فإن ذلك يعني انحلالها وتعرضها للهلكة، فهي نذر الفناء ودلائل إدبار السيادة. فالإنسان هو ألد أعداء أخيه الإنسان، فالظلم لا يكون إلا من إنسان لآخر، الظلم الذي يتجلى في السطو على حقوق الآخرين، هذه الحقوق المتمثلة في المال والحرية والأمن والطمأنينة، لا بل وتهديد حياة الإنسان ذاتها، ولم يشهد التاريخ عدداً للإنسان في هذه الحياة أخطر من الإنسان ذاته هذا الإنسان

الأناني أبشع ذو النزعات والرغبات التي لا تنتهي والتي يعمل على تحقيقها بكل السبل والوسائل المتاحة إن لم توجد الضوابط والروادع التي تمنعه من ذلك.

قال تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

فالقرآن الكريم يضبط النفس البشرية أولاً بتذكيرها وإيقاظها من غفلتها، هذه الغفلة التي تسيطر على الإنسان الذي يلهث ويركض في طلبها ويحرص عليها حرص من يظن أنه يعيش فيها عيشة الخلود ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣].

والقرآن الكريم يتضمن العديد من الآيات الكريمة التي تحض الإنسان على التقيد بأخلاق الإسلام وقيمه وتعاليمه السامية. ولكن الله سبحانه العالم بنفوس عباده يذكّرنا دائماً بأن هنالك من المسلمين وغير المسلمين من لا تردعهم التعاليم المجردة عن الانحراف، لذلك قرر سبحانه ومن أجل ضبط تصرفات النفس البشرية عقوبات دنيوية للمنحرفين ولاسيما أولئك الذين يعتدون على أرواح وأموال وأعراض غيرهم من عباد الله لأن الحياة لا تستقيم بغير ذلك. فأمر سبحانه بالزكاة وجعلها فريضة على المسلم القادر.

وحدد الأسس والقواعد لقضايا الزواج والطلاق والتعامل بين الأزواج والأقارب، وبين مختلف فئات المجتمع بعضهم ببعض.

كما قرر سبحانه إنزال العقوبات في الحياة الدنيا بكل معتد على غيره، فوضع الحد للسارق والزاني والقاتل وقاطع الطريق وكل خارج على القوانين والأعراف

الفاضلة التي أقرها الإسلام قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ١٧٩]. لقد شبه سبحانه إنزال العقاب بالمجرمين والتخلص من أذاهم ببعث الحياة في بقية أبناء المجتمع الشرفاء المهتدين للصراط المستقيم.

ونحن نرى ما تعاني المجتمعات التي تتساهل في إنزال العقاب بالمجرمين كم يسودها من الانحلال والفوضى، حتى لم يعد الإنسان في تلك المجتمعات يأمن على نفسه ولا ماله وعرضه، وكل ذلك يسود باسم حقوق الإنسان والحرية الفردية، وكان حقوق الإنسان وحريته الفردية لا تتم إلا بالاعتداء على أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم. إنه تخبط الإنسان الذي يُشرع لنفسه فتغلب عليه الأهواء والمصالح الذاتية أو الفئوية أو الطبقية وغيرها مما يتجاذب الإنسان من أهواء وميول ونزوات.

وهذا ما تلحظه أجيالنا هذه والتي تعاني من أولئك الذين يزينون الرذائل للشبان ويدفعونهم لحب الجريمة ويصورون الحياة لهم على أنها غرائز يجب إشباعها وفرص يجب انتهازها وحرية ليس لها قيد وانطلاق لا يهدأ عند حد. إنها هفوات الإنسان الذي اتخذ إليه هواه فتاه في دروب الحياة ودهاليزها يسير على غير هوى ولا طريق قويم قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ۝٢٦ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ۝٢٧ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٦- ٢٨] هذه هي طريق نهوض الأمم، إنه الإيمان الصادق بالله عز وجل والسير على الصراط المستقيم، فلا يمكن أن يستوي المؤمن وغير المؤمن، ويستحيل أن تفلح أمة استثقلت مطالب المجد واستمرأت مزالق الرجس، والأمم التي تنشد الحياة الكريمة تأخذ لهذه الحياة أهبتها، فإذا صممت على سلوك دروب السطوة والقوة نراها تعد لها كل

العدد المناسبة وإذا أرادت الغلبة الاقتصادية حشدت كل إمكاناتها لتحقق هذه الغلبة، وكذا في مجال التفوق العلمي أو الفني والرياضي وما إلى ذلك من مجالات الحياة المختلفة.

أما الأمم التائهة في دروب الحياة والتي لا تعرف لها هدفاً محدداً فإنها تبقى مترنحة تحت أقدام الأمم الأخرى ونراها لا تحشد قواها لتحقيق شيء لأن لا شيء ولا هدف أمامها تسعى للوصول إليه وتحقيقه. إنها دائماً تركض وراء السراب وهي تحسبه ماء.

وهذا ينطبق على كل الأمم حتى لو كانت أمة مسلمة، لأن الإسلام إيمان وعمل وبناء وإخلاص للأمة والمبادئ.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

صدق الله العظيم.

القرآن الكريم وتحقيق الصحة النفسية

إذا كانت الصحة النفسية تعني الخلو من المرض النفسي فمعنى ذلك أن السلوك السوي هو الوسيلة إلى تحقيقها كما أنه المظهر الذي يدل عليها، ومن مظاهر السلوك السوي في الإسلام:

١- **الصبر:**

فالصبر على المكاره يعني القدرة على التحمل وضبط النفس والاستبصار، كما يعني النظر إلى الأمور والتعامل معها بشكل واقعي. فالله يبتلي العباد أحياء ويمتحنهم تارة بالسراء وأخرى بالضراء من خوف ومرض وجوع ولقاء وفراق، ونصر وهزيمة ليعلم من يصبر ويشكر أو يضجر ويكفر.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٦]، ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١].

كما أرشدنا القرآن الكريم إلى وسيلة من الوسائل الناجعة في المحافظة على سلامة الصحة النفسية للفرد وهي المثابرة على الصبر والصلاة، لأن الاستعانة بهما تؤدي إلى شكر الله على نعمه، والصبر والتسلية بقضائه في حالة نعمته والاطمئنان إلى حكمه في غير ذلك، هذا إلى جانب الرضى بما قسم سبحانه ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا

رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤- ٣٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

هذه الآيات الكريمة في معانيها السامية تبعد الإنسان عن الاضطرابات النفسية، هذه الاضطرابات التي تعود في معظمها إلى عوامل الكبت النفسي التي تؤدي لسيطرة اللاشعور على توجيه السلوك بشكل لا إرادي. ولذا ينبهنا القرآن الكريم إلى أن السيطرة على مشاعرنا، والتفكير الإيجابي في حالنا يجعل أفكارنا كلها شعورية وواعية. ويمكن تحقيق ذلك عن طريق الصبر على المكاره والانتظام في الصلاة والدعاء لله باللطف في القضاء.

٢- التوازن والاعتدال والاستقامة:

وهي ذات معان متقاربة إذ تعني التوسط فالتوازن يعني العمل لخير الدنيا والآخرة، ومحاسبة النفس، وعدم نسيان ذكر الله في زحمة السعي وراء متاع الحياة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٨- ١٩].

وضرب الله مثلاً يبين اعتلال الصحة النفسية واضطرابها ويتمثل في المعاندين والمكابرين اللاهين في إفكهم وضلالهم، فهم يمشون مكبين على وجوههم بسبب اضطراب تفكيرهم وعدم اتزانهم، بينما من سلمت صحته النفسية يمشي معتدلاً مستقيماً فالصحيح نفسياً يرى معالم الطريق بوضوح فيتفادى ما يصادفه من عثرات على الطريق، ويختار مسلكه بإرادة وحرية اختيار.

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

٣- **الهدى والتقوى وطاعة الله:**

إن من يرد الله أن يهديه يقذف في قلبه نوراً يشرح صدره ويزيل الطلة عن عينيه، ومن يرد أن يضله يجعل صدره يضيق حتى ليكاد يختنق، فضيق الصدر يعني عدم القدرة على الصبر والميل إلى السلوك المندفع بلا تروي. فمن الناحية الطبية نجد أن ضيق الصدر مرتبط بالأزمة حيث تستقبل الشعب والحويصلات كمية من الهواء تقل عن طاقتها الطبيعية، مما يجعل الإنسان مضطرب التنفس متقطع الأنفاس بسبب نقص الأوكسجين وهذه في حد ذاتها واحدة من العلاقات الدالة على الاضطرابات الجسمية والنفسية أو هما معاً ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: ٧٦] أما التقوى فتعني القدرة على التفرقة بين الحق والباطل ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

أما الطاعة فإن هدفها هو طاعة العبد لله والرسول فيما أمر به وتدل ما نهى عنه، وخشيته لله كأنه يراه ويراقبه ويتابع أعماله، مما يحقق للفرد الشعور بالأمان من كل شر في الدنيا والآخرة ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

٤- **الاستغفار من الذنوب:**

يعني الاستغفار من الذنوب أن الإنسان واعٍ بسلوكه، وأن دوافع هذا السلوك

أصبحت معروفة لديه وليست أمراً لا شعورياً وخفياً لا يعرفه أو لا يملك السيطرة عليه، فالسيطرة على السلوك تعني بدورها قدرة الإنسان على تغيير ما أعوج من سلوكه أو انحرف عن جادة الصواب ويؤدي الاستغفار إلى التكفير عن الذنوب، لأنه دليل على اتجاه النية إلى التغيير من أجل مصلحة الصحة النفسية، فإذا عزم عليه كان خير عون على بلوغ المقصد.

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

٥- الاطمئنان بذكر الله:

إن الإخلاص في العبادة لله وحده لا شريك له وعدم الإشراك به يؤدي إلى الشعور بالأمن والاطمئنان النفسي، والرضى وعدم الخوف، والبعد عن القلق والانشغال. فالمؤمنون تطيب نفوسهم وتركن إلى جانب الله وتسكن عند ذكره ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

٦- الإيمان بالقضاء والقدر:

يرشدنا الله سبحانه في القرآن الكريم كما يشير في كثير من الآيات إلى قدره السابق في خلقه حتى لا يحزن المسلم على ما أصابه فييأس ويكتئب، ولا يفرح لما يجيئه فيتكبر ويطغى ويؤدي الإيمان بالقضاء والقدر إلى الشعور براحة نفسية

داخلية، وثقة في الله عز وجل، فما أصابه كان بقضاء من الله وقدره ومشيئته، وأن عليه أن يصبر ويحتسب حتى يهدي الله قلبه وأن يأمل في أن يخلف الله عليه ما كان قد فقده ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١١].

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٢ – ٢٣].

٧- تزكية النفوس:

إن الله يزكي الأنفس بأن يلهمها التوبة والبعد عن النقائص من فجور ودنس، وتقوى الله وخشية عذابه بالعمل الصالح: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢١].

٨- العمل الصالح:

وعد الله من يعمل عملاً صالحاً بأن يحيه حياة طيبة في الدنيا، وتشمل الحياة الطيبة جميع مظاهر الصحة النفسية الإيجابية من شعور بالراحة والسعادة، والقدرة على العمل والإنتاج، وقيام علاقات طيبة بين الإنسان وغيره، والقناعة والرضى بما قسم له، وعدم الإضرار بالنفس أو الغير، وكذلك ما تحمله الحياة الطبيعية من معان سامية.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

من العمل الصالح كذلك الامتناع عن الشهوات المحرمة والتي تعطي الإنسان الفرصة للتغلب على دوافعه الشريرة.

وكل هذا يتحقق بأداء الشعائر الإسلامية كما أراد الخالق سبحانه، فلكل من هذه الشعائر الأثر الأكبر في تمام الصحة النفسية للإنسان.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٤- ٣٥]، ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩- ٢٣].

القرآن الكريم أهم مصدر عرفه العالم للصحة النفسية

يعرف العلماء الصحة النفسية بأنها الخلو من المرض النفسي والقدرة على التوافق، وهذا التعريف يشير إلى مبدأ التوازن الذي يبدو في مظهرين سلوكيين هما:

١- توازن الفرد داخلياً مع نفسه، وهو ما يعني الخلو من المرض النفسي.

٢- توازن الفرد مع الكون بكل مكوناته، وهو ما يعني التوافق.

وقبل أن نبين كيف حقق الإسلام الصحة النفسية للإنسان الملتزم بأحكام الإسلام وتعاليمه لابد من الإشارة إلى ما يعانيه إنسان هذا العصر لاسيما من غير المسلمين من أمراض نفسية ربما اعتبر من ميزات هذا العصر، ومن أخطر أمراضه.

فهنالك مرض القلق النفسي والذي يقلق صاحبه دون سبب أو مشكلة يتعرض لها، إنه قلق من أجل شيء غير موجود، فصاحبه دائماً حائر زائغ البصر، يتوقع شيئاً سيئاً لا يعرفه نجده، ضيق الصدر، سريع الغضب يفقد أعصابه بسهولة، يثور لأتفه الأسباب ولا يستطيع التركيز في عمله، ومشكلة مشكلاته هي الأرق، أي صعوبة النوم. ولابد أن ينعكس كل ذلك على الجسد، أي المعاناة الجسدية وهي الأعراض الفسيولوجية المصاحبة للقلق النفسي.

هنالك أيضاً مرض الوسواس، وهو مرض يسبب ألماً نفسياً شديداً لصاحبه وكذلك للمحيطين به مثل هذا المريض يضطر مقهوراً للقيام ببعض الأفعال والطقوس التي يرفضها عقله الواعي ويرفضها المنطق، إنه يقاوم أو يحاول ذلك ولكنه لا يستطيع ولا يهدأ إلاّ إذا قام بها. وهذه الطقوس قد تسبب إزعاجاً شديداً للذين يعيشون معه، فهم يرونها غير منطقية ولا مبرر لها ولا يتصورون أنه عاجز عن مقاومتها، ولذا يبدأ الصراع بين المريض وبين أسرته لأن لا أحد يعترف بمرضه

ولا أحد يصدق أنه عاجز عن مقاومة هـذه الأفكـار وهـذه الوسـاوس والرغبـات الاندفاعية وهذه الوساوس تأتي بصور مختلفة تسبب هلعاً للمريض وتجعلـه يـشعر بالكآبة الشديدة.

هنالك أيضاً مرض الهستيريا الذي حير الأطباء بكافة تخصـصاتهم، كمـا حـير أهل المريض وأصدقاؤه وزملاؤه والناس المحيطين به.

فهو إنسان يحب المبالغة والتهويل، لهذا فهو غـير صـادق في معظـم الأحـوال، يرى الأمور رؤية ذاتية بحتة لذا نراه يبعد كثيراً عـن الموضـوعية في الحكـم والقـول والفعل، لذلك كانت السطحية من السمات المميـزة لهـذه الشخـصية، وبالتـالي لا عمق في أي ممن علاقاته واهتماماته وارتباطاته.

هنالك المرض النفسي الأخطر والذي زادت نسبة انتشاره في هذا العصر وهو مرض الاكتئاب والذي يقود صاحبه لأسوأ الأفكار وأفظع الوساوس، وهو يـشعر بعذاب قد يعجز هو ذاته عن وصفه، ألم داخلـي يمزقـه، مـشاعر يائـسة وإحـساس بالذنب، كما أنه يحقر مـن ذاتـه ويقلـل مـن شـأنها، إنـه دائـم الـتفكير بالانتحـار والتخلص من الحياة وبالحجج الوسائل حتى لا ينقذه أحد.

وهنالك أيضاً الفـصام والـذي يعتـبر أيـضاً مـن الأمـراض النفـسية الـشائعة والخطيرة.

هذه أمراض نفسية أصبحت معروفةو موصفة، ولكن ليس هذا أن إنسان هذا العصر لا يصاب إلا بهذه الأمراض وحـسب لا بـل هنالـك الكـثير الـذي يـشغل تفكير الإنسان ويؤثر على مسار حياته، إنه التفكير في ما بعد الموت، لا بل الخـوف من الموت ذاته.

وهنالك القلق الدائم والخوف من مسألة الرزق دوامه وانقطاعه، كثرته وقلتـه المستقبل وما يخبئ، الغيرة والحقد والحسد وعـدم الرضـى بـالواقع وبمـا قـسم الله.

الأنانية والفردية والخوف من القتال وغير ذلك الكثير من الهموم التي يعاني منها الإنسان الذي لا يسلم بأن الأمور كلها بيد الخالق سبحانه يسيرها كما يشاء.

ولأهمية الصحة النفسية نرى أن القرآن الكريم ركز عليها في مواضع كثيرة ورسم طريقها للإنسان وهو الذي يتحقق عن طريق الاتزان في كافة الأمور المادية والروحية، الدنيوية والأخروية قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

لقد اهتم القرآن الكريم بالصحة النفسية لأن التحلي بها يؤدي بالإنسان إلى السلوك المثالي أو القريب من المثالي، فالإنسان المتمتع بالصحة النفسية تكون علاقاته متوازنة مع خالقه ومع نفسه ومع غيره ومع بيئته فهو مسيطر على نفسه، قابض على زمام أمرها بدون عنف أو مغالاة، قادر على الوصول إلى أقصى ما تؤهله له قدراته وإمكاناته واستعداداته، كما أنه مخلص لنفسه ولأسرته ولمجتمعه ووطنه.

إنه إنسان مطمئن في عالم يتطلع كل سكانه للاطمئنان والراحة النفسية، لأن هذا هو أكثر ما يشعرون بأنهم يفتقدونه وبالتالي يبحثون عن توفيره لأنفسهم، ذلك أن معظم ما يعانيه الإنسان المعاصر من أمراض نفسية إنما يرجع لعدم إيمانه بالخالق سبحانه، أو الإيمان المشوب بالكثير من النقائص والملتبس بالشك وعدم الصفاء والعمق، وهو ما أدل بالإنسان المعاصر لاسيما غير المسلم للانزلاق إلى مهاوي الرذيلة وبكل أشكالها وأنواعها، مما سبب له القلق الدائم وأصابه بالأمراض النفسية الخطيرة، والتي دفعته للهرب منها بما هو أخطر وأشد فتكاً، فلجأ للخمور والمخدرات آفة هذا العصر، حتى أصبحت الحياة عنده بلا معنى ولا

هدف، فهو حقاً الإنسان التائه الذي يبحث عن الطريق التي توصله إلى بر الأمان وعن العقيدة والمفاهيم التي ترتاح لها نفسه وتشعر بشيء من الطمأنينة والاستقرار والسعادة المفقودة السعادة الحقيقية، سعادة النفس والروح والجسد، لأن العلاقة متينة ولا يمكن أن تنفصم فكم من الأمراض الجسدية التي تسببها الأمراض النفسية وكذلك العكس صحيح.

والحقيقة أن ليس هنالك غير المنهج القرآني في انقاذ إنسان هذا العصر مما هو به لذلك فإن المسؤولية كل المسؤولية تقع على كاهل علماء المسلمين ومفكريهم وأولي الأمر منهم للقيام بهذا الدور العظيم، وهو ما يأمرنا به الخالق سبحانه حينما أنزل هذه الرسالة الخالدة وكلفنا بالعمل على نشرها لينعم بها ويسعد كل من نستطيع الوصول إليه لإنقاذه مما هو به ولإخراجه من الظلمة إلى نور لاحق سبحانه، ولندله على دروب الحياة السعيدة الربانية المطمئنة والخالية من الأمراض النفسية والعصبية لأن الإنسان المؤمن المسلم والمتمسك بتعاليم الإسلام العظيمة يبعد عن نفسه كل تلك الأسباب والعوامل التي تؤدي لمثل هذه الأمراض، فهو إنسان يؤمن بأن الحياة والموت والرزق والجاه والسلطان وكل مظاهر الحياة هي بيد الله أولاً وآخراً، ثم وهو الأهم يؤمن بأن هذه الحياة الدنيا برمتها لا تساوي شيئاً بالمقاييس الإسلامية، وإنما هي فترة اختبار للحياة الأخرى حياة الخلود والنعيم المقيم لكل مؤمن عامل سائر على دروب التقوى والطاعة للخالق سبحانه.

إنه دور عظيم ينتظر المسلمون أن يقوموا به خير قيام فهو في سبيل الله وطاعة لأوامره، وهو خدمة للإنسانية المعذبة فهل نحن فاعلون؟.

التغيير يبدأ في النفوس

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

الأمم في مسيرة حياتها الطويلة تتعرض للهزائم وتمر عليها فترات من الضعف والتخلف، والذل وتحكم الغير بمصائرها ومقدراتها، فتفقد الحرية وتدار شؤونها بغير علمها ولا إرادتها.

وهنالك مراحل أخرى في حياة الأمم تصاب بآفات المعصية والكفر بأنعم الله فتعم بها الموبقات بأشكالها والانحرافات بكل أنواعها ومآسيها، تضيع القيم والأخلاق الفاضلة، وينتشر الفساد بتعدد صوره وأشكاله، فيسود الظلم وينعدم العدل ويذهب الأمن والأمان، ويقوم على الأمور غير أهلها، وتهبط الروح المعنوية عند العباد إلى أدنى درجاتها، والغريب أن كل هذه الانحرافات عن الطريق القويم يصاحبها تشبث بالحياة الدنيا ومحاولة الحصول على ما يمكن الحصول عليه من ملذاتها مهما حقرت، تصبح الدنيا رغم سوء حالها ومعاشها هي الهم الأكبر، فيقعد الناس عن الجهاد، وتسودهم روح الهزيمة والانكسار فيستمرئون الذل والهوان لا بل شظف العيش ونكده يكون حالهم حال الأموات وهم الأحياء ومع كل ذلك يتمسكون بهذه الحياة ولا يرضون عنها بديلاً.

وفي مثل هذه الأحوال التي ذكرنا والتي تمر بها الأمم في فترات مختلفة من تاريخها نرى بعض فئات تلك الأمم تدعو للتغيير ونهضة الأمة من سباتها وغفلتها، آملة في حياة مغايرة الوضع القائم وتضع لذلك النظريات والحلول المختلفة سواء ما كان منها صائباً أم لم يكن.

والأمة الإسلامية ينطبق عليها ما ينطبق على غيرها من الأمم. لذا نرى الخالق

سبحانه لا يخص أمة بعينها ولا اتباع دين معين بأحسن الطرق وأقصرها وأجداها للتغيير فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] فالآية هنا جاءت لتخاطب مطلق قوم ودون تخصيص.

ولو طبقنا هذه الآيات الكريمة على أمتنا العربية الإسلامية وهي أجدى الأمم بالتمعن بها والسير على نهجها. لرأينا أن التغيير لا يتم لأننا نقول بالسنتنا بأننا مسلمين. ولا يتم تغيير وضع الأمة (وهي الآن تمر بأسوأ مراحلها) بالدعاء ولا بكثرة الصلوات التي لا روح فيها. التغيير لا يقم وقد جعلنا الدنيا أكبر همنا، وانصرفنا إلى متعها وملذاتها، فامتلأت النفوس جبناً، وأصبح الجهاد أمراً منسياً لا وجود له، فقعدت عنه الأمة، ولم يعد هنالك من يحدث نفسه به إلا من رحم الله، لقد إثاقل المسلمون إلى الأرض وزخرفها وغاصوا بها حتى لم يعودوا يستطيعون الإفلات والنهوض من شدة التصاقهم بها. سكتت الأمة عن ظلم ظالمها وغضت الطرف عن كل فساد ومفسد في الأرض لا بل واستمرأت التعامل مع الفساد بأشكاله والمفسدين وطبقاتهم. عُطلت الشورى وغاب العدل، فساد التسلط وعم الفقر.

والأمة تدعو للتغيير وترجوه من هنا وهناك وتبحث عنه في غير موطنه، ولكن دون جدوى ناسية أو متناسية أن طريق التغيير بملكه كل فرد في المجتمع وهو أقرب إليه من بنائه، لأنه يستقر في أعماق نفسه كما صور الخالق سبحانه ولكنه قد يكون مكلِفاً للنفس البشرية ربما ومانعاً لها من تحقيق مكاسب دنيوية زائلة، أو بتطلب تنازلات من هذه النفس لمكاسب دنيوية أحرزتها سواء كانت مادية أو سلطوية، أو أنها تطالب هذه النفس البشرية بالتضحية بالنفس أو المال أو الجاه، أو يصيبها نقص من الأموال والملذات، والركون للراحة بالقبول بأي حال تمر بها الأمة مهما بلغت من الذل والهوان وغياب العدل والإقرار بالظلم الواقع على الإنسان لذلك فإننا نرى أن التغيير الذي يكلف النفس البشرية التنازل عن مكاسبها الدنيوية لا يأخذ

به الكثيرون ولا يعيرونه ما يستحق من الاهتمام والبحث للأخذ به، لتحقيق التغيير المنشود. لذلك نرى هؤلاء الذين يريدون التغيير دون دفع الثمن يبحثون عنه في غير مصدره الحقيقي، فهم يرونه تارة بالاكثار من الصلاة، وأخرى بكثرة الدعاء، وثالثة بالعمل الذي لا يكلف أي تنازل عن مكسب دنيوي.

ومرات أخرى بالمزيد من الوعظ والخطب الرنانة وغير الرنانة، وكلها ينطبق عليها قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢- ٣] فكم من الوعظ والخطابة يحث على الجهاد وجهاد النفس ومحاربة الظلم والفساد والعمل على رفع الظلم والذل عن الأمة، ولكن هؤلاء المتحدثون لا نراهم يقودون الركب للبدء بالعمل الذي إليه يدعون.

لذلك كان تقدير الخالق سبحانه بأن التغيير يبدأ في النفس البشرية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] فالعمل كله يجب أن يكون خالصاً لوجه الله سبحانه، يتقدم الإنسان للجهاد ولا هدف له سوى إعلاء كلمة الله وإحقاق الحق ورفع الظلم عن كل مظلوم من عباد الله، وليس لأنه مرغم على القتال أو مقابل أجراً مادياً يتقاضاه، أو أن يكون من أجل مكاسب دنيوية ينالها من حب للشهرة أو التسلط أو اعتداء على حقوق الغير.

والتغيير من النفس يبدأ حينما يكون كل عمل يقوم به الإنسان دافعه فعل الخير وإفادة الإنسان والوطن وبغض النظر عن أي مكاسب دنيوية وإلا حبطت هذه الأعمال إنها بعدت عن الطريق القويم.

والملاحظة الهامة هنا أن كل الأعمال التي أمرنا الخالق بها لا يمكن إلا أن تؤدي للتقدم وإقامة العدل، والإخلاص في كل عمل نقوم به لأن في ذلك صالح الوطن والمواطن.

لذا فلا غرابة أن يؤدي الانحراف عن هذه الأوامر لعكس المراد منها تماماً حيث يسود التخلف ويتقهقر الوطن مسرعاً إلى التخلف مما يتبع ذلك من تخلف الإنسان الذي يعيش على أرض هذا الوطن.

بينما يتقدم كل إنسان يعمل وهو مخلص لوطنه وأبناء أمته، حتى ولو لم يكن ذلك بأمر من الخالق سبحانه، لذلك جاء خطاب التغير وهو لا يخاطب قوماً بعينهم ولكن مطلق قوم يغيروا ما بأنفسهم بقصد الخير ومنفعة الإنسانية، لذلك لا غرابة أن نرى أمماً تتقدم وتحقق الانجازات المذهلة في مجالات العلم واحترام حقوق الإنسان المنتمي لمجتمعاتهم.

وإن صاحب ذلك مأسي أخلاقية واجتماعية تولدت عندهم لبعدهم عن المنهج الإلهي في سلوكياتهم الشخصية وممارستهم الحياتية.

أما نحن المسلمون فإننا مازلنا نسير في ذيل القافلة، رغم اعتقادنا بأننا متمسكون بعقيدتنا السماوية ومطيعون لأوامر الخالق سبحانه ولكن لو كنا كذلك حقيقة لما وصلت أمتنا إلى ما وصلت إليه من التفكك والتخلف والفقر والعجز العلمي، فلو كنا متمسكين حقاً بتعاليم عقيدتنا لما كان هذا هو حالنا. لأن عقيدتنا ترسم لنا طريق التقدم وإقامة العدل والأخذ بوسائل العلم كافة، والتضحية في سبيل رفعة شأن الأمة والدفاع عن أرض الوطن.

القرآن الكريم وبناء النفوس المطمئنة (١)

القرآن الكريم تنزيل رب العالمين أنزل على قلب الرسول الأمين محمد ﷺ ليبلغه للناس كافة، لأن به تحقيق سعادة الإنسان على هذه الأرض وتأمين الحماية والطمأنينة له في هذه الحياة الدنيا، ولكي يفوز بجنة عرضها السموات والأرض في حياته الأخرى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

والخالق سبحانه منزل القرآن الكريم أعلم بنفوس البشر وميل بعضها للشر والعدوان، رغم كل ما نزل من رسالات سماوية تنير للإنسان دروب الحياة وتدله على طرق الخير وتنهاه عن سلوك دروب الشر ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

القرآن الكريم لم يفترض في العباد جميعاً حتى ولو كانوا مسلمين الاستقامة والابتعاد عن دروب الشر والعدوان، بل تعامل مع الإنسان بكل ما تحمله نفسه من نوازع الخير والشر.

القرآن الكريم أكد على استمرارية الحياة الآمنة على الأرض، وعلى حفظ النفوس البشرية وحمايتها من العدوان، العدوان على الأنفس أو الأموال والأعراض والحريات، لأن ذلك يُفقد الإنسان الآمن والطمأنينة في حياته وبالتالي ترتيل حياته ويفقد الأمن والأمان الأسس الأولى للحياة السعيدة على هذه الأرض. لذلك نجد أن الخالق سبحانه في كتابه الكريم أمر بعدم التهاون مع المفسدين في الأرض سالبي الأنفس البشرية حياتها وأموالها والمعتدين على أعراضها وكراماتها، فأمر سبحانه بأن يوقع القصاص على أمثال هؤلاء المجرمين لكي ترتاح النفوس المؤمنة من شرورهم.

وليكونوا عبرة لمن يعتبر من بعدهم قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [البقرة: ١٧٨]، كذلك فإن الخالق سبحانه أمر عباده المؤمنين بإقرار الحق ورفع الظلم وإعلاء كلمة الله عنده يحاول أعداء الله طمسها ومنع نشرها، ولأنهم بذلك يعملون على منع انتشار الحق والعدل وحرمان النفوس البشرية من الطمأنينة والسعادة التي تتوق إليها، كما أن إعلاء كلمة الله وإقرار الحق ورفع الظلم يعني إعادة الاتزان إلى الحياة.

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ﴾ [البقرة: ١٩١]، ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]، ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٢٩].

ولتحقيق الأمن والطمأنينة للنفس البشرية نرى أن الخالق سبحانه أمر بتوقيع القصاص على المفسدين في الأرض فوراً وفي الحياة الدنيا لأن الأمور لا تستقيم إلاّ بذلك، بينما ترك المعاصي التي تخصه سبحانه للحياة الأخرى يعاقب أو يغفر وهو القادر سبحانه.

وهذا أكبر تعظيم لصيانة حقوق الإنسان ودلالة على مدى أهميتها في رسالة الإسلام الخالدة فالإنسان لا يمكن أن تطمئن نفسه وسط أجواء الإرهاب والخوف المستمرين إذا أحاطت به.

وما حياة الاضطراب والفوضى التي يعيشها العالم غير الإسلامي اليوم إلا بسبب نظرات مبتورة عن حرية الإنسان أو ما أسموه كذلك.

فالحرية لا تعني مطلقاً حرية القتل والسلب والاعتداء إن هـذا لا يعـني سـوى العودة لحياة الغاب، وسيطرة القوي على الضعيف، وسلب الإنـسان حقوقـه الـتي أمر الله بحفظها وصيانتها، وانتشار الخوف والرعـب في المجتمعـات الإنـسانية والـتي يحرم الإنسان فيها من ممارسة أدنى حقوقه الطبيعية فكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يعرف كيف يوازن حياة الإنسان ويبقـي حياتـه في أمـن وأمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

صدق الله العظيم

القرآن الكريم وبناء النفوس المطمئنة (٢)

النفوس المطمئنة المتمتعة بالسكون والرضى غاية إنسانية سامية عمل ويعمل على تحقيقها الأنبياء والعلماء والفلاسفة على مر الأيام والعصور، ولعل هذا العصر الذي نعيشه أكثر العصور التي شهدت خللاً واضطراباً في النفوس البشرية، مع تفاوت في طبيعة المجتمعات من حيث العقيدة وما يتفرع عنها من عادات وتقاليد وممارسات، ومن حيث التقدم العلمي وغيرها من العوامل التي تميز المجتمعات البشرية عن بعضها البعض.

فهذه هي المجتمعات التي حققت تقدماً مادياً وعلمياً مذهلاً بعيداً عن عقائدها السماوية بما تتضمنه من أخلاق ومثل وقيم، وكان من نتيجة ذلك أن نشأت أجيالاً تعاني من الضياع والغربة والتحلل من كل القيم والمبادئ والأخلاقيات، لتقع فريسة نزواتها وشهواتها فأطلقت العنان لغرائزها، شهوات وجرائم والحرافات بكل صورها وأشكالها القبيحة والتي لم تر البشرية مثيلاً لها من قبل، وكل ذلك أضفيت عليه الشرعية والقانونية باسم الحرية الشخصية.

كل هذا أدى لانتشار الأمراض النفسية بكل أشكالها وألوانها؛ وأصبحت العيادات النفسية بإعداد محلات البقالة، وأصبحت الأجيال تلهث وراء كل مشعوذ ودجال بحثاً عن الطمأنينة النفسية، ولعلها تجد ملاذاً آمناً ينقذها من الحال التي وصلت إليها من الضياع والحيرة والشك، ولتثبت من جديد بأن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

لذلك فإننا نرجو ونأمل أن تستفيد أجيالنا العربية الإسلامية من تجارب الآخرين، وان تعمل على أن يكون تقدمها المادي مواكباً ومسايراً لتعالج العقيدة الإسلامية السمحة، هذه العقيدة التي ما وقفت يوماً في وجه أي تقدم علمي،

وبالوقت ذاته فإنها تبني الشخصية الإنسانية السوية المطمئنة، هدف كل إنسان في هذه الحياة الدنيا.

فالإنسان في العقيدة الإسلامية عومل معاملة لا يمكن أن تأتي إلا ممن خلق هذه النفس الإنسانية وسوّاها وهو العليم الخبير بمكنوناتها ومطالبها وتقلباتها، فالخالق سبحانه لا يريد أن يجعل من هذا الإنسان عبداً له قانطاً يائساً من رحمته، يتمادى في غيه من أول ذنب ارتكبه لأنه لا يرجو رحمة ربه، وهذا لابد أن يؤدي لاضطراب حياة الإنسان، ويعم هذه الحياة اليأس والارتباك والفوضى وانتشار الجرائم والانحرافات بأشكالها.

لذلك وسعت رحمة الله كل شيء، لقد أمر الله لعباده ومد لهم مدا، وبحيث تكون حياة الإنسان مليئة بالسعادة والطمأنينة والأمل في مغفرة من الله وأجراً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ [الأحزاب: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤]، وقال سبحانه ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١١٠].

فالله سبحانه وتعالى إذن خلق الإنسان وخطر على الصواب والخطأ، فالله سبحانه لا يعاقب الإنسان على الخطأ الذي لم يقصده، وحتى ما فعلت قاصداً إذا استغفر الله وعمل صالحاً فإن الله يقبل توبته، وفي ذلك راحة للنفس البشرية وعصمة لها من الاستمرار في الخطأ.

﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [النجم: ٣١].

هنا تستقيم حياة الإنسان ويبقى دائماً الإنسان المتفائل الذي يعمل دون خوف ولا رهبة. روحه ساكنة ونفسه مستقرة، فهو من عباد الله المخلصين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزون، يعلم أنه ليس معصوماً، وأن يخطئ ويصيب ضمن حدود معينة، لذلك نجده إنساناً سوياً متوازناً طوال حياته.

لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الكافرون، فالله سبحانه وتعالى كرم عباده وكان رؤوفاً بهم قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فالله سبحانه وتعالى لم يحشر الإنسان في زاوية ليس له منها مهرب، ولم يقيده بنمط واحد من السلوك والممارسة إذا حاد عنها فليس له إلاّ جهنم وساءت مصيراً. إنه سبحانه أعلم بنفس الإنسان وتناقضاتها وأهوائها وتقلباتها لذلك تعامل مع هذه النفس أحسن ما تكون المعاملة وأكرمها، وهو ما عجزت وتعجز عنه كل عقليات العباد ولو اجتمعت ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

القرآن الكريم أكد حرية الحركة للإنسان في حياته، فالعذاب وارد كما المغفرة واردة وحرية الاختيار عند الإنسان هي التي تحدد مصيره في الدنيا والآخرة.

ليس هنالك جمود في التعامل مع الإنسان بل مسايرة مستمرة لحركاته وأعماله فالعقاب منصوص عليه وكذلك الجزاء والمغفرة، الخطأ ليس بعيداً عن الإنسان، فهو ليس معصوماً وله كبير الأمل في التوبة ثم المغفرة من رب العالمين.

قال جل جلاله ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾ [الزمر: ٥٣] وقال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا

﴿خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، فما أشرف هذه النسبة التي أكرم الله بها عباده المؤمنين وقد جعلهم من عباده وأحبابه وأوليائه وأصفيائه، القرآن الكريم المنزل من العلي سبحانه المحكمة آياته والمعجزة المستمرة للبشرية، تعاليمه لاشك مقدسة ولم تتنزل إلا لخير الإنسان والبشرية جمعاء، ومع هذا فإن هذا الكتاب الكريم لم يجعل من تعاليمه حتمية لا يملك الإنسان منها مهرباً، إنه يصور الفكرة ونقيضها كما يعالج الفكرة والنقيض معاً، وبذلك لا يمكن لهذا الفكر إلا أن يضمن استمراريته وديمومته، وفي الوقت ذاته لا يملك الإنسان المنتمي إليه إلاّ أن يوثق ارتباطه به وتمسكه بتعاليمه لأنها تتسع لتشمل تغطية كل تناقضات النفس البشرية وتتعامل معها بكل موضوعية وواقعية. فالفكر الإسلامي لم يغلب جانباً على آخر من جوانب النفس الإنسانية المتعددة، ولم يفرض نمطية معينة على هذه النفس ليس لها منها مهرباً، بينما نجد كل ما عداها من رسالات وفلسفات تأخذ جانباً محدوداً من حياة الإنسان وتركز عليه دون غيره، وتحاول فرضه على الإنسان وكان هذا الإنسان ليس إلا آلة تدور كما يشاء لها من يتعامل معه، لذلك كانت تلك الأفكار تحمل في طياتها بذور فنائها. وهذا ما لا ينطبق على رسالة الإسلام الخالدة المتجددة.

لأن هذه الرسالة هي الوحيدة التي تتعامل مع النفس البشرية بكل أبعادها وتبعث فيها الأمن والطمأنينة الدائمة، وهو ما يفتقده غير المسلمين على هذه الأرض وإلى قيام الساعة.

القرآن الكريم وبناء النفوس المطمئنة (٣)

من طبيعة الإنسان التي فطره الله عليها أن يكون إنساناً اجتماعياً، ولا تستقيم الحياة لأنسان بغير ذلك، ولقد أجمع علماء النفس قديماً وحديثاً أن الإنسان السوي هو ذلك الإنسان الذي تمتع بالرعاية التامة من الأبوين فعاش حياة مستقرة ومستقيمة، اندمج في مجتمعه بشكل طبيعي وخلت سلوكياته من الانحرافات، مما ترتب عليه بالتالي أن ينعم بحياة اجتماعية هانئة وتسير حياته سيراً مطمئناً آمناً وليصبح عضواً صالحاً في المجتمع، يتقيد بقيمه ومثله وأخلاقياته، وتسير حياته كما أرادها الخالق سبحانه.

والقرآن الكريم رسم للإنسان طريق السعادة في حياته والتي أساسها الطمأنينة التي تقوم بدورها على الأمن والحياة المستقرة.

فقد تدرج كتاب الله الكريم في متابعة حياة الإنسان منذ ولادته وحتى انتقاله إلى العالم الآخر مبيناً له سبل الخير والسعادة والطمأنينة في حياته، ومشرعاً الأحكام التي تحافظ على النفس البشرية سواء من الناحية المادية الجسدية أو النفسية والروحية.

فقد حرّم الخالق سبحانه كل ما يذهب بعقل الإنسان ويدمر أعصابه ويميل بنفسه للانحراف ودوام القلق والتوتر.

﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

الإنسان الذي كرمه الله وجعله خليفة له في الأرض لا يليق به إلاّ أن يكون إنساناً مستقيماً دائماً محتفظاً بكامل وعيه، مستعملاً عقله لما فيه خيره وخير العباد

جميعاً، ودائم التفكير في خلق السموات والأرض ليتقرب للخالق سبحانه وينال سعادة الدارين.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٢٨- ٣٠].

ولتستقيم حياة الإنسان على هذه الأرض وتكون آمنة مطمئنة نجد أن القرآن الكريم وجه عناية فائقة لتنظيم غرائز هذا الإنسان وتوجيهها نحو الخير وخدمة الإنسانية بدل أن تكون مصدراً للشرور والانحرافات والجرائم.

فأمر سبحانه الإنسان بالزواج الذي يؤدي للسكن والاستقرار وتكوين الأسر الصالحة، فصور العلاقة الزوجية أروع تصوير وأكرمه ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥].

وقد انتقلت الجماعة الإنسانية من زوج وزوجة لتمتد بعد ذلك إلى قبائل وشعوب يملأون الحياة الدنيا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣]، ولقد وجه القرآن الكريم عناية فائقة للحياة الزوجية وتحدث عنها في تصرفات متنوعة حتى ذكر لفظ الزوجية في الجانب الإنساني أكثر من خمسين مرة. فقد ذكرت في سياق الامتنان بما فيها من بهجة واطمئنان منذ انعقدت الزوجية في صدر التاريخ بين آدم وحواء، وجعل الوئام بينهما في ظلال الجنة، بين طيبات من الرزق وألوان من المتاع والضبطة: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]. إنه إشعار

لآدم وزوجه بأن السعادة والهناء لا تكون في وحشة الانفراد وإنما تكون توافقاً بين الزوجين في استقبال الحياة المشتركة، وتبادل البهجة، والامتزاج في أنس الاجتماع والمجانسة في الميول.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

فالسكون هو الهدوء من الحركة، والسكن الزوجي هو الاطمئنان إلى الزوجة وهدوء الخاطر إلى جانبها من شواغل الحياة والكفاح المستمر طيلة أيامها.

والقرآن الكريم اهتم بالإنسان في كل مراحل عمره فنقرأ فيه آيات كريمة تحض على طاعة الوالدين والإحسان لهما عند الكبر وتحمل كل ما يصدر عنهما أو أحدهما بالرضى والسرور ليبقى الإنسان في حياة مطمئنة هانئة إلى آخر أيام حياته.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾ [الإسراء: ٢٣].

ولتكتمل حياة الإنسان الاجتماعية وتسود المحبة والوئام كافة طبقات المجتمع وفئات ولينعم كل فرد فيه بالطمأنينة والسعادة أمل كل إنسان في هذه الحياة الدنيا.

من أجل ذلك أمر الخالق سبحانه الإنسان المسلم بصلة أرحامه والاهتمام بهم كما أكد على الحب والأخوة والتعاون والتكافل والتراحم والتسامح. لتسود المشاعر الإيجابية أبناء المجتمع وتنعدم منه قدر الإمكان الشرور والآثام التي تؤدي للأمراض النفسية وأخطارها. لأن هذه الأمراض لا يمكن أن تجد سبيلاً للنفوس المؤمنة المتحابة المتعاونة المتراحمة، والتي تؤمن بأن هذه الحياة الدنيا ليست إلاّ لعب ولهو وزينة وما هي إلا متاع الغرور. والإنسان المسلم الحق هو ذلك الإنسان الذي يحاول أن يكون من المتقين الذين ينفقون في السراء والضراء العافين عن الناس.

قال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

هذه الآيات الكريمة لا تعني أن يعيش المسلمون في الدنيا فقراء عالة على غيرهم من الناس، ولكن الغرض والغاية أن لا يفتن المسلمون بالدنيا فتنسيهم الآخرة لا يسكبون هذه ولا تلك.

وما دام الأمر كذلك ولو تمسك المسلمون بتعاليم عقيدتهم السمحة العظيمة لنالوا السعادة في الدارين ولما أنستهم الدنيا مشاكل بعضهم البعض، وبالتالي يعيش كل مسلم في مجتمعه الإسلامي آمناً مطمئناً في حياته الدنيا لأنه يعلم تماماً ويثق كل الثقة أن كل أبناء مجتمعه سوف يقفون معه في التصدي لنوائب الحياة ومصائبها سواء كانت مادية أو غير مادية. ذلك لأن المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر.

هؤلاء المسلمون هم الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، ولم تغرهم الأماني، ولم يغرهم بالله الغرور وصدقوا الله فصدقهم الله وتحقق لهم وعد الله:

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ﴾ [النور: ٥٥].

صدق الله العظيم

فضل القرآن الكريم في شفاء العلل النفسية

في مواضيع سابقة تعرضنا لبعض الأمراض والانحرافات النفسية التي تصيب الإنسان، وكيف تناول القرآن الكريم هذه الحالات ووصفها وصف الخبير العليم وصورها أدق تصوير، وكيف لا وهو المنزل من خالق النفس البشرية العليم بأسرارها وكل ما تنطوي عليه من نوازع الخير والشر.

والخالق سبحانه الذي أنزل على رسوله الأمين هذا الكتاب ليكون معجزة السماء المستمرة على الأرض حتى قيام الساعة، وصف بعض حالات الإنسان اللاسوية ليضرب بها الأمثال للأجيال المتعاقبة، وليرى هذا الإنسان الجاحد أن عدم الإيمان بهذا الكتاب أو رفض العمل بما جاء به لابد أن يؤدي لمثل هذه الانحرافات في النفس البشرية.

ذلك أن كتاب الله يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل، ففيه شفاء النفوس، وهدى الأرواح، والاطمئنان والرضى بحكم الله وقضائه وقدره. إنه شفاء ورحمة للمؤمنين لأنه يذهب ما في القلوب من أمراض وعلل، وحقد وضغائن، وشك ونفاق وزيغ وميل عن الاعتدال، وفوق ذلك كله فإنه رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم

﴿مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

أثر الصلاة على الصحة النفسية:

الصلاة من العبادات ذات التأثير الإيجابي على الصحة النفسية، فهي تعود الفرد إلى طاعة ربه وعدم عصيان أوامره والمعيشة في توازن وتناسق مع القوى الداخلية والخارجية. فإذا كانت هذه السمات تعني التمتع بالصحة النفسية، فمعنى ذلك أن الصلاة هي أقوم السبل إلى ذلك لما فيها من حث على الطاعة والالتزام، والدارس لكتاب الله يجد أن الصلاة اقترنت في كثير من الأحيان بواحدة من معالم الصحة النفسية أو بعض أسسها، كالزكاة التي تطهر النفوس وتلاوة القرآن التي تهدي القلوب، والهدى وفعل الخيرات، والتقوى والخشوع، والبعد عن الفحشاء والمنكر.

ونظراً لأن الصلاة لا تصبح إلا إذا توفرت شروطها وفي مقدمتها الطهارة، لذا فإننا نجد المسلم الصادق يستعد لها بالمحافظة على طهارته مادياً ومعنوياً. كما نجده في خشوعه للصلاة يتجاهل جميع المنبهات المحيطة والتي كان يستجيب لها سابقاً بما يمنحه القدرة على السيطرة على نفسه والشعور بالاطمئنان وعدم الانشغال بأمور الدنيا وما تجده من مشاعر القلق والتوتر والاحباط أحياناً كذلك نلاحظ أن المحافظة على الصلاة في أوقاتها يعني الالتزام الديني والخلقي، وبهذا تصبح الصلاة أداة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتدل صاحبها على طريق الخير والفلاح والاتزان النفسي.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [المزمل: ٢٠].

كذلك فإن القرآن الكريم يأمر الإنسان المؤمن بأن يتعامل مع الظروف والمواقف الضاغطة عليه بعدم اليأس والاستسلام، بل يتعامل معها بشيء من

التحدي والصمود والمقاومة، ويشير القرآن الكريم إلى مثل هذه المواقف في قصة أيوب عليه السلام ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣- ٨٤].

وتتابع المشاهد فنرى يونس عليه السلام وقد غضب من قومه فتركهم يائساً إلى حيث التقمه الحوت فما كان منه وهو في هذه المحنة إلاّ أن واصل تسبيحه ولم يفقد الأمل والرجاء في الله إلى أن هيأ له طريق النجاة:

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [القلم: ٤٨- ٥٠].

ومن وسائل إعداد النفس لمواجهة النكبات وحالات الاكتئاب أن يستخدم الإنسان عقله وفكره بدلاً من الانقياد لعواطفه وانفعالاته، فلكل شيء جانبان، أعلى وأسفل، أبيض وأسود وكما أننا نواجه الجانب غير المضيء أحياناً فلطالما رأينا جوانب الحياة الحلوة المضيئة، وأن على الإنسان أن يتذكر بأن الحياة دفع وجذب، أخذ وعطاء عسر ويسر، وحلو ومر، ولا يمكن لجانب واحد أن يدوم على حساب الجوانب الأخرى، فإذا ما تفهم ذلك فإنه يقوده إلى الاستبصار فيتوافق سلوكه مع التعاليم القرآنية.

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشرح: ٥- ٨].

كذلك أشار القرآن الكريم إلى بعض طرق العلاج النفسي لحالة الخوف، وهو

ظاهرة عادة ما تكون مصحوبة بالقلق والفزع والاضطراب والترقب، واختلال وظائف أجهزة الجسم، ولذا فإن العلاج يكمن في إزالة حالة الخوف عن طريق إرجاع الجسم إلى حالة الاتزان الطبيعي عن طريق الشعور بالأمان والاطمئنان النفسيين:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٢٣].

تلك هي بعض أساليب القرآن الكريم في علاج بعض الأمراض والانحرافات النفسية عند الإنسان، وهي مبنية على ضرورة تربية النشء تربية إسلامية، فالقرآن الكريم يشير إلى أن المفتاح بيد الإنسان، وأن عليه أن يسعى لإعداد نفسه والتسلح بقوة الإيمان وبالعزيمة، كما يدعو لاستخدام العقل وتعلم عادات استجابية سليمة تقوي من قدرته على تحمل المشاق وضغوط الحياة.

فإذا ما اتجه غير المؤمنين بالقرآن إلى استخدام مبادئه، فإن الأولى بنا نحن أبناء الإسلام وأحباب القرآن أن نستخدمها لنشفي نفوسنا ونزيل همومنا، ونطيب أبداننا.

القرآن الكريم وتحقيق السلام الاجتماعي من خلال النفاذ لأعماق النفس البشرية

منذ أقدم العصور والإنسان يحلم بإقامة المجتمع الفاضل، المجتمع الذي تسوده المحبة، وينتشر العدل بين أبنائه ويعمه السلام وتختفي منه عوامل الشر والقهر والحرمان، ومثل هذا المجتمع لا يمكن أن يقوم إلا وفق معطيات وشروط أهمها حسن التعامل مع النفس البشرية كما فطرها الخالق سبحانه ودون القفز على هذه الفطرة البشرية بدعوى إمكانية تغييرها وبالتالي تسييرها بالكيفية التي يتخيلها البعض ويرسمها في ذهنه وقد شهدت الإنسانية عبر تاريخها الطويل عدة محاولات لتغيير الفطرة الإنسانية وتشكيلها على غير ما فطرها الله عليه، ولكن هذه المحاولات قديمها وحديثها باء بالفشل الذريع وكانت نتائجه كارثية في أكثر الأحيان، وما تجريه الأنظمة الشيوعية في عصرنا الذي نعيش ببعيدة، فالكل شاهد وسمع ولمس ما تركت من دماء تمثل في الفقر والقهر الذي عانت منه شعوب تلك الأنظمة ولعل من أسرار عظمة الدعوة الإسلامية واستمراريتها ودعويت للانقاذ كلما إذا لهمت الخطوب هو ما تحققه هذه الدعوة لاتباعها من سعادة وطمأنينة وسلام اجتماعي، يشمل العدل وتحقيق الأخوة بين أبناء المجتمع، وكل ذلك بالتعامل مع النفس البشرية كما هي عليه وكما فطرها الخالق سبحانه، وذلك بالتعامل مع هذه النفس بكل ما تحتوي عليه من تقلبات وغرائز وميول سواء الإيجابية منها أو السلبية.

فالدعوة الإسلامية نزلت لتهذيب هذه النفس وهدايتها وإرشادها للتي هي أقوم ولم تنزل لتغيير ما فُطرت عليه هذه النفس، فهذا أمر لا يمكن تحقيقه كما أثبت ذلك مسيرة البشيرة الطويلة وتراثها المعروف.

لذلك كان تركيز دعوة الإسلام على الإنسان بحثه على عمل كل ما فيه خيره وخير أخوته في الإنسانية سواء أكانوا مسلمين أو غير مسلمين، والابتعاد عن كل ما يضر به وبأبناء مجتمعه والبشرية جمعاء من ظلم وقتل واغتصاب وأكل حقوق بغير حق أو الاتيان بأي عمل أو قول يضر بأي منهم، مركزاً على أدق الأمور وأصغرها والتي لها أكبر الأثر في العلاقات الاجتماعية كالغيبة والنميمة والتجسس والسخرية وما إلى ذلك من أمور يحسبها الإنسان صغيرة ولكن الحقيقة والتجارب تدل على أن لها الأثر الأكبر في سيادة السلام الاجتماعي وانتشار المحبة والمودة والأخوة بين أبناء المجتمع وهو الهدف والحلم الذي سعت إليه الإنسانية منذ نشأتها الأولى وما تزال تبحث ولكن في غير مظالها الصحيحة عند الأمم الغير إسلامية أو حتى عند بعض الأمم الإسلامية والتي اعتقدت يوماً أن لها طريقاً آخر في حياتها غير الإسلام.

ولعل العامل الأول والأهم في إقامة السلام الاجتماعي هو إقامة العدل الاجتماعي والمتعلق بتوزيع ثروات الأمة ومالها بشكل لا يلحق الظلم والفاقة بأي شريحة من شرائح المجتمع المتعددة، وهذا ما سنفرد له بحثاً خاصاً، وما يهمنا هنا هو تلك الجوانب المتعلقة بالمحافظة على سلام المجتمع وابتعاد أبنائه عن الخوض في نزاعات لها علاقة بالحياة اليومية من بيع وشراء وإجارة ودين ورهن وما إلى ذلك. ومن منا لا يتعرض لمثل هذه المواقف أو يسمع أن أحداً قد تعرض لها، ربما تكون في نظر البعض أحداثاً يسيرة سهلة ولكنها كم تحدث من إشكالات يومية بين عامة الناس وتتسبب في الحدق والبغضاء بين أبناء المجتمع الواحد، كم يؤثر في نفس كل منا حينما يبتاع أشياء يكتشف أنها مخالفة للمواصفات التي اشترى على أساسها وأنه تعرض لعملية غش من قبل البائع وهذا الغش قد يكون ببضاعة أمام العين ولكن الخداع تم بطريقة أو أخرى، أو كان البيع لشيء غير موجود وعندما يوجد نراه مخالفاً تماماً لما اتفق عليه وهذا النوع من التجارة منهي عنه وهو ما يسمى ببيع الغرر.

كذلك نهى الإسلام عن التلاعب بالأسعار لمصلحة طائفة قليلة من أبناء المجتمع، ومنع الاحتكار لما فيه من ظلم ورفع أسعار السلع على غالبية عباد الله وهو نوع من الاستغلال المكروه تماماً مثل الغش. وهذا كله يعتبر من الإفساد في الأرض وهو الذي نهى عنه الخالق سبحانه في آيات كثيرة وقد جاء ذلك في نهيه سبحانه عن التطفيف بالكيل والميزان والذي يعتبر نوعاً من الغش والربح الحرام قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢] وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١ - ٦].

وقال تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٣].

وهذه المعاملة مثال لما يجب أن يكون عليه المسلم في حياته وعلاقاته ومعاملاته كلها لاسيما المتعلقة بالأمور المادية.

أما في مجال التعاملات البشرية الاجتماعية وخارج نطاق المادة فقد أنزل سبحانه آيات تمس شغاف النفس البشرية وتمنع الشقاق والتنازع بين أبناء المجتمع الواحد، وهي تكاد تبدو أموراً سهلة للوهلة الأولى ولكنها كم سببت من نزاع وشقاق وبين أفراد وجماعات تنتمي لمجتمع واحد عبر التاريخ والإسلام أقام العلاقة بين أبناء مجتمعه على دعامتين رئيسيتين: أولاهما: رعاية الأخوة والتي هي الرباط الوثيق بين بعضهم مع بعض.

والثانية: صيانة الحقوق والحرمات التي حماها الإسلام لكل فرد منهم من دم وعرض ومال.

وكل قول أو عمل أو سلوك فيه عدوان على هاتين الدعامتين أو خدش لهما، يحرمه الإسلام تحريماً يختلف في الدرجة حسب ما ينجم عنه من ضرر مادي أو معنوي أدبي.

وهذه آيات كريمة هي نموذج من هذه المحرمات التي تضر بالأخوة وحرمات الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٠- ١٢].

قرر تعالى في أولى هذه الآيات أن المؤمنين إخوة تجمعهم أخوة الدين مع أخوة البشرية، وهذه الأخوة تقتضي أن يتعارفوا ولا يتناكروا، ويتواصلو ولا يتقاطعوا، ويتصافوا ولا يتشاحنوا، ويتحابوا ولا يتباغضوا، ويتحدوا ولا يختلفوا.

وقد نظم الإسلام قواعد لتطبيق هذه الآيات الكريمة فأمر بالتواصل الدائم بين أبناء المجتمع الإسلامي ونهى عن القطيعة قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

كذلك أمر بإصلاح ذات البين بين المتخاصمين لتحقيق مبدأ التكامل والتعاون بين أبناء المجتمع قال تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

[الحجرات: ١٠]، بعد ذلك وردت تلك الآيات التي لها الأثر الأكبر في منع العداوة والبغضاء بين أبناء المجتمع وسيادة الأخوة والمحبة، إنها آيات تنفذ لأعماق النفس البشرية وتوضح جوانب هامة من الأسباب التي تؤدي إلى الكراهية والبغضاء وتمكين الأحقاد في النفوس، إنها كلمات ربانية قصيرة بليغة ولكنها تنفذ للأعماق وعلى امتداد حياة البشرية على هذه الأرض، فالأمور التي ينهانا الخالق سبحانه عنها هي ما يلازم الإنسان طالما بقيت له حياة على هذه الأرض في أي مكان وأي زمان وجد.

فنحن عندما نستعرض قوله سبحانه: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١] إلى آخر الآيات الكريمة سرعان ما تقفز إلى أذهاننا ذكريات ما مر بنا من مشاكل وأحداث بين العديد من الأفراد والجماعات أدت إلى القتل والجرح والقطيعة والسجون لأن البعض جعل من الآخرين موضع هزئة وسخريته وتندره ونكاته مما آثار حفيظتهم وأشعل نيران الحق في نفوسهم، وهو من طرق آخر يعبر عن كبر خفي وغرور مقنع واحتقار للآخرين وجهل بموازين الخيرية عند الله.

ثم انتقل سبحانه إلى أمر مهم آخر قد يبدو سهلاً ولكن له الأثر الأكبر في تحقيق السلام الاجتماعي ونشر المحبة والمودة بين أبناء المجتمع الواحد والتقليل من نسبة القطيعة والبغضاء بينهم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ [الحجرات: ١١] واللمز معناه الوخز والطعن ومعناه هنا العيب وكأن من يعيب الناس هنا يوجه لهم وخزة بسيف أو طعننة برمح.

ولصيغة النهي في الآية إيحاء جميل فهي تقول ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، والمراد لا يلمز بعضكم بعضاً، ولكن القرآن يعبر عن جماعة المؤمنين كأنهم

نفس واحدة، لأنهم جميعاً متعاونون متكافلون فمن لمز أخاه فإنما يلمز نفسه في الحقيقة، لأنه منه وله.

أما التنابز بالألقاب فإنه من أكره الأمور عند الإنسان وهي عادة كانت وما تزال منتشرة عند العرب بالرغم من النهي عنه لما تسببه من إشكالات وعداوة وبغضاء بين أبناء المجتمع الواحد.

فاسم الإنسان الحقيقي هو جزء من شخصيته لا بل من الأمور المحببة إلى نفسه، حتى إن حفظ اسم أي إنسان بشكل سريع ومناداته به بشكل سليم يعتبر مفتاحاً لكسب ود الإنسان وصداقته فهو يعتبر ذلك تقديراً واحتراماً له وإضفاء الأهمية لشخصه لذلك حض الرسول الكريم ﷺ على حسن اختيار الأسماء للأبناء.

ولعل من الأشياء المكروهة لأي إنسان أن تناديه بغير اسمه حتى ولو كان هذا الاسم طبيعياً ومن الأسماء الدارجة بين الناس فهو يعتبر ذلك انتقاصاً من شخصيته وقيمته الاجتماعية.

فكيف يكون الحال لو أطلق على أي إنسان لقب يكرهه ويدل على نقص في شخصيته؟

إن في هذا مدعاة لتغير النفوس، وعدوان على الأخوة، ومنافاة للأدب والذوق الرفيع، وهو بالتالي مدعاة لإثارة الشقاق والنزاع بين أبناء المجتمع الواحد وإشاعة الكراهية والبغضاء بينهم وكلها من الأمور التي لا تحمد عقباها ولها أسوأ الآثار على بناء المجتمع وتماسك أبنائه وانصرافهم للعمل والبناء بروح الفريق الواحد.

أما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

فإنه سبحانه يرسم للإنسان الطريق لكيفية التعامل مع الآخرين بثقة وإخلاص وصفاء نفس، بعيداً عن الريبة والشكوك والتهم والظنون، وهذه من مقومات الأمن الاجتماعي ومن أهم مقومات النفوس الراضية المطمئنة فالثقة هي أساس التعامل بين البشر وإذا توفرت توفر معها الأمن والأمان وحسن المعاملة وغياب الغش والخداع وسير كل أمر من أمور المجتمع سيراً طبيعياً حثيثاً وبحيث يقوم كلّ بواجبه خير قيام وبإخلاص وتفان وانكار للذات لأنه يثق بالآخرين ولا يسيء الظن بأي منهم دون مسوغ ولا بينة ناصعة. فالأصل هو الثقة وعدم الظن بالسوء إلا إذا ثبت العكس على البعض؛ والإنسان لضعفه البشري لا يسلم من وساوس الظن والشك في بعض الناس، وخصوصاً فيمن ساءت علاقته بهم، ولكن عليه ألا يستسلم لها، ولا يسير وراءها، وهذا معنى ما ورد في الحديث "إذا ظننت فلا تحقق".

أما التجسس فإنه ناتج في الغالب عن سوء الظن لذلك قرنه الخالق سبحانه معه فقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢].

والتجسس من الأمور الكريهة على النفس البشرية لأنه اعتداء على حرية الآخرين وتدخلاً في حياتهم وخصوصياتهم، وبالتالي فإنه من أهم مصادر العداوة والبغضاء بين عباد الله، فليس من حق أي كان تتبع عورات الآخرين وأخبارهم وأسرارهم فلكلٍ حرمته وأسراره التي لا يجوز أن تهتك بالتجسس حتى وإن كان البعض يرتكب إثماً خاصاً به ما دام مستتراً به غير مجاهر.

ومن أجل الحفاظ على حرمات الناس حرم الرسول ﷺ أشد التحريم أن يطلع أحد على قوم في بيتهم بغير اذنهم. كما حرم أن يتسمع حديثهم بغير علم منهم ولا رضا. كما أوجب الخالق سبحانه على كل من أراد أن يزور إنساناً في بيته ألا يدخل عليه حتى يستأذن ويسلم قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ

﴿بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧].

أما الغيبة والتي وردت جنباً إلى جنب مع سوء الظن والتجسس فإنها أمر ممقوت مذموم في كل نفس سوية مؤمنة، إنها غالباً تتناول الحديث عن الغير بالشر وبما يكرهون ونادراً ما تكون بالخير وللمصلحة الخاصة أو العامة.

إنها غالباً ذكر للغير بما يكره ونهش لأسرار الناس وأعراضهم وأماناتهم واستقامتهم، أو الهزء بهم وغالباً دون سبب أو حتى مصلحة أتية لمن يمارس هذا الفعل الشنيع ولكنها صفة مذمومة في البعض أن يتتبع أخبار العباد وأسرارهم ويذيعها بين الناس مشوهة وبشكل مغلوط ومبالغ به في معظم الأوقات ولا لشيء إلا للتشهير وحب الأذى للآخرين. إنها دليل على الخسة والجبن، لأنها طعن من الخلف، وهي مظهر من مظاهر السلبية، فإن الاغتياب جهد من لا جهد له، وهي معول من معاول الهدم، لأن هواة الغيبة قلما يسلم من ألسنتهم أحد بغير طعن ولا تجريح.

فلا عجب أن يصورها القرآن الكريم بصورة متفردة تتقزز منها النفوس وتنبو عنها الأذواق ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾ [الحجرات: ١٢] والإنسان يأنف أن يأكل لحم أي إنسان، فكيف إذا كان لحم أخيه؟

أما الصفة المذمومة الأخرى والتي قرنها القرآن الكريم بالغيبة فإنها النميمة والتي تعني نقل ما يسمعه الإنسان عن شخص إلى ذلك الشخص على وجه يوقع بين الناس، ويكدر صفو العلاقة بينهم أو يزيدها كدراً، لاسيما وأن من يقبل على نفسه هذه الصفة عادة ما يتميز بالمبالغة والكذب وتهويل الأمور وغايته في كل ذلك الإيقاع بين الناس ومشاهدة عاقبة عمله من إيقاع العداوة والبغضاء وإثارة النعرات

والشجار وهو مسرور بذلك كل السرور لأنه يعتبر أنه قد نجح في مهمته وحقق الأهداف التي كان يريدها من عمله الخسيس ذلك وقد نزل القرآن الكريم بذم هذه الرذيلة منذ أوائل العهد المكي، إذ قال ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠ -١١] طعان في الناس.

وبعد فتلك آيات كريمة رسمت للإنسان الطريق السليم والسهل في حياته لإقامة المجتمع الذي يسوده السلام وتعم بين أبنائه المحبة والأخاء والثقة المتبادلة وهي نصائح وإرشادات تتوجه للنفس البشرية بشكل أوامر ونواهي إلهية وعلى كل أن يتدبرها ويطبقها على نفسه، ويقف مدى تطبيقها على عمق الإيمان لدى كل إنسان ومقدار ما أثر به هذا الإيمان من صفاء ونقاء لقلبه ونفسه ومدى انعكاس ذلك على سلوكه وتصرفاته تجاه الآخرين. فهذا شأن فردي وعلى كل إنسان الأخذ به وتطبيقه على نفسه يدفعه في ذلك إيمان عميق بالله والرغبة في نيل رضاه باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

ولتحقيق المزيد من السلام والأمن الاجتماعي أورد الخالق سبحانه آيات أخرى تشمل أوامر ونواهي لا يمكن أن تستقيم الحياة البشرية بشكل سليم إلا بالأخذ بها وتطبيقها ومن هذه:

حرمة الأعراض:

وتشمل هذه الحرمة حفظ العرض من الكلمة التي يكرهها تذكر في غيبته وهي صدق فكيف إذا كان الكلام افتراء لا أصل له، إنها حينئذٍ تكون حوباً كبيراً وإثماً عظيماً.

أما ممارسة العدوان على الأعراض فقد أوجب الخالق العقاب له في الدنيا قبل الآخرة وهو عقابه الزناة المعروف في الإسلام بالجلد للعزاب والرجم للمتزوجين ولعل الأمر الأسوأ من الاعتداء على الأعراض هو رمي المؤمنات العفيفات

بالفاحشة لما فيه من ضرر بالغ بسمعتهن وسمعة أسرهن وخطر على مستقبلهن فضلاً عن إشاعة الفاحشة بالمجتمع المؤمن، لذلك كان هذا الأمر من السبع الموبقات.

وتوعد القرآن الكريم من يرمي المحصنات العفيفات بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

كذلك حرم الله دماء المسلمين وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق فحياة الإنسان مقدسة وهي أمانة أودعها الخالق في نفس صاحبها ولا يحق لأي كان وحتى لمن يملكها أن يسلبها ويقضي عليها، لذلك أمر سبحانه بتنفيذ عقوبة القتل لمن يسلب غيره الحياة بغير حق حتى لا تشيع الفوضى وينعدم الأمن والأمان في المجتمع وتفتقد النفس البشرية للطمأنينة والسكون في حياتها فيعم الخوف وينقطع حبل الأمن وليتصور كل منا مجتمع تسوده الفوضى وتصبح فيه نفس الإنسان رخيصة ودمه مهدوراً للقتلة والمجرمين واللصوص فلا يأمن أحد على روحه أو ماله وعرضه.

وهذا ما نراه الآن في مجتمعات تدعي التقدم والدفاع عن حقوق الإنسان وحريته حتى لأولئك القتلة والمجرمين فشاعت الفاحشة وكثر القتل والاغتصاب والسرقة حتى ما عاد الإنسان في تلك المجتمعات آمناً على نفسه وماله وعرضه وكل ذلك باسم حرية الإنسان وحقوقه، وكأن الحرية تعني حرية القتل والنهب والاغتصاب وغيرها من الجرائم التي تعاني منها تلك المجتمعات لا بل والأغرب من ذلك أنها تدعو لسيادة هذه القيم الهدّامة في كل أنحاء المعمورة، وهي تعارض إيقاع القصاص العادل بالمجرمين والقتلة وبحجج واهية لا بل ومشكوك بأهداف وغايات أولئك الذين يتبنون مثل هذه الدعوات الهدامة، فقد ثبت بلا أدنى شك أو

ريب أن لا رادع للإجرام والانحراف في أي مجتمع إلا إيقاع أشد أنواع العقاب بكل مجرم منحرف لأن التخلص من مجرم واحد قد يحفظ حياة العشرات وربما المئات ممن كانوا مرشحين ليكونوا ضحايا لمجرم سفاح لا يمكن ردعه وردع أمثاله إلا بإيقاع القصاص العادل والذي لا بديل له بهم وليكونوا عبرة لمن يعتبر.

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

كذلك أوجب الخالق سبحانه حرمة المال هذا المال الذي شاء سبحانه أن يكون مقوماً هاماً من مقومات الحياة ومن الأشياء المحببة إلى النفس البشرية في الماضي والحاضر وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولقد باءت بالفشل كل المحاولات التي بذلها البعض وأجهد نفسه من أجل إيجاد حياة بلا أموال ومجتمعات خالية منه، فقد أبيد الملايين من البشر من أجل ذلك وأهلك الزرع والضرع ولكن كل تلك المحاولات كان مصيرها الفشل الذريع ولم تؤدِ إلا إلى المزيد من الدمار وتفشي الفقر والحرمان وتوقف النمو الاقتصادي والعلمي وتسلط فئة قليلة على المقدرات باسم إقامة مجتمع العدل والرفاهية.

أما الإسلام والذي مصدره فاطر النفس البشرية فإنه أجاز للمسلم أن يجمع من المال ما شاء ما دام يجمعه من حلال وبالوسائل المشروعة بعيداً عن السرقة والرشوة والغش والربا والاحتكار وأكل مال اليتيم وحقوق العمال والفلاحين، بعد كل ذلك يصبح المال مشروعاً طيباً حلالاً وما دامت ملكية المال مشروعة

إسلامياً، فإن الإسلام يحميها بتشريعه القانوني وتوجيهه الأخلاقي أن تعدو عليها يد العادين غصباً أو سرقة أو احتيالاً.

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨] وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ﴾ [النساء: ٢٩].

والخالق القادر العليم بتكوين النفس البشرية أنزل أوامر ونصائح للإنسان الذي يملك المال بأن لا يسارع إلى إنفاق هذا المال وإهداره، فيما يفيد ولا يفيد وبالتالي يفقد هذا المال ويقعد ملوماً محسوراً كاسر البال مهموماً لأنه لم يعد باستطاعته الإنفاق على نفسه ومن يعيل، وقد يلجأ للطرق الملتوية كالسرقة أو القتل والغش والتزوير وما إلى ذلك كلّه ليحصل على مال حرام بعد أن أضاع المال الحلال الذي كان يكسبه قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

ولقد أدب سبحانه الناس في الإنفاق فقال: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧].

وقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ [الفرقان:٦٧].

هذه أوامر ونصائح إلهية لو أخذ بها كل إنسان مسلماً أو غير مسلم لاستقامة الحياة المادية في المجتمع واختفت أهم مسببات الجرائم والتي يكاد أن يكون معظمها راجع لسوء تصرف الإنسان في المال جمعاً وإنفاقاً.

وسبحان من لم يترك في كتابه العزيز شاردة ولا واردة تنفع عباده إلا أوردها وهو العليم الخبير بحاضر الإنسان عند نزول كتابه الكريم والعليم بما ستؤول إليه المجتمعات البشرية وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فأنزل سبحانه الآيات التي تنظم علاقة المسلمين بغيرهم سواء في المجتمع الإسلامي أو المغاير والذي انطلق من أن الإنسان هو الإنسان بكرامته وقيمته التي فطره عليها مهما كان لونه أو جنسه أو دينه قال تعالى: ﴿كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٣٩- ٤٠]، وقال سبحانه: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

فالإنسان إذن كإنسان هو جوهر فكرة الوجود البشري على هذه الأرض وبغض النظر عن أي أبعاد أخرى رافقت مسيرة الإنسان الطويلة على هذا الكوكب وبما أن المجتمعات البشرية انقسمت إلى أجناس وعقائد مختلفة فإن الخالق سبحانه أنزل القواعد والأسس التي تنظم علاقة الجمع قال تعالى مخاطباً المسلمين: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

هذه الآية لا تحض وترغب في العدل والإقساط لغير المسلمين فحسب والذين لم يقاتلوا المسلمين ولم يخرجوهم من ديارهم – أي أولئك الذين لا حرب ولا عدواة بينهم وبين المسلمين، هذه الآية رغبت في برّهم والإحسان إليهم.

وإذا كان الإسلام لا ينهى بل يأمر بالبر والإقساط إلى مخالفيه من أي دين ولو كانوا من المشركين كالعرب الذين نزل إليهم، فإنه ينظر نظرة خاصة لأهل الكتاب سواء أكانوا داخل أرض الإسلام أو خارجها.

فالقرآن يناديهم دائماً بـ(أهل الكتاب) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [النساء: ٤٧]، كما أن المسلمين مطالبين بالإيمان بكل الكتب السماوية ورسل الله جميعاً ولا يتحقق إيمانهم إلا بهذا.

وإذا جادل المسلمون أهل الكتاب فليكن ذلك بالتي هي أحسن وبشكل لا يوغر الصدور ويثير العداوات: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

كذلك حرص الخالق سبحانه في كتاب الكريم على أن يرشد لأقوم السبل في العلاقة بين الرجل والمرأة أساس كل مجتمع، فبين حقوق كل منهما على الآخر، والوضعية التي يجب أن يتبوأها كل من الطرفين إذ لا فرق بين رجل وامرأة بعضكم من بعض لكل نفس التكاليف وعين الجزاء في الدنيا والآخرة خيراً وشراً قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وهي درجة الإنفاق والمسؤولية ثم بين سبحانه أن الزواج هو الطريقة المثلى والمطلوبة التي تحقق رغبات الجسد وتحفظ استمرار النسل ورعايته ثم بين بعد ذلك واجبات الزوج على الزوجة وبالعكس وأرشدنا سبحانه لأحسن طرق المعاشرة واستمرار الحياة الزوجية الهانئة، وشرع الطلاق بالتي هي أحسن في حال استحالة الاستمرار في الزوجية وذلك ضمن شروط ومواقف قد تحد منه بأن تجعل هنالك مواضع للمراجعة وإعادة التفكير وتدخل الوسطاء من الأهل والأقارب.

وإذا ما تم الطلاق فإنه يضمن حقوق المطلقة احترامها وبقائها في منزل الزوجية مدة العدة.

وكل ذلك لضمان الأمن الاجتماعي وحل مشاكل المجتمع بالتي هي أحسن دون اللجوء للعنف والخصومة والقطيعة والبغضاء.

وما دمنا في موضوع الآيات التي تحقق الأمن الاجتماعي أو ما استطعنا الوصول إليه من آيات كريمة فالقرآن بحر لا بل محيط يزخر بالدرر واللالئ التي لا تحصى والتي لا يمكن لأي كان أن يحيط بها أو يحصيها مهما أوتي من العلم والفطنة، فهذا أمر لا تملكه أجيال كاملة متعاقبة فإعجاز هذا القرآن متجدد مع تجدد الأجيال وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

نختم ما فتح الله علينا به من آيات الأمن الاجتماعي بالآية الكريمة أو جزء من آية فقد قال سبحانه: ﴿وَٱلۡكَـٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وهل هنالك دعوة لتلافي العداوة والبغضاء أبلغ وأرق من هذه الدعوة الكريمة، وهل هنالك ما هو أشد وطأ على النفس من الغيظ وفقدان الأعصاب ما يدفعها لعداء الآخرين وإثارة الفتن والاقتتال بين أبناء المجتمع الواحد، إنها دعوة ربانية رائعة لكظم هذا الغيظ لا بل والعفو عن المسيء من الناس وليس هنالك من طريقة أنجح ولا أقصر من العفو والتسامح للقضاء على العداوة والبغضاء بين الناس وسيادة المحبة والألفة والوئام بينهم، والأبلغ من كل ذلك والأكثر إنسانية ورفعة أن الأمر بالعفو موجه ليكون للناس، حيث يفهم منه أنه للناس بغض النظر عن الدين أو اللون أو الجنس.

وهل هنالك من إنسانية أضمن لحقوق الإنسان الصحيحة والحقيقية أبلغ من هذه الدعوة الإنسانية الفريدة والخالدة.

إنها تعاليم الإسلام الإنسانية العالمية السمحة والتي تفتقد لها البشرية في هذا العصر، لا بل إنها شوهت وعُكست تماماً بحيث أصبح الإسلام مرادفاً للإرهاب والتعصب وهدر حقوق الإنسان وقتل الأبرياء.

مع أن الحقائق الناصعة والواضحة وضوح الشمس في رابعة النهار تقول بأن لا عاصم من الإرهاب إلا الإسلام وتعاليمه الإنسانية السمحة ولكن عندما يحملها من يستطيع حملها بالقوة والإخلاص والفهم الصحيح والنقي لمبادئ الإسلام العظيمة.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الوعد الإلهي للإنسان بالثواب والعقاب يوم القيامة وأثره في النفس البشرية

فكرة الثواب والعقاب وجدت مع الإنسان منذ أن وجد نفسه يدب على هذه الأرض، فهو يرجو الخير لنفسه نظير أي عمل يقوم به داخل منزله وخدمة لأسرته وهو ينتظر أجراً ومقابلاً لقاء أي عمل يقوم به لخدمة غيره من بني البشر، وهو في الوقت ذاته ينتظر العقاب أو العقوبة جراء أي عمل مشين يقوم به كالقتل والسرقة والاعتداء على الحرمات والأعراض وما شابه ذلك، هذا الإنسان الذي فُطر على الثواب والعقاب ومنذ أن وجد وحتى يرث الله الأرض وما عليها، لا يمكن أن تستقيم حياتنا ويكون إيمانه تاماً إلاّ إذا انتظر الثواب والخير العميم مقابل تمسكه بالأخلاق الفاضلة والابتعاد عن الشرور بأنواعها وعدم ارتكاب ما حرم الله، وفي الوقت ذاته انتظار العذاب الأليم للكافر الفاجر مرتكب المعاصي والموبقات، فالإنسان السوي المؤمن والذي يمنع النفس عن الهوى مبتعداً عن الملذات المحرمة، والذي يبذل المال والنفس والوقت في سبيل الله وخدمة دينه والإنسانية المعذبة لا يمكن أن ينتظر المصير نفسه بعد هذه الحياة القصيرة الذي ينتظر الكفار والأشقياء والذين أرخوا الحبل على غاربه لنفوسهم الإمارة بالسوء كي تفسد في الأرض وتغرق من اللذات المحرمة ما شاءت، الإنسان السوي هو الذي يفكر بمصيره بعد حياته الدنيا القصيرة الفانية فيتبع دروب الإيمان والخير والفلاح فيسلكها لينال خير الدارين، وأما من كان أعمى البصيرة فإنه ذلك الكافر الجاحد نعم الله عليه المرتكب ما حرم الله من الآثام والمعاصي، مثل هذا الإنسان لا يمكن أن يقارن بالنوع الأول ويلاقي نفس المصير.

لذلك فإننا نرى فكرة الثواب والعقاب ترد في مختلف العقائد الدينية، السماوية منها وغير السماوية كالبوذية والزرداتشية والهندوسية وغيرها.

أنها تعبر عن بحث الإنسان عن الخلود كل وفق نظرة وتعاليم خاصة وهو الأمر الذي يؤرق الإنسان منذ أن وجد على هذه الأرض وشعر أنه الأذكى والأقوى بين مخلوقات الله وهو الأقصر عمراً في الوقت ذاته مقارنة مع ما تصنعه يداه من أشياء تستمر بعده مئات وآلاف السنين بينما يرحل هو إلى المجهول وبعد حياة قصيرة لم تشبع نهمه للحياة وملذاتها وقدرته على المزيد من الانجازات فيها لو طال به المقام، وهو خلال رحلة عمره هذه يتعرض كما أسلفنا لتقلبات وتغيرات متعددة منها ما يقارب بها الصواب ويسير على الصراط المستقيم وأخرى ينحرف عن الطريق السوي وقد يستمر هذا الانحراف إلى النهاية أو يعود إلى الطريق السليم طريق الهداية والرحمة والمغفرة قبل فوات الأوان.

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] وليعيش الإنسان على هذه الأرض حياة مستقرة مطمئنة ويعمل بكل ثقة ودون شعور شقي وحيرة مدمرة تأخذ القسم الأكبر من حياة الإنسان على هذه الأرض وتمنعه بالقيام بكثير من الأعمال والتي بها خيره وخير البشرية جمعاء، لأجل كل ذلك نرى القرآن الكريم يرسم للإنسان أسهل الطرق لحياة سعيدة مستقرة في الحياة الدنيا في الوقت ذاته الذي ينقل فيه هذا الكتاب الكريم كل من يؤمن به إلى آفاق العالم الآخر كما لم يفعل من قبل ولا من بعد أي كتاب سماوي أو غير سماوي وكما لم يتصور خيال بشري، وهو عالم بسيط كل البساطة، واضح وضوح العقيدة الإسلامية، موت وبعث، ونعيم وعذاب فأما الذين آمنوا وعملو الصالحات فلهم الجنة بما فيها من نعيم، وأما الذين كفروا وكذبوا بلقاء الله فلهم من النار بما فيها من جحيم، ولا شفاعة هناك ولا فدية من العذاب، ولا اختلال قيد شعرة في ميزان العدالة الدقيق ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

يَـرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧- ٨]، ﴿يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

القرآن الكريم صور للإنسان مشاهد حية متنوعة من عـالم الأشـياء، لا ألـوان مجـردة أو خطـوط جامـدة مـشاهد تقـاس فيهـا الأبعـاد والمـسافات بالمـشاعر والوجدانات، والخواطر والخلجات، وترسم المواقف وهي تتفاعل في نفوس آدمية حية، أو في شخوص من الطبيعة تُخلع عليها الحياة.

لقد صور القرآن الكريم لهذا الإنسان مشاهد يمكن أن يراهـا حاضـرة اليـوم، تراها العين وتحسها النفس حتى ليبدو الفارق السحيق بين العالمين فارق قريب بـل يكاد أن لا يكون هنالك فارق في بعـض الأحيـان بـل ربمـا كانـت (الآخـرة) هـي الحاضرة وكانت (الدنيا) ماضياً بعيداً يتذكره المتذكرون.

وهذه سمة تحي هذه المشاهد في النفس البشرية وتقوى أثرها في الحس وتتحقق بوسائل شتى وبحيث يبدو أول المشهد أحياناً في الحياة الدنيا ونهايته في الحياة الأخرى، دون توقف وبلا فواصل حتى ليخيل إلينا أنها قريب من قريب وأن الإنسانية تقطع الرحلة على مشهد منك في استطراد عجيب قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ١-٦] ويستمر السياق إلى صور من النعيم والعذاب، حتى ليحس المرء أنه تبرأ قبل خلق الإنسان، يوم أن لم يكن شيئاً مذكوراً، وتنتهي في الجنة والنار وتضم في خلالها الحياة في بضع فقرات قصار، ومرة أخرى يريك الدنيا والآخرة حاضرتين معاً، فهؤلاء جماعة

يستعجلون النبي ﷺ بالعذاب بينما هم في حوزة جنهم ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٤] ومرة يبدأ في قصة تقع في الدنيا، ثم يتابع بقيتها لينقلنا إلى الآخرة، فهذا فرعون يؤم قومه في الحياة ثم يستمر الشوط حتى يؤمهم إلى النار ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٦- ٩٨].

ومرة يزاوج بين مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة ويسوقها مساقاً واحداً كأنما هما حاضران في الزمان يتبادلان التقديم والتأخير. وأخرى يتحدث عن الدنيا كأنها ماض كان والأخرى كأنها الحاضر الآن:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، تعني هذه المشاهد بتصوير الهول في يوم القيامة ذلك الهول الذي يشمل الطبيعة كلها، ويغش النفس الإنسانية ويهزها.

كذلك تعني هذه المشاهد بتصوير مواقف الحساب قبل النعيم والعذاب وذلك من خلال ألوان شتى من طرق العرض الكثيرة، وسمات شتى للموقف المعروض، مرة يطول مشهد العرض والحساب حتى يحسبه القارئ بأنه سوف يدوم ومرة بعرض سريع خاطف لا تكاد تتملاه العيون. وهذا أو ذاك تقرره الأصول الفنية القائمة على أسس نفسية شعورية، وتحدده طبيعة الموقف، ويلتقي بالغرض الديني في النهاية فيؤديه.

وتعني هذه المشاهد بتصوير النعيم والعذاب بعد البعث والحساب، وهي

تعرضها مرة بشكل مادي يلمسها الحس، وأخرى بشكل معنوي تدركه النفس، ومرة تجمع بين هذا اللون وذاك.

يتجسم العذاب المادي المحسوس في مثل هذه الصورة: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤ - ٣٥] كذلك يتجسم النعيم المادي في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾..﴾ [الواقعة: ٢٧- ٣٤] إلى آخر الآيات الكريمة ومثل هذا النعيم هو ما تتمتع به البطون والأجسام وتتلذذ به الجوارح والأبدان.

في موقف آخر يدق النعيم والعذاب ويعمقان حتى ليغدوان ظلالاً نفسية رقيقة تنفرد بها النفوس في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦]، ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

وللعذاب يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ [الأنعام: ٣٠] إلى آخر هذه المشاهد التي يبدو

فيها النعيم والعذاب خالصين في النفس والضمير، من حبور واطمئنان وود، أو ندم وخزي وتأنيب.

وتارة تختلط مظاهر النعيم أو مظاهر العذاب وتزدوج فيبدو النعيم أو العذاب المادي ممازجاً للنعيم أو العذاب الروحي، وهذا هو الغالب في مشاهد النعيم والعذاب مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ [القمر: ٥٤ – ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الحديد: ١٢].

وللعذاب يقول سبحانه: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٣ -١٥].

وهكذا يصحب النعيم المادي لون التكريم المعنوي ويصحب العذاب الحسي ذلك التبكيت النفسي، فيلتقي كلاهما في الحس والنفس، ويكون النعيم مضاعفاً كما العذاب.

هذه مشاهد مختصرة مما أعد الخالق سبحانه لعباده مشاهد النعيم المقيم في الحياة الأخرى للمؤمنين الصادقين العاملين والذين آمنوا بالله ورسله وأطاعوه باتباع أوامره واجتناب نواهيه غير متعجلين لمتع الحياة الدنيا المحرمة وهم موقنون كل اليقين بما وعدهم الله من الجزاء الأوفى في الآخرة وواثقين بأن الله لا يخلف وعده وهو سبحانه الذي وعدهم بالخير والنعيم المقيم وصدر لهم مشاهد مما ينتظرهم من خير عميم وحياة ما خطرت لهم على بال وكل ذلك مقابل أعمال تخلو من المشقة أو الحرمان في الحياة الدنيا ولكنها مقابل أعمال محمودة ومطلوبة ومستحبة ويتمنى القيام بها كل إنسان سوي عاقل لا يغلب أهواءه وأطماعه وغرائزه الدنيا، إنه النعيم الذي يناله كل إنسان مؤمن صادق فاعل للخير محب

للعدل مقيم له، محافظاً على أرواح العباد وأعراضهم وأموالهم، بعيداً عن النفاق والرياء والغش والاستكبار والكبر الزائف، رفيقاً بالضعفاء والمساكين والمحتاجين نصيراً لهم، وهذه وغيرها الكثير أعمال محمودة في الدنيا وتقود إلى النعيم المقيم في الآخرة، هذا النعيم الذي وصف في القرآن الكريم بأسلوب لغوي جذاب لا نظير له ببلاغته وسلاسته وعذوبته ودقته وبصورة معجزة حقاً لم يرد مثيلاً لها في كتاب آخر عرفته البشرية منذ أن وجدت على هذه الأرض، إنه الكلام الذي يهتز له الصخر لو كان يسمع، ولا ينكره إلا من أراد أن يجعل قلبه فاقد للبصر والبصيرة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] يقابل كل ذلك صور ذلك الإنسان الشقي في الدنيا والآخرة فالأعمال التي تقود إلى جهنم هي نفسها الأعمال المرذولة في الدنيا والتي لا يقوم بها إلا الأشقياء قليلوا أو عديموا الإيمان، والتي يمقتها كل صاحب عقل وحس إنساني فليس هنالك من إنسان سوي واحد يحب الظلم أو قتل الأبرياء والاعتداء على الأنفس والأموال بغير حق أو أكل مال الأيتام والفقراء والعمال فذلك كله يقود للشقاء في الحياة الدنيا كما في الآخرة فأي إعجاز متجدد هذا الذي يضمه القرآن الكريم وأي سعادة كبيرة توفرها تعاليمه للإنسان في كلا الدارين، تعاليم هذا القرآن العظيم وحدها هي الكفيلة بتحقيق السعادة المفقودة والتي يبحث عنها الإنسان في غير مظانها وبعيداً عن ينابيعها الثرة المستديمة والتي لا يمكن أن تجف أو تفور بعيداً مادام هذا الكتاب بين الأيدي، ولكن المطلوب أن تقرأه وتستوعبه القلوب والأرواح قبل الألسنة ليؤدي الأهداف التي أنزله الخالق من أجلها، فإعجاز القرآن الكريم حاضراً بين يدي الإنسان وخوارقه تكمن في ذاته وهي وجدت أصلاً من أجله، لإسعاده وصلاحه وتحقيق كل ما يسعى من أجله في حياته الدنيا والتي تقوده بالتالي لحياة النعيم في الآخرة بعيداً عن الضلال والتيه والحيرة التي عانى منها طويلاً عبر الأزمان المتعاقبة صور من النعيم المقيم وأخرى من العذاب المهين لنمطين من

البشر، صور تنفذ لأعماق النفس البشرية لتغير وتعدل من كل انحراف قد يطرأ على هذه النفوس والشواهد كلها تظهر الآن أن ليس هنالك غير هذه الآيات من منقذ للإنسان المعاصر والذي جعل إلهه هواه وصنع من نفسه إلهاً فكان مصيره الحيرة والاغتراب والتوهان في كون لا يدرك منه إلا اليسير لذلك كان واجب كل مسلم معاصر مقتدر أن يستغل منجزات العصر المذهلة لاسيما في مجال الاتصالات ليوصل تعاليم القرآن الكريم إلى كل إنسان يمكن الوصول إليه وبمختلف الوسائل حتى تعم مفاهيم القرآن الكريم السامية أكبر عدد ممكن من البشر لتحقق للإنسانية جمعاء ما تصبو إليه من طمأنينة وسكينة وسعادة حقيقية تفتقر لها جراء فقدانها للمبادئ والقيم الإنسانية والأخلاقية التي تواكب إنجازاتها المادية وهو أمر مرعب وينذر بأوخم العواقب ويفقد الإنسانية الكثير من معانيها السامية ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥].

بعض مظاهر عدم السواء في الشخصية الإنسانية

يؤدي اعتلال الصحة النفسية إلى الإصابة بأعراض الاضطرابات النفسية، وهي كثيرة، وقد أشار القرآن الكريم إلى بعضها مثل:

١- اليأس:

ويعتبر الشعور باليأس من أهم مسببات الاكتئاب النفسي الذي أصبح سمة من سمات العصر الحديث بسبب تعرض الإنسان بشكل مستمر للضغوط النفسية والتوتر وعوامل الإحباط، بالإضافة إلى محاولاته المستمرة لمقابلة متطلبات الحياة الملحة التي لا تنتهي والتي يعجز عن تحقيقها كلها أو بعضها. ويعزي كثير من العلماء بعض مظاهر السلوك غير السوي إلى اليأس مثل الإقدام على الانتحار، والشعور بالاستسلام وفقدان الأمل، والتسليم بالفشل مع العجز عن عمل أي شيء لتغير الظروف المحيطة، والشعور باللامبالاة وعدم المسؤولية، وشعور الإنسان باستحالة مرور الأزمة أو حدوث الانفراج.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩]، ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩]، ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣]، ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

٢- إضمار الشر وعمل السحر:

وقد نهى الله عن مثل هذه الأعمال لأنها تدل على ما في النفوس من حسد

وبغض وكراهية الخير للآخرين وتمني زوال النعمة منهم:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١-٥].

٣- النفاق:

والنفاق كما هو معروف لغوياً هو إظهار بعض الأمور بشكل علني مع إسرار النوايا الحقيقية مثل إظهار الخير مع إسرار نوايا الشر.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨- ١٠].

والنفاق ليس إلا مرض نفسي، فالمنافق إذ يخدع نفسه لأنه لا يتصرف بإرادته بعد أن سلم نفسه لرغباته ودوافعه اللاشعورية. وهذا المريض إذا ما استمر في سلوكه المرضي المنحرف فسوف يتحول هذا السلوك إلى عادة يصعب التخلص منها.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

٤- الخداع:

وهو مظهر سلوكي من مظاهر النفاق، ولذا نجده مقترناً به في كثير من الآيات، ومن معاني الخداع الختل وإرادة المكروه بالغير من حيث لا يعلم، واستخدام الحيلة

والكذب والتزييف وقلب الحقائق للتغرير بالآخرين والإيقاع بهم: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

٥- الاحباط:

وهو التوقف عن أي نشاط هادف للعمل مما يؤدي إلى عدم بلوغ الهدف مع ما يتبع ذلك من آثار نفسية نتيجة الشعور بالفشل والهزيمة، ويشير القرآن الكريم إلى بعض حالات حدوث الإحباط وأسباب مثل: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

٦- الصراع النفسي:

والصراع النفسي يعني وجود قوى نفسية متنافسة ومتعارضة مما يجعل الإنسان يقع في الحيرة والارتباك ويعجز عن اتخاذ القرار المناسب في حينه وتبدو صورة الصراع في عمليات الجذب والدفع التي تنتج عن الاتجاه نحو الهدف ثم التراجع في الاتجاه الآخر مما يجعل الإنسان مذبذب الرأي ومتناقض المشاعر، ويقول تعالى في ذلك: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٣].

٧- الغيبة والنميمة:

والغيبة هي ذكر الآخرين بما يكرهون، وهي محرمة شرعاً بالإجماع، أما النميمة فهي المشي بين الناس للتحريض بينهم من أجل إفساد العلاقات القائمة والتفريق بين الأصحاب والأخلاء.

ويعتبر سلوك الغيبة والنميمة من أنواع السلوك المنحرف ذي الأثر السلبي الذي لا يصدر إلا عن نفس حاقدة تكره الخير للناس، وتتمنى لهم الشر.

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠- ١١]، ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

٨- سوء الظن:

وهو إلقاء التهم الباطلة على الآخرين بشكل مقصود دون قيام دليل وشواهد على ذلك، ودون علم مسبق بحدوث ذلك يقيناً. ولما كانت دواعي الصحة النفسية تستدعي استخدام القدرات الذاتية في تتبع الحدث والتثبت من حدوثه فعلاً من أجل التوصل إلى الحقائق لتفادي سوء الظن وإيقاع الأذى بالآخرين والتشهير بهم في المجتمع حتى ولو كان ذلك بالنية الحسنة. فالأمر يستدعي البحث والتحري ومراجعة الشواهد ومقارنة الأدلة قبل التسرع باتهام الآخرين بتهم باطلة كاذبة فربما أدى ذلك لوقوع نزاعات خطيرة بين أبناء المجتمع الواحد قد تؤثر على تماسكه ووحدة أبنائه ونشوب الفتن التي لا يحمد عواقبها، فالإنسان السوي والمسلم الحق والذي يخشى الله في كل ما يقول ويفعل لا يمكن أن يسيء الظن بأحد لا بل إنه يحاول الستر على زلات أخيه إن لم يكن بها ضرر لغيره فسوء الظن من أخلاق الجاهلية والتي يجب إزالتها من نفس الإنسان المسلم.

ولنقرأ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

هذه إذن هي نتائج الظن السيء والذي يعتبر بعضه إثم والإثم شيء عظيم في

ميزان الله سبحانه لما له من الأثر السيء في حياة البشر، ومن يظن ظن السوء سواء أكان فرداً أو جماعة فإنهم لن يكونوا إلا قوماً مفلسين لا فائدة ترجى منهم لا لأنفسهم ولا لغيرهم فإنهم كالأرض البور التي لا نبات فيها ولا زرع ينفع مخلوقات الله من بشر وغير بشر، ونحن نعلم كم هي وضيعة مكانة الإنسان الذي لا نفع منه في هذه الحياة، فكيف يكون الحال إن كان يُتوقع منه الإضرار بنفسه وغيره.

الاضطرابات المؤثرة على الوعي والادراك

من المعروف أن تعاطي الخمر واستعمال المخدرات لها أضرار صحية واجتماعية، كما أن للميسر أضراراً نفسية واجتماعية واقتصادية أيضاً ولما كانت الصحة النفسية تسعى لزيادة مستوى الوعي والإدراك لدى الفرد حتى يكون مسؤولاً عن سلوكه مسؤولية تامة، فهذه الآفات تؤدي إلى حجب الوعي وتعطيل عمليات الإدراك أو التأثير عليها بشكل سلبي، فالخمر تذهب بالوعي مثلها مثل أنواع عديد من المخدرات، وتدفع بالإنسان إلى تسليم مقوده لقواه اللاشعورية ولأهوائه التي لا يستطيع السيطرة عليها.

أما الميسر فإنه يتحول إلى عادة لها سيطرة حديدية على سلوك الإنسان بحيث تسوقه مسلوب الإرادة من أجل الاستمرار في ممارسة سلوك القمار دون قدرة على التراجع.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠- ٩١].

الاكتئاب:

عندما نتحدث عن الاضطرابات النفسية كما جاءت في القرآن نجد أن بعضها قد ذكر بشكل صريح وواضح بينما نجد بعضها الآخر قد ذكر بشكل يبرز الأعراض فقط وبحيث يمكن الاستدلال منها على نوع الظاهرة النفسية المرضية وتشخيصها وعلاجها بشكل غير مباشر، ومن أمثلة الحالات الأخيرة ظاهرة

الاكتئاب.

والاكتئاب هو نوع من الاضطرابات النفسية من فئة اضطرابات الانفعال، وقد يأتي بشكل خفيف أو متوسط أو شديد، ويتميز المكتئب بالميل إلى الانسحاب من الحياة الاجتماعية والبكاء في عزلته بعيداً عن الآخرين، وبفقدان الميول الاجتماعية والاهتمامات الأسرية، وبانعدام النشاطات الهادفة مع الشعور بانحطاط المنزلة الاجتماعية.

وبشكل عام يبدو المكتئب حزيناً وغير راضٍ عن حياته، كما تتسم نظرته إلى الحياة بالتشاؤم والسوداوية ويمكن النظر إلى المكتئب من ثلاث زوايا تبين مواقفه السلبية تجاه نفسه وتجاه حياته، وهي:

١. نظرة المكتئب إلى خبراته ونشاطاته وحياته بشكل سلبي يجسد معنى الفشل وخيبة الأمل.

٢. نظرة المكتئب إلى نفسه نظرة قاسية يتجسد فيه فقدان القيمة الاجتماعية، وإلقاء اللوم على النفس في كل ما حدث، مع الشعور بكراهية تجاه النفس كنوع من العقاب الذاتي.

٣. نظرة المكتئب تجاه المستقبل نظرة سوداوية مملوءة بالفشل، إذ يرى نفسه غير قادر على العمل وغير قابل للنجاح، وهذه الحالة لن تفارقه طوال حياته ولا حيلة له في التغلب عليها.

ويرجع الاكتئاب إلى عوامل مختلفة تناولتها النظريات العلمية الطبية والنفسية والعقلية وأهمها:

الأسباب الداخلية:

ويعزى إليها حدوث الاكتئاب بسبب وجود اضطرابات عضوية داخلية ودون أن يكون هناك أسباب خارجية تدعو لذلك.

أسباب كيميائية حيوية:

ويعزى إليها حدوث الاكتئاب بسبب زيادة أو نقص إنتاج مواد معينة في بعض مراكز المسخ بسبب العوامل الوراثية التي تؤدي إلى وجود فروق فردية في الاستعداد للإصابة بهذه الحالة.

أسباب نفسية:

ويعتقد بأن الأسباب النفسية تؤدي بدورها إلى إحداث تغييرات في الجسم تنتج عنها حالة الاكتئاب، مثل حلول كارثة أو وقع مصيبة أو مواجهة محنة، مما يؤدي إلى اضطرابات تفكير الفرد ونظرته إلى نفسه وإلى العالم بشكل سلبي يرى فيه أنه لا يساوي شيئاً، وأن العالم شديد الظلمة في نظره، وأن حياته تسير باتجاه مصير سيء لذلك كله نرى أن الشخص المصاب بهذه الأعراض يبدو حزيناً مهموماً.

ويمكن تقسيم الاكتئاب بشكل عام إلى قمسين:

أ- اكتئاب يرجع إلى أسباب كامنة لدى الفرد لا تظهر إلا إذا صادفتها بعض العوامل المهيئة أو المساعدة.

ب- اكتئاب تفاعل ويحدث بسبب الضغوط الحياتية التي يتعرض لها الإنسان، وهو حالة مؤقتة في أغلب الأحيان وتزول بزوال مسبباتها.

بعض أسباب الاكتئاب كما جاءت في القرآن الكريم:

١- الاكتئاب بسبب فقد حبيب أو عزيز:

ويتجلى ذلك في موقف نبي الله يعقوب عندما أصابه الهم والغم بسبب فقد ابنه المقرب إليه: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤].

٢- **الاكتئاب بسبب فقدان الثروة:**

وفقدان الثروة كثيراً ما يؤدي إلى الاكتئاب، وكم من قصص سمعناها عن ردود أفعال بعض المضاربين بأموالهم في أسواق البورصات العالمية عندما تنخفض أسعار العملات أو المعادن الثمينة وغيرها حيث يتعرضون لأزمات مرضية ويقدم بعضهم على محاولة الانتحار.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢].

٣- **وقد يرجع الاكتئاب إلى حدوث مكروه أو أمر يتعارض بشده مع** العادات والتقاليد والقيم الثقافية والاجتماعية السائدة مثل ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ [النحل: ٥٨- ٥٩].

٤- **وقد يرجع الاكتئاب إلى الشعور بضغوط الحياة المختلفة وإلى الأمور** العارضة التي تأتي من حيث لا يتوقع الإنسان حدوثها، كما في المواقف التالية:

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣]، ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩].

أعراض الاكتئاب كما وصفها القرآن الكريم:

لو رجعنا إلى مجموع الآيات التي مررنا بها لأمكن لنا حصر الأعراض التالية:

١. الأسف: ويبدو بشكل سلوك لفظي سلبي أو بشكل عبارات رثاء وأسف

واستسلام مثل: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤].

كما قد يبدو الأسف بشكل سلوك حركي: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢].

وقد يبدو الأسف بشكل حاد يعبر عن كراهية الحياة ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٣].

٢. ظهور دلائل الحزن بشكل هموم أو انقباض أو بكاء ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [يوسف: ٨٤]، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ﴾ [النحل: ٥٨].

٣. الشعور باليأس وفقدان الأمل، وهي حالة من القنوط ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا﴾ [الإسراء: ٨٣]، العزلة عن النشاطات الاجتماعية وقلة الكلام أو الشكوى للآخرين: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]، ﴿۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ [مريم: ٢٢]، ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ [النحل: ٥٩].

البغضاء:

ومعناها شدة الكراهية، مما يدل على المقت وانعدام الحب، فهي سمة سلبية في المجتمع الإسلامي الذي ينادي بالعدل والمساواة، والتعاون والتشاور، والتحاب والتعاطف، أما على المستوى النفسي فإن البغضاء هي استجابة سلوكية لدوافع الشر والحقد مما يؤدي إلى كراهية الخير للناس والسعي إلى الإيقاع بهم متى سنحت الفرصة، ولذا فعادة ما يكون صاحبها مثقلاً بالعقد النفسية ومسلكه غير سوي.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [المائدة: ٩١].

غير أن البغضاء في حالات استثنائية يكون لها جوانب إيجابية، وقد تتحول إلى سلوك إيجابي إذا قصد بها المؤمن كراهية الشرك والمشركين، وتحدي السلوك المنحرف وإعلان عدم رضاه وكراهيته لمظاهر السلوك غير السوي، وفي هذه الحالة فقط تصبح البغضاء سلوكاً سوياً وعديمة الصلة بعدم السواء: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

الغضب:

هو سلوك انفعالي يوجه ضد شخص ما أو شيء أو فعل كدلالة على عدم الرضى، وهناك نوعان من الغضب.

أولاً: غضب انفعالي مؤقت ويمثل نوعاً من الاستنكار أو الاستهجان لشيء ما وبخاصة في الأمور التي تمس العقائد والاتجاهات النفسية، مثلما حدث في موقف موسى مع قومه، وهذا النوع مؤقت ويعتبر رد فعل منعكس لمساندة الحق وتحدي الضلال ولا علاقة له بالسلوك غير السوي الذي نعنيه هنا ومن أمثلته:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ

أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

ثانياً: غضب يحدث بسبب فعل القوى الغضبية في النفس دون داع لـذلك ممـا يجعله سلوكاً منحرفاً عن السواء بسبب عدم قدرة الشخص علـى السيطرة عليـه. ومثل هذا السلوك يصبح عـادة سلوكية يـستخدمها الـشخص بـدون وعـي منـه، ونشاهد أمثلة له في حياتنا اليومية إما بسبب اندفاع الـشخص وعـدم قدرتـه علـى ضبط نفسه أو بسبب سوء التقدير أو بسبب الحمق، أو بسبب التعود كما يحدث في حيل الدفاع النفسية.

قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

العداوة:

العداوة والعدوان كلمتان تشيران إلى الظلم والتعدي على الغير. وهو سـلوك منحرف وغير سوي لأن الإنسان المسلم المتمتع بصحته النفسية لا يرضى لنفسه بأن يظلم أحداً أو يعتدي على أحد بغير حق، إلاّ أنـه يجـب التفريـق بـين نـوعين مـن العداوة:

١. العداوة للكافرين وأعداء الله بسبب خشية الله عز وجل ومن أجـل الحفـاظ على دينه وإعلاء كلمته، ومن أجل ذلك فرض القتال على المسلمين.

٢. العداوة كسلوك دفاعي يجعل الإنسان على أهبة الاستعداد للتصدي لعدوه، ويحدث في حالة إعلان الطرف الآخر الحرب على المسلمين بشكل كلامـي

أو اقتصادي أو ميداني بسبب الحقد والبغض والحسد.

قال تعالى: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال سبحانه: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وهنالك العداوة التي تنشأ بسبب الاضطرابات النفسية وانحراف السلوك عن السواء. ومن أمثلة ذلك ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ [المائدة: ١٤]، ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ﴾ [المائدة: ٨٢]، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٣٠].

المكر:

وهو التآمر واستخدام الخداع للأضرار بالغير مادياً أو معنوياً. ما عدا بعض الحالات الاستثنائية كحالة الحرب التي يجوز فيها استخدام المكر والحيلة والخداع، فقد نهى الخالق سبحانه عن المكر لما فيه من سوء الخلق وفساد النية والرغبة في إيذاء الآخرين، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، ﴿قَدْ

مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

السلبية:

السلبية من الآفات النفسية التي تعني العزلة وعدم الانتماء وقطع الصلات بالعالم المحيط مما يؤدي إلى الشعور بعدم المسؤولية واللامبالاة، وتشير السلبية إلى قصور في عملية التنشئة الاجتماعية واضطراب في مسار النمو النفسي مما يؤدي إلى انعدام الاهتمامات الاجتماعية لدى الفرد وإلى تلاشي الحرص على المجتمع وغياب الوعي والحس الاجتماعيين بالإضافة إلى عدم الإيجابية في التفاعل مع البيئة الاجتماعية المحيطة، ويسوق لنا القرآن الكريم أمثلة متنوعة لأشكال من السلبية، مثل:

السلبية بسبب عدم الامتثال لأوامر الله:

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ [البقرة: ٩٣].

السلبية بسبب رفض المشاركة في الجهاد: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ [البقرة: ١٤٩]، ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

السلبية بسبب الاستسلام وعدم محاولة رفع الظلم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ

فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧].

السلبية بسبب الرفض وعدم الرغبة في المشاركة: ﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٢]، ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢١ - ٢٣].

موقف القرآن الكريم من الخوف عند الإنسان

لقد ورد ذكر الخوف بمعنى الفزع في آيات قرآنية عديدة، ويعتبر الخوف بشكل عام من الدوافع الفطرية البسيطة، أي أنه يخضع لآليات السلوك الفطري المنعكس. ويعمل الخوف على توجيه سلوكنا في اتجاه دون آخر، فالخوف من خشية الله يعمل على توجيه الإنسان إلى اتباع طريق الصلاح ومتابعة واجباته الدينية وإلى المحافظة على العلاقات الإنسانية الطيبة مع غيره من الأفراد، كما يعمل الخوف أيضاً، في حالة توقع العقاب، على كف الإنسان عن ممارسة سلوك معين أو الانقياد لنزوات النفس وإلى البعد عن الأسباب المؤدية إلى تلقي العقاب.

ويعود الخوف إلى أسباب متعددة تناولها القرآن الكريم، ومن أهم تلك الأسباب:

- شدة الموقف، وعامل المباغتة.
- الضغوط المتنوعة والشعور بالألم.
- الخوف من المجهول أو غير المعروف.

ويمكن تعريف الخوف: بأنه دافع طبيعي يعمل على استشارة الكائن الحي لتوفير الحماية لنفسه عند الاقتراب من الشرور أو الأخطار، ويكون ذلك إما باتخاذ موقف الدفاع والتأهب للقتال أو اللجوء إلى الهرب.

وكما أثبت العلم الحديث فإن حالة الخوف تدفع الجسم إلى إفراز هرمونات تعمل على زيادة سرعة النبض وارتفاع ضغط الدم، وانقباض الأوعية الدموية وخفض معدل العضلات والأمعاء والمثانة مع اتساع حدقة العين وجفاف بالحلق وارتفاع معدل السكر في الدم.

والآن نستعرض ما جاء في القرآن الكريم منذ قرون عديدة حول هذه الظاهرة:

الشعور بالخوف من شدة الموقف وهول المباغتة ويتبين لنا ذلك في مواقف كثيرة مثل موقف الذين آمنوا بموسى عليه السلام وهم يتوقعون بطش فرعون وعذابه لهم ليردهم إلى الكفر من بعد الإيمان.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

كما يتمثل هذا الموقف جلياً في موقف الخوف والاضطراب الذي يمثل محنة الاختيار القاسي وتوزع الإنسان بين قوى الصراع النفسي المؤلم المشوبة بالشك والقلق والفزع من زلزلة الخوف.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وليس هناك أشد قسوة من مشاعر الخوف التي شعر بها المسلمون الأول القلائل الذين امنوا برسالة السماء منذ بداية ظهور الإسلام وفزعهم من غلظة الكفار وطغيانهم وشدة بطشهم، فقد كانوا مسيطرين بشكل تام على مصادر القوة في ذلك الوقت مما أدى بهم إلى التصلب والتعنت في التمسك بمعتقداتهم الخاطئة، والإصرار على الدفاع عنها ظلما وعدواناً من أجل إبادة المسلمين بدون استثناء:

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

هنالك أيضاً خوف الإنسان من السحر والسحرة وهو الأمر الذي لا يزال

يحتفظ بتأثيره إلى وقتنا الحاضر ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

وما من شك في أن المواقف العصيبة تؤدي إلى الشعور بالخوف والحزن والحيرة التي لا يعرف الإنسان كيف يتصرف حيالها، مثلما حدث للوط: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٣]، كما يخاف الإنسان ويفزع من شدة الموقف، فإن عامل المفاجأة والمباغتة يؤدي بدوره إلى الخوف مثلما حدث لداود عندما دخل عليه الخصمان ليلاً في غير الوقت المعتاد بين الناس ودون طرق الباب ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٢].

الخوف من المجهول أو غير المعلوم:

الإنسان عرف عنه الخوف بشكل عام من المجهول ومحاولة تفادي الأمور غير المألوفة. لذا نجده يقف على بعد أو يجعل بينه وبين الشيء غير المألوف مسافة مناسبة ليوفر لنفسه حداً أدنى من الشعور بالطمأنينة.

في هذه الآية نرى خوف يعقوب عليه السلام على ابنه يوسف ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣].

وهذه آية كريمة تصف حال موسى عليه السلام ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨].

كما نرى الخوف من المجهول في صورة العرب ووأدهم للبنات وخوفهم من منع المشركين من دخول البيت الحرام، ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]، ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

التصوير القرآني لردود أفعال الخوف:

تناول القرآن الكريم المظاهر الفسيولوجية للخوف في وقت كان الإنسان ما يزال فيه أسير بدائيته، وحتى بعدما بلغ الإنسان قمة التفوق العلمي فإنه لم يتوصل إلى ربط المظاهر الفسيولوجية الراجعة إلى حالة الشعور بالخوف بالتغيرات الحيوية التي تحدث داخل الجسم إلا في أربعينيات هذا القرن بعدما تقدمت الدراسات الخاصة بعمل أجزاء المخ المختلفة وتأثير ذلك على السلوك.

وسوف نتناول هنا ظاهرة نفسية تناولها العلماء بالدراسة مؤخراً وأسموها (عصاب الحرب).

حيث تعتري الإنسان بعض الأعراض العصابية بسبب شدة الخوف من الحرب وأهوالها، وما يعانيه المحارب من صراعات مختلفة، ويتسم الموقف الأول بالخوف والفزع لدرجة تصيب الإنسان بما يشبه الشلل الحركي من جمود وسكون قريب من سكون الموت، بينما يعبر الموقف الثاني عن صورة أشد وقعاً على النفس حيث يكاد القلب يقفز عن موضعه بسبب سرعة النبض وزيادة تدفق الدم من وإلى القلب استعداداً للموقف.

وفي وصف هذه المواقف نزلت آيات كريمة معجزة حقاً وبها أروع تصوير لمواقف الإنسان في مثل تلك الحالات قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ﴾ [الأحزاب: ١٩]، ﴿فَإِذَآ

أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [محمد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠].

كما يتناول القرآن الكريم بالوصف الرائع آثار الهرمونات التي يزداد إفرازها عند الخوف فتصيب الإنسان بالقشعريرة في جلده من رهبة الموقف وخشية الخالق والخوف من عقابه ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وكذلك يكون حال الخائف يوم القيامة حيث يواجه العباد ربهم فيأخذهم الخوف من عقاب الله وما ينتظرونه من مصير، فيسرع نبضهم ويزداد معدل تنفسهم حتى لتكاد قلوبهم أن تقفز من صدورهم: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]. صدق الله العظيم

وما أعظم هذا القرآن الكريم بمعجزاته المتجددة على مر العصور والأزمان.

الموقف من النزوع للعدوان في النفس الإنسانية

النزوع للعدوان من الظواهر النفسية التي تنمو معنا وتصاحب نمونا الانفعالي في رحلة العمر، وتعمل هذه الظاهرة على حفز أنظمة دفاعاتنا النفسية للتغلب على الصراع الذي يدور بداخلنا ومواجهته كما تعمل أيضاً على المحافظة على مفهوم الذات لدينا خلال مراحل حياتنا المختلفة.

ويرى بعض العلماء بأن النزوع إلى العدوان هو من الشرور التي تأصلت لدى الإنسان، ويقول هؤلاء العلماء إنه سلوك مكتسب يرجع في نشأته إلى بداية التاريخ يوم كان الإنسان وحيداً في مواجهة قوى الطبيعة والتي تمثلت في نقص المواد الغذائية، أو الصقيع، أو بطش الحيوانات الضارية.

وأشار آخرون إلى وجود قوى نفسية تجري في داخلنا باستمرار وتنبع من رغباتنا اللاشعورية، وأنه عندما يعترض طريقها حائل يعوق استمرار تدفقها أو يعرضها للتوقف أو النقصان فإن ذلك يؤدي إلى حدوث الصراع النفسي وتحويل القوى المتراكمة إلى نزوعها للعدوان يظهر في شكل ميل إلى الضعف واستخدام القوة مع توجيه الطاقة الغضبية ضد النفس أو ضد الآخرين وباختصار فإن النزوع للعدوان هو من القوى الموجودة بداخلينا، وأنه يصبح في حالة تحفز واستعداد للانطلاق عندما يتعرض صاحبه لبعض المنبهات المثيرة كالشعور بالتهديد أو الظلم، على سبيل المثال.

ويبدو أن لدى الإنسان على حد قول بعضهم، مخزون هائل من الكراهية يعمل كمصدر للعنف بيديه من حين لآخر تجاه نفسه أو تجاه الآخرين.

وهناك آراء أخرى تقول بأن النزوع للعدوان هو ظاهرة طبيعية وأنه مجرد رد فعل طبيعي ينتج من جراء مواجهة الشخص لبعض المواقف الحياتية التي يشعر فيها

بالتهديد، كما يعتبر إحدى وسائل التخلص من بعض الغرائز المختزنة داخل الشخص.

ويختلف النزوع للعدوان لدى الإنسان حسب نوعه ودرجته، فهناك الشخص القلق الذي لا يقدر على إيجاد حل لمشاكله، ولهذا فهو يكبت نزعته العدوانية جزئياً مع الاستمرار في الشكوى وإظهار القلق، وهناك من يسقط شعوره بالنزعة العدوانية على الآخرين. فيرى فيهم معتدين وأشرار ومتسلطين، كما أن هناك من يعكس شعوره المكبوت بالنزعة العدوانية على نفسه فنجده متضايقاً من نفسه متبرماً من الحياة ولا يعرف أسباب ضيقه وضجره وسأمه، وهو ما يسمى بالنزعة العدوانية السلبية.

وعلى الرغم من صدق ما قاله العلماء إلاّ أن الحقيقة التي يجب توضيحها هي أن القرآن الكريم قد سبق جميع هؤلاء في وصف النزعة العدوانية ودوافعها وآثاره في وقت لم تكن البشرية قد اهتمت بها بعد، وأنه قد سبق مولد علم النفس الحديث بأزمنة بعيدة، وفيما يلي نستعرض مظاهر النزوع للعدوان كما وصفها القرار الكريم، من المعلوم أن النزوع للعدوان يعود في أصله إلى غريزة المقاتلة لدى الإنسان والحيوان على السواء. وهي جزء من مكوناتنا الحيوية والنفسية، وتتحفز النزعة العدوانية لدينا للعمل عندما نفشل في الشعور بإرضاء حاجاتنا أو في حالة إحساسنا بالصراع، ويؤكد القرآن الكريم على وجود هذه الدوافع فينا:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه: ٩٦]، ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧- ٨]، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وقد بين لنا المولى سبحانه وتعالى أن النفس مزودة بدوافع الخير والشر، كما

وضح ما يجب على النفس أن تعمل أو تدع من خير وشر، وطاعة ومعصية ونزوع للعدوان أو كف عن الأذى.

﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦]، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

ويرى القرآن الكريم بأن على الإنسان أن يواجه نوازعه ودوافعه فيعمل على تقوية دافع الخير وعلى ترويض نوازع الشر والسيطرة عليها عن طريق عمليات التوافق الاجتماعي حتى تكتمل له مظاهر الصحة النفسية ويتمتع بالشخصية المتوازنة: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣].

بعض أسباب النزوع للعدوان:

١- الأنانية وحب الذات:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ – ٣٠].

في الموقف السابق نرى أن المعتدي يشعر في البداية بالتهديد النفسي مادياً كان أو معنوياً فيصاب بالقلق والصراع والاحباط، ومن ثم ينزع للعدوان في محاولة

يائسة للمحافظة على ما يراه حقاً وللدفاع عن قيمه ومفاهيمه حسب ما يراه من وجهة نظره بدافع الأنانية وحب الذات ومن أجل المحافظة على مكانة اجتماعية يتهددها الخطر.

٢- الفخر الكاذب والاستعلاء:

ويقص القرآن الكريم أمثلة وقصصاً متعددة لما ينتج عن الاستعلاء حيث ينظر المعتدي إلى المتعدى عليه نظرة استصغار فإذا ما شعر بتزعزع مكانته سارعت نواياه العدوانية بالظهور مثل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦١- ٦٢].

وفي مشهد آخر نرى قوم نوح قد استعلوا فعموا عن رؤية الحق ولجؤوا إلى العدوان ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٣ - ٢٥].

٣- عدم الاستبصار:

وقد تظهر النزعة العدوانية بسبب عدم الاستبصار حين يرى الإنسان نفسه وكأنه مركز العالم أو الوجود وأن كل شيء تابع له أو وجد من أجله ومسخر لخدمته ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وتدل الآيات السابقة كيف أن فرعون طغى فشعر

أن بيده الأمر والنهي، ونسي أنه مخلوق وضيع وأن أمره بيد الله وحده، فأقدم على تحدي الخالق سبحانه وتعالى ويتكرر نفس المشهد ونفس المشاعر العدوانية المصاحبة له مثل: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [العنكبوت: ٢٤]، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ ٱقْتُلُوٓاْ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُواْ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٢٥].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]، ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

٤- مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية السائدة:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١]، ولم يقتصر الانقياد الأعمى للعادات الجاهلية والمعتقدات الفاسدة إلى قتل الأنبياء والمصلحين فقط، ولكنهم عملوا على توجيه نزوعهم العدواني تجاه أبنائهم أيضاً فقتلوهم مسايرة للسلوك الشائع بينهم.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

التصوير القرآني للاضطرابات الجسمية
المصاحبة لبعض المواقف النفسية

يشير القرآن الكريم إلى العلاقة القائمة بين النفس والجسم، وكيف تؤدي بعض المواقف النفسية الصعبة إلى ظهور أعراض جسمية يمكن الاستدلال منها على وجود اضطرابات داخلية غير منظورة. وقد أدرك علماء النفس العلاجي هذه الحقيقة منذ زمن غير بعيد فأشاروا إلى ضرورة أن يعمل المعالج النفسي على استخدام حواسه للتعرف على ما يدور بداخل الإنسان المراجع لهم وملاحظة حركاته وسكناته، فتشابك الأيدي أو تقاطعها على الصدر قد يعني مقاومة المراجع لاقتراب المعالج منه وعدم رغبته في كشف ما بداخله، كما أن ضم الأرجل، أو اهتزازها قد يفصح عن وجود صراع داخلي لم يتم حله بعد. أما علامات الوجه فقد تنبئ بمدى جدية المراجع في الرغبة بتلقي المساعدة لمساعدة نفسه على التخلص من اضطرابه أو مدى ثقته في المعالج أو استخفافه بما يتوقع حدوثه من تقدم. ويشير القرآن الكريم لمثل هذه الأمور بشكل واضح.

قال تعالى:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠].

الأعراض الجسمية للخوف:

تؤدي شدة الخوف إلى الوقوف موقف الحيرة والارتباك مما يضطر الإنسان إلى أن يشخص ببصره ويديم النظر دون أن تطرف له عين لما في قلبه من الهول والفزع.

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

وتؤدي المخاوف أحياناً إلى التأثير على أجهزة الكلام بشكل أو بآخر، ونرى فيما يلي صورة للمظاهر الجسمية المرتبطة بالخوف مثل الشعور بضيق الصدر وبطء حركة اللسان:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٢ – ١٤].

وقد يحول الله بين المرء والهدى بسبب عناده أو مكابرته فتتعطل حواسه عن العمل بشكل يؤدي إلى عدم إدراكه للأمور بوعي كامل وحسن ناضج.

ويؤدي ذلك إلى انقلاب المعايير لديه ووقوعه في الخطأ من حيث أراد أن يصيب: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧].

كذلك تعرض القرآن الكريم لوصف ما قد يصيب الإنسان من اضطرابات عقلية عُرضت في الماضي وما زالت تعرف عند سواد الناس باسم الجنون، وقد وردت في القرآن الكريم بهذا الاسم. وقد وجد علماء العصر الحديث أن معظم حالات الجنون (الذهان) هي حالات فصامية وتقع من فئة الفصام العقلي وهو ما لا يختلف عن اتجاه القرآن الكريم إلى الاشارة إلى فئات الاضطراب العقلي بشكل عام وتسميتها بالجنون ومن أعراض الجنون:

أ- ادعاء العظمة:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ

ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٣- ٢٥].

ويخبرنا المولى سبحانه في هذه الآية عن اتهام نوح بالجنون زعماً من الكفار بأنه يريد أن يترفع عليهم وهو نوع من جنون العظمة حيث يتجه الفرد إلى إضفاء طابع الأهمية على نفسه وادعاء العظمة.

ب- الانفصال عن الواقع:

وفي هذه الحالة يكون السلوك العملي أو اللفظي أو الحركي بعيداً عن الواقعية، وهذا ما جعل المشركين يرمون الرسول الأعظم ﷺ بتهمة الجنون زاعمين أن ما أتى به هو وهم وخيال بسبب انفصاله عن الواقع لمرضه.

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال سبحانه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٣ – ٢٧].

ج- اضطراب التفكير:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٧- ٨].

حيث يعتبر الكافرون ما أخبرهم به الرسول ﷺ نوعاً من اضطراب التفكير لإنكارهم قيام الساعة ويوم البعث وخروج الناس من قبورهم، كما يسوق الكفار صورة أخرى لاضطراب التفكير حسب ظنهم، وذلك بادعائهم احتراف الرسول ﷺ للكهانة وبأنه كان على صلة بالجن، وهي من الأمور التي نزه المولى سبحانه رسوله عنها.

د- التخيلات والهلاوس:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥- ٣٦].

وقد كان الكفار يتعالون عن قول لا إله إلا الله ويستكبرون أن يقولوها، كما كانوا يرفضون ترك عبادة الأوثان، ولذا اتجهوا إلى نعت الرسول ﷺ بالشاعر والمجنون، ويقوم الربط هنا بين الشعر والجنون على أساس القدرة على التخيل ورسم الصورة الشعرية التي لا ترد عادة على أذهان عامة الناس، وتشبه الهلوسة في طبيعتها.

ويأتي الرد الإلهي على الكفار بأن ما رآه الرسول كان حقاً ولم تكن رؤياه من قبيل التخيل أو الهلوسة أو الجنون، وهي الرؤيا الأولى التي سبقت الإسراء ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ١٩- ٢٤].

هذه المعجزة القرآنية في وصف الاضطرابات الجسمية المصاحبة لبعض المواقف من منا لم يمر بها ويعشها في حياته، كم هم أولئك الذين تجمدوا في أماكنهم لا يملكون حراكاً في مواقف الخوف، ومن الذي لم يمر بمواقف جعلته يتلعثم في كلامه أو يتصبب عرقاً وعيناه تدور في محاجرها كالذي يغشى عليه من الموت.

إنها معجزات قرآنية نعيشها كل يوم وتعيش مع الأجيال جيلاً بعد آخر، إنه تصوير رائع للنفس البشرية في مواقف مختلفة لا يمكن أن تصدر إلا عن وحي يوحى. وإنه الإعجاز القرآني المتجدد دائماً والذي لا ينكره إلا من عمي قلبه قبل بصره ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

صدق الله العظيم

كيف صور القرآن الكريم نفسية الإنسان الكافر

أفعال الإنسان وسلوكياته وتصرفاته في المواقف المختلفة التي يمر بها في حياته إنما تصدر عن نفسية الإنسان التي يحتضنها جسده فإذا كانت أجساد بني البشر متشابهة إلى حد كبير في تكوينها، إلا أن النفسيات مختلفة تتقارب أحياناً وتتباعد أخرى، فنفسية الإنسان وما يصدر عنها هي التي تشعره بذاته وبتميزه عن بقية عباد الله، إنها تكون مجموع السمات التي تتيح للإنسان أو الفرد أن يسلك إزاء الآخرين سلوكاً موسوماً بطابعه ومميزاً لشخصه. وإن كان ما يصدر عن النفس البشرية من تصرفات وسلوكيات قابل للتغيير والانتقال من حال إلى آخر حسب الظروف ومجريات الزمان وطبيعة المكان وأشياء أخرى.

لذلك فإن القول بأن هدف البحوث النفسية هو: تحديد قوانين تتعلق بما سوف يفعله الأفراد المختلفون في جميع أنواع المواقف الاجتماعية، والبيئية العامة إنما هو قول تنقصه الدقة، فالإنسان ليس آلة تتحرك وفق ما بُرمجت عليه. فالإنسان عاجز عن الوصول إلى المعرفة الكاملة بنفسه، فهنالك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية تبقى الكثير من الأسئلة حول النفس البشرية بلا جواب لأنها ما زالت غير معروفة.

لذلك كله وغيره نجد أن القرآن جاء حافلاً، ليس فقط بالآيات التي تحث على تقليب النظر في ملكوت السموات والأرض، بل جاء بالآيات التي تحثهم على النظر في أحوال البشر من حيث هم أغنياء وفقراء، منتصرين ومهزومين، أصحاء ومرضى أقوياء وضعفاء، مؤمنون وكافرون وإلى آخر ما يتعرض له الإنسان في حياته الدنيا، وأمرهم باكتشاف السنن العليا التي تحكم حركة الإنسان والكون حتى يختصروا الجهد والوقت، وليجنبوا أنفسهم التصادم معها.

والقرآن الكريم لم يتناول الجوانب المثالية والرفيعة بالتحليل وإيضاح المواقف فحسب، بل سعى إلى الإشارة إلى الجوانب السلبية والمظلمة التي تنشأ في الإطار الواقعي للحياة، وتفرض نفسها على أرباب الرأي، وقادة المجتمع وأفراده على حد سواء؛ فالقرآن الكريم يهدف لأن يوقظ لدى الإنسان وعياً أرقى، وأسمى بصلاته وعلاقاته الرئيسة فقد ضم رؤية ربانية للوجود والحياة والإنسان صيغت بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، لتكون قريبة من أصحاب الأذواق المختلفة والمشارب المتباينة من البشر في كل زمان وكل مكان.

قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

والإسلام يرى أن الإنسان مخلوق من قطبين متناقضين، الأول: الطين، والآخر: روح الله وهذا هو سر عظمة الإنسان، فهو كائن ذو بعدين، ومن ثم وبفضل إرادته يتمكن من أن يتجه إلى بعده الأرضي، ويُشدّ إلى قطب التراب والترسب، أو ينطلق في بعده السماوي، ويصعد في قطب السمو الإلهي والروح الإلهية، ويبدأ الصراع والتجاذب بين هذين القطبين داخل الإنسان حتى يختار أحدهما ويتقرر مصيره.

والإنسان الذي يستطيع أن يوفق بين الجانبين المادي والروحي في شخصيته، وأن يحقق بينهما أكبر قدر مستطاع من التناسق والتوازن فقد نجح في هذا الاختبار واستحق أن يثاب على ذلك بالسعادة في الدنيا والآخرة.

وهكذا فالإنسان في نظر الإسلام كائن لا هو بالملاك ولا الشيطان، وإن كان قادراً في بعض درجات الهبوط أن يصل إلى درجة الشيطان من الشر، وفي بعض حالات الارتفاع أن يسمو بروحه إلى مستوى الملائكة من الطهر، ولكنه في حالته الطبيعية شيء من هذا وذاك، مشتمل على الخير كما هو مشتمل على الشر، وليس

أي العنصرين غريباً عن طبيعته، ولا مفروضة عليه من خارج نفسه وكنا في فصل سابق من الكتاب قد أوضحنا ميزات النفس المطمئنة وما يمتاز به صاحبها.

والآن نلقي الضوء على جوانب من طبيعة النفس الكافرة المنحرفة وما يتصف به صاحبها وما تجره عليه من ويلات في الدنيا والآخرة. وهذه النفس المنحرفة لها صفات خاصة بها صورها القرآن الكريم فأحسن تصويرها.

ومن هذه الصفات وأبرزها:

الجهل:

والجهل ضد العلم، والجهل على ثلاثة أضرب:

الأول: هو خلو النفس من العلم والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه، والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل.

أو الجهل: ضعف العقل، وقبوله ما يلقى إليه من أفكار بالحلة، إذ العقل نور في الروح الإنساني يعين لها مصيرها في الحياة، فالعقل مصباح منير، يشع بأنواره على صفحات هذه الحياة المظلمة وبواسطته يتقدم الإنسان في دروب الخير أو الشر في هذه الحياة.

ومن النماذج البارزة للأحكام الجاهلة:

اتباع الظن قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ [يونس: ٣٦] فالإنسان كثيراً ما يقع أسيراً لظنونه وتخيلاته وأوهامه، إرضاء لدوافعه واستجابة لضغوطه وبخاصة في حالات الانفعالات الشديدة كالحزن والغضب، أو اليأس والخوف، مما يجعل قراراته غير صائبة وأفكاره غير حكيمة.

وقد وصف القرآن الكريم هؤلاء الكافرين بأنهم من الجاهلين، يتبعون الظن ويتعاملون معه كالتعامل مع العلم، قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا

يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦]، ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ [النساء: ١٥٧].

وأكثر ما يؤثر الظن في مسيرة حياة الإنسان إنما نجده في نظره نحو العالم وصانعه، والغرض من إيجاده، وما ينتهي إليه أمره من البعث والنشور، وما يتعلق به من النبوة والكتاب. فالإنسان في هذا المجال كثيراً ما تنطلق أحكامه من الحدس والتقدير، والحدس والظن لا ينتهيان إلا إلى الضلال في الغالب. فالبناء على الظن إنما هو بناء على أساس واهٍ.

ومن علامات الجهل: النفي والاثبات دون دليل فالجاهلون يصدقون أو ينكرون، من غير اعتماد على دليل أو برهان. وهو ما يفعله أولئك الذين يجادلون في الخلق ويخاصمون النبؤات والرسالات السماوية.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

والارتباط بين اليقين وبين البراهين ارتباط أبدي قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ [الأنعام: ١١٩]، ويقول جل شأنه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فالآية تنهي عن اتباع ما لا علم به.

ومن صفات الجاهل: السطحية والتي تعني عدم القدرة على استخدام مستويات التفكير، المجرد من عمليات التحليل والمقارنة والاستنتاج وغيرها من العمليات العقلية للتوصل إلى حقائق الكون والتمييز بين مصادر الخير والشر. فامتلاك أدوات الحس والفكر لا يصلان بالإنسان في كل الأحوال إلى صنع القرار

السليم، أو القيام بالاختيار المناسب.

ومن صفات الجاهل كذلك: السطحية.

حيث أعطى الخالق للإنسان السمع والبصر والعقل ليهتدي بها، لكنها عند الإنسان الجاهل كأنها معطلة، لا تؤدي حقيقة وظيفتها. لذلك نجد القرآن الكريم وفي أكثر من موضع يصف هذا الحال عند الإنسان كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢]، وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٣]. فكأنه ينظر ولكن لا يرى. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ [الكهف: ١٠١]، وقد استعير لفظ الغطاء هنا للدلالة على الجهالة.

وهكذا فالقرار السليم الصحيح، يستدعي توصل الإنسان إلى حسن استخدام ما أنعم الله به عليه. والأعداد الغفيرة التي تعاني من المشاكل النفسية هم غالباً من الفئة التي حُرمت من استخدام هذه النعم بشكل صحيح. فتظل تنظر وكأنها لا ترى. وتسمع ولكنها لا تعي.

ومن الصفات البارزة لنفسية الإنسان الكافرة الجدال: ويعني الشدة في الخصومة، وهو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة وأصله من جدلت الحبل، أي أحكمت فتله، وجدلت البناء، أي أحكمته. فكأن المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه. وقيل الأصل في الجدال الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة وهي الأرض الصلبة، ضربه فجدله، إذا ألقاه على الأرض.

ولم يرد لفظ الجدال أو الجدل أو المجادلة في القرآن الكريم أو ما كان مشتقاً منه إلا في مطرح الذم، ومعرض القدح والتعريض والتهجين سوى أماكن متفرقة يغلب على أسلوبها اللين والهدوء والمحاورة، التي تمتلك وسيلة الإقناع وقوة الحجة والبيان. كقوله تعالى: ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿۞ وَلَا

﴿تُجَادِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦] وقوله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ [المجادلة: ١].

أما الجدال المذموم فهو أنواع أولها:

جدال المكابر: ويبدو هذا في مناقشات الإنسان وجدله من أجل ثباته على رأيه حتى لو ثبت بطلانه قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٤].

ومثل هؤلاء يزدادون عناداً كلما سيقت إليهم أدلة جديدة وبراهين دامغة.

وكأن الجدال عندهم شجار أو عراك، السلاح فيه هو الكلام والحجة، غايته قهر الخصم وألزمه أولاً، ثم إظهار الحجة ثانياً.

ومن أمثلة الجدال لصاحب النفسية الكافرة الجدال في القرآن قال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر: ٥] حيث تأخذ المجادلة هنا معنى المكابرة في وجه الحق لدفعه لا للدفاع عنه، وللانصراف عنه إلى الباطل تمرداً واستكباراً، إذ حصر السبب الموجب لمجادلتهم (في الكبر) أي ليس غايتهم في ذلك طلب الحق قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [الحج: ٨].

وهذه صورة من سيطرت عليهم دوافعهم، فقادتهم إلى الدعوة للانحراف، دون أن يعملوا عقولهم.

ومن صفات تلك النفسية: الغفلة.

وهؤلاء هم الذين يرون الآيات الكونية ولا تحرك فيهم قلباً يتدبر، ولا عقلاً يتفكر، إنما تتعلق قلوبهم بالحياة الدنيا المحدودة، وتسكن نفوسهم إليها وتفرح بها.

وعن هؤلاء يقول الخالق سبحانه: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

كذلك فإن من صفات نفسية الإنسان الكافر الحسد والجبن: ومن المعروف أن الحسد يعني تمني زوال النعمة عن الإنسان المحسود وربما كان ذلك مع سعي لإزالتها وقد قيل (المؤمن يضبط والكافر يحسد) والحسد مرض خبيث من أمراض النفوس، يغري صاحبه بغمط الحق وإنكاره والجحود به، مهما كان مؤيداً بالحجج والبراهين، والحسد مصدر رهيب من مصادر تعاسة الكثيرين من الناس. فالحسود لا يستطيع أن يرى أحداً في كنف الرفاهية، فإذا رأى غيره أفضل منه امتلأ قلبه بالغيرة وأحس بثقل وضغط شديدين ناشئين عن نظره المتشائم إلى نعم الآخرين، فهو معذب النفس متضاعف الهم، وبالتالي فلا غرابة أو تنحو لدى الحاسد الروح العدوانية وتجعل هدفه دائماً الغلبة على خصمه أو من يتصوره كذلك فهدف الحسود الأول هو السعي لإزالة النعمة عن الآخرين وبشتى العناوين والحيل.

ومن وسائل الحسود لتحقيق أهدافه إشاعة التهم والأكاذيب عن المحسودين، وإذا لم ينجح في ذلك يلجأ إلى أساليب أخرى أشد فظاعة كالتجاوز على حريات المحسودين، وحتى على أرواحهم.

أما الجبن فإنه من أعظم نقائص النفس البشرية فالجبن حذر مفرط وتردد وأحجام، لذلك فإننا نجد الجبناء في الصفوف الأخيرة في المجتمع، سلبيين خاسرين، وقل أن نجد جباناً ربح معركة أو بنى مجداً، أو عاد إلى مجتمعة بخير. فالجبن ضعف القلب عما يحق أن يقوى عليه، وهو غير الخوف، لأن الخوف يعد من الغرائز الأساسية عند الإنسان.

ولعل أهم أسباب تمكن الجبن في نفوس البعض الأوهام وهو من دلائل ضعف الإيمان فالجبان يتوهم التعاسة والشقاء والألم قبل وقوعه مع ضعف أو عدم

وجود القناعة الخاصة التي تهوّن المخاوف المرتقبة. فهو نوع من مرض نفسي، مؤلم ومعذب يوهن الذهن ويضعف الفكر، مع برود الانفعال الغضبي، وضعف انفعال التنافس والتحدي وكم رأينا من أزمات الخوف الشديد التي أصبحت سبباً للموت المفاجئ.

ومن أسباب تمكن الجبن في النفوس: الحرص على الحياة.

فكلما كان الإنسان أشد حرصاً على الحياة كان أشد جبناً وضعفاً وخوراً، ومن صور هذا الجبن خوف الإنسان على نفسه من العلل والجراحات والآلام التي تصيبه إذا غامر في المواقف التي تتطلب الشجاعة، ومن هذا أيضاً خوف الإنسان على أهله وأولاده من بعده أما أبشع أنواع الجبن فهو استحذاء الجبان أمام ذوي السلطة، أو أمام صاحب شخصية قوية لها تأثير على نفوس الآخرين.

فعندئذٍ تتعطل الملكات الفكرية والإرادية فيكون الجبان إمعة وتابعاً لمن استطاع أن ينفذ تأثيره عليه. وهو في هذا الحال يفقد احترام أقرب المقربين إليه من إخوة وزوجة وأبناء فما بالك مع الآخرين.

نفسية الإنسان الكافر تتصف أيضاً بالكبر:

وهو احتقار المرء لغيره وازدراؤه له. قال الرسول ﷺ "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر" والكبر الحالة التي يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره، وأعظم الكبر، التكبر على الله، بالامتناع عن قبول الحق، والإذعان له بالعبادة.

أما الكبرياء: فهو الترفع عن الانقياد، وذلك لا يستحقه غير الله قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧].

ويتصف الإنسان بالكبر لأسباب منها: عندما يصاب الإنسان بمرض الإحساس بالدونية والصغار، فهو نوع من محاولته سد الفراغ الذي يحس به المتكبر

في باطنه، من عقدة الحقارة.

أما السبب الآخر فهو حسن اعتقاد الإنسان بنفسه، والمغرور يسعى جاهداً لتنمية هذه الفكرة، فهو لذلك يحب حضور المتملقين.

ويبرأ من حضور أصحاب السلوك السوي والسيرة الحسنة الصالحة، والذين يرونه كما هو عليه والمغرور المتكبر حسود بالضرورة، وأبغض الناس إليه من يُحمدون كثيراً لفضلهم.

ومن صفات النفسية الكافرة: العناد

والعنيد: هو المعجب بما عنده وهو الذي يخالف ويرد الحق وهو يعرفه. هذا ويجب التفريق بين الحزم والعناد وهو الأمر الذي كثيراً ما يلتبس على الناس، إذ قد ينسب العناد لقوة الشخصية، وصلابة الإرادة، ولكن الأمر ليس كذلك فالعناد نوع من الصلف ولا يعني قوة الشخصية كما يتوهم البعض. فالعناد الذي هو عيب من عيوب الطبع، والذي هو نوع من الصلف، والذي يؤدي بصاحبه إلى المعارضة من أجل المعارضة ليس إلاّ إذا استحكم بالنفس، جعلها تصل إلى مستوى متدن في الحكم على الأشياء. وأبرز أنواع العناد هو الذي مارسه أولئك الذين كفروا بالرسل وما أنزل إليهم من الخالق سبحانه قال تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

فالكفار المعاندون مصرون على ما يرون لا ينفع معهم انذار، وذلك بسبب عدم انتفاعهم بما وهبهم الله من وسائل العلم، فلهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها، وأذان لا يسمعون بها. وأمثال هؤلاء المعاندون نجد لهم قصصاً مع سيدنا إبراهيم وسيدنا محمد عليهم الصلاة والسلام وكذلك مع بقية الأنبياء والرسل لاسيما سيدنا موسى وقصته المعروفة مع فرعون.

ولعل أبرز سمات النفسية الكافرة هو أنها أسيرة الهوى والشهوة:

ومن المعروف أن الهدف الأول للرسالات السماوية هو تشكيل الشخصية المتكاملة عند الإنسان، لذلك فقد عملت على ضغط الشهوات الحيوانية فيه وتحديدها وتهذيبها بتقوية إرادة الإنسان وتحويله إلى موجود يتحكم في أهوائه وشهواته.

لذلك فإن كل فعل ينحدر بالإنسان نحو البهيمية يدفع به في الوقت نفسه إلى الابتعاد عن خط الرسالات السماوية. لذلك فليس غريباً أن القرآن الكريم يشير في مواضع عديدة إلى أن المعرضين عن الإسلام، ما فعلوا ذلك عن علم ولا قناعات، ولكن اتباعاً للهوى وخضوعاً للشهوات والميول الذاتية والتي لا تقوم على منطق أو برهان. وفي كل تاريخ الأمم نجد أن الجري وراء الشهوات، واتباع الهوى من أكبر العقبات في وجه الرسالات الإلهية، والشهوات بمختلف أنواعها هي التي دفعت المعارضين لمعارضة الأنبياء والصد عن سبيل الله. فالتعاليم السماوية كلها لا تدعو إلا إلى الفضيلة والصدق والاستقامة وكبح الشهوات لا لمنعها ولكن لتنظيمها، وكانت الأهواء دوماً هي الدافع لحكام الظلم والجور، أن ينزلوا نقمتهم بالفئة المؤمنة، ويعاملوا الصالحين الذين لا يطيقون الجور والفساد بالظلم والقسوة والشدة لأنهم يرون في أمثال هؤلاء خطراً على انغماسهم في الظلم والرذائل.

هذا ويجب التنبيه هنا إلى أن ما تسعى النفس إليه وتشتهيه ليس محصوراً في المتع العقلية كحب المديح والتكريم، والمبالغات في التعظيم، ولا ؟؟ من ذلك سوى من ملأ قلبه الإيمان الصادق.

فالإسلام يذكر الإنسان بأن إشباع النفس بشهواتها يجعل الروح تتلفع بالغيوم السوداء وتختفي نورانيتها.

والقرآن الكريم يحدثنا عن رضوخ المشركين لأهوائهم وكذلك المسلمين الذين

يحيدون عن بعض ما رسم لهم الخالق في حياتهم قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وفي هذا تقرير قاعدة ثابتة، وهي أن العلم لا يؤدي إلى الهداية، لاسيما إذا سيطر الهوى عليه. إذ الهوى يحول بين الحق والفطرة، إنه ينشر الغبش ويحجب الرؤية ويعمي المسالك ويخفي الدروب.

والأسرى في قيد الشهوات يرجحون أمالهم وأمانيهم ومنافعهم الشخصية على العمل بالوظائف والتكاليف، وهذا هو منشأ سقوطهم وانحطاطهم وترديهم، فالشهوات أفات ومصائد للشيطان.

هذا وقد ينمو سلطان الهوى ويهيمن على إرادة الإنسان ويتخذه بمثابة الإله، فالمرء ليس عقلاً فقط، بل له مع العقل شهوات يدعوه هواه إلى إجابتها وهي تتغلب على العقل دائماً في النفسية الكافرة، فهي لذائذ محببة لا يمكن أن يقاومها إلا الإنسان المؤمن الذي يتغلب على الهوى والشهوات.

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢].

ومن سمات وصفات النفسية الكافرة: الانقياد فالدوافع كثيراً ما تعمل كمحرك داخلي للسلوك، وسواء أكان ذلك بشكل شعوري أو لا شعوري، وعندما يبدأ الدافع بالعمل بقوة فإنه يسيطر على الإنسان ويجعله مندفعاً في سلوكه بشكل لا يترك للفرد الحرية في توجيه سلوكه أو السيطرة عليه.

وقد تناول القرآن الكريم مجال الدوافع، ناقش كثيراً من جوانبها وبين مستوياتها وطرق عملها ومواطن الصواب والخلل فيها. فهذه امرأة العزيز، انقادت

لنفسها ذات النزوع الجنسي واستجابت لها بطريق غير مشروعة، فأنزلتها هذه النفس إلى مرتبة الحيوان الخاضع لسلوكه الغريزي ﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]. وهؤلاء أخوة يوسف يتواطئون على أخذه استجابة لدوافعهم العدوانية، وهؤلاء قوم لوط تصبح الفاحشة لديهم (سنّة قومية ودستوراً للحياة وما حدث قديماً مازال يحدث الآن ويتكرر، لأن طبيعة النفس البشرية والدوافع الإنسانية واحدة.

فأعظم انتصار تنتصره الإرادة الإنسانية هو انتصارها على أهواء النفس وشهواتها، ووساوس الشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١] وهؤلاء الذين يغلبون الهوى ويتبعون ما يقود إليه هم عبيد الدنيا وهي صفة أخرى من صفات النفس الكافرة، والتي منها أيضاً صفة الطغيان.

والطغيان يعني تجاوز الحد في العصيان، والطاغية من مارس سلطة مطلقة دون حق شرعي، وكل شيء جاوز الحد فقد طغى.

والطاغية هو الذي يسعى لأن يتحكم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم، ويحاكمهم بهواه فإنه يعمل على تكميم أفواه العباد وإنزال مختلف أنواع المظالم بكل من يبدي اعتراضاً ونقداً لتصرفاته وأسلوبه في الحكم.

فالطغيان لا يخشى شيئاً كما يخشى يقظة الشعوب وصحوة القلوب، ولا يكره أحداً كما يكره الداعين إلى اليقظة والوعي، ومن ثم فهو يحارب الحق بالبطش ولا يسالمه أبداً، ويتجه الطغاة عادة إلى استخدام جاههم وقوتهم وسلطانهم لحماية معتقداتهم الباطلة، وهم عادة ما يسخرون ما وهب الله لهم من قوى فطرية للتأثير على الناس أفراداً وجماعات، كقوة الفصاحة اللسانية وقوة الشخصية، والمظهر

المؤثر، وقوة الاعصار وغيرها من صفات يمكن أن تجعل من الإنسان شخصاً متميزاً وتعطيه مكانة رفيعة ولكنهم يستغلون كل ذلك في اضلال السذج والبسطاء أو المنتفعين الشهوانيين، أو ينزلون الظلم والبطش بمن يرى غير رؤاهم ويمارس غير ما يرون ويريدون. ومن هؤلاء أفراد في التاريخ ادعو الربوبية ومن أمثلة هؤلاء فرعون وقصته معروفة، ثم نيرون وهتلر وموسوليني وغيرهم، فهؤلاء نصبوا أنفسهم حكاماً مطلقين لا يحق لأحد أن يرى غير ما يرون، أو يعتقد بغير ما يأذنون، حتى بلغ ببعضهم إدعاء الربوبية كما فعل فرعون موسى.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

ومن أخطر ما ينتج عن السيادة المطلقة والمهددة في الوقت ذاته هو أنها توحي لصاحبه بكراهة التجديد، لأنه يحس بالبداهة أن صاحب الجديد أولى منه بالسيادة، إن شاع ما جدده بين الناس، فتبطل سيادته ببطلان القديم الذي قامت عليه، وقيام الجديد الذي نسخه وعفاه، ولذا فإن مصلحة الفرعون وعلى مر التاريخ، أن يغمض عيون الناس على هذا الواقع وأن يحول هذا الواقع الذي يعيشه الناس في ظل فرعونيته إلى مطلق وإلى مثل أعلى لا يمكن تجاوزه الطاغية الفرعون يحاول أن يحبس كل الأمة في إطار نظرته هو، وفي إطار وجوده هو لكي لا يمكن للأمة أن تفتش عن مثل أعلى ينقلها من الحاضر إلى المستقبل.

طريق مجاهدة النفس كما رسمها القرآن الكريم

الخالق سبحانه جلت مشيئته خلق النفس الإنسانية وجعلها متقلبة في داخلها دائمة الصراع بين الخير والشر، هي النفس المطمئنة التقية السوية والتي تميل إلى الخير والصلاح والتقوى، وهي نفسها الأمارة بالسوء صاحبة الفجور والفسق والانحراف عن جادة الصوات ودروب الخير، إنها النفس الراضية القنوعة وهي ذاتها النفس المتمردة اللاهثة خلف متاع الحياة الدنيا وبريقها وما أكثرها وأقل زمانها، إذ أن عمر الإنسان مهما طال فإنه قصير ومحدود، وعلى قصره فإن طلب المتع واللهاث والجريان تجاهها تكون في أوقات محددة من هذا العمر القصير، ولكن الإنسان بطبعه يحب العاجلة ويذر الأجلة فالخالق سبحانه وعده بالنعيم المقيم والدائم في حياته الأخرى وبعد أن يفعل كل ما يرضي الله سبحانه وهداه النجدين إما شاكراً وإما كفوراً. وجعل النفس الإنسانية في جهاد دائم وصراع مستمر بين الجري وراء شهوات قريبة وفي متناول اليد في الحياة الدنيا ولكن بتحقيقها ونيلها ارتكاب المعاصي والغرق في المحرمات، وبين حياة لم يحرم الخالق سبحانه المتع المشروعة بها ولكنه أمر بأن تكون هذه المتع الدنيا ضمن ما شرع سبحانه بالتقيد بالقيم الفاضلة والأخلاق الحميدة والابتعاد عن الأنانية وحب الذات وظلم الآخرين من أجل مكاسب شخصية لا تخلو النفس الإنسانية من الميل إليها إذا تُركت هذه النفس لأهوائها ولم يعمل الإنسان على مجاهدتها. فالنفس الإنسانية لو كانت كاملة مكملة لما احتاج الإنسان أن يمارس نشاطاً أياً كان ويجاهد نفسه لكي يكسب الفضيلة فضرورة تدخلنا المؤثر لابد من ممارسته فالإنسان خلق ناقصاً ولكنه قابل لما يشبه الكمال في آن. فهو بذرة تنطوي على جميع عناصر الكائن الكامل ويتحقق ذلك بظهور عمل إرادي حر، فالإنسان مع أنه ولد محروماً من

جميع المعارف العقلية والحسية لكنه زود بملكات قادرة على أن تقدم له ما يتمنى من هذه المعارف ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨].

وحينما صاغ الخالق نفس الإنسان وسواها، استودعها فكرتي الخير والشر ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧- ٨]. هذه هي الوسائل التي تتصرف فيها كل نفس إنسانية، وبفضلها تستطيع أن تتصور مباشرة المثل الأعلى الذي تسعى إليه وأن تشعر بالرغبة في بلوغه وأن تلتزم بتحقيقه بذاتها. ولا يُنقص من ذلك أن النفس الإنسانية تظل دائماً قابلة للترقي والتردي للازدهار والذبول بتأثير إرادتها الخاصة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩- ١٠] ومن ثم تقتضي الضرورة الأخلاقية أن يعمل الإنسان وأن يتحمل مسؤوليته ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥] وجهاد النفس لا يتحدد بوساطة العمل بعامة، بل بالعمل المؤثر الفعال بخاصة الذي موضوعه "مقاومة قوة أو قهر مقاومة" وهو وإن كان تعريفاً متوافقاً مع المعنى المادي ولكنه يجب أن يتوافق أيضاً مع المعنى الأخلاقي. ففي المجال المادي يصادف الفكر غالباً في الموضوع وفي نفسه عقبتين ينبغي تخطيهما، خمود المادة التي يجب تحويلها، ونقص الهمة في الإرادة الفاعلة.

والأمر كذلك عندما يجب الامتناع عن الشر، في مواجهة القوى التي تدفعنا إليه، ففي هذه الحالات جميعاً لا يكفي أن نعمل بل يجب أن نجاهد بقوة وإصرار فلقد كان وجودنا العضوي والمادي صراعاً مستمراً ضد جميع أنواع الشرور التي نلقاها على طريق الحياة، حتى الموت، ولا يفتأ القرآن الكريم يذكرنا بهذا الظرف

الملازم للطبيعة الإنسانية، في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦] ولكن فوق هذا الجهد الطبيعي الذي تفرضه الغريزة جهداً آخر يقتضيه العقل ويجب أن يسخر لخدمة المثل الأعلى. وهذا مارسمه الخالق فالمطالبة باستخدام الطاقة الأخلاقية قد ترددت كثيراً في القرآن ففي كل موضع منه نستمع إلى دعوة لهذا الجهاد الثابت المستمر، سواء من أجل فعل الخير ومقاومة الهوى، أم لاحتمال الشرور وكظم الغضب، أم لأداء واجباتنا الدينية، والحق أن الله سبحانه لا يفرض علينا أي تكليف فوق طاقتنا ووسائلنا، ولكن ذلك لا يمنع ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن: ١٦].

والقرآن الكريم يدعو إلى أن نبذل هذا النشاط ونمده على طريق التقدم الأخلاقي الصاعد، وهي دعوة يصوغها في تعبير مجازي جميل حيث يقول: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١] ثم يبين حقيقتها ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ [البلد: ١٢- ١٧]، ولم يكتف القرآن بأن يستثير الناس إلى تحقيق هذا الاقتحام الصاعد، بل مضى إلى حد أن أدخل فكرة هذا الجهد في تحديد الإيمان الصادق نفسه.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، فهل بوسع أحد أن يضع الجهد الأخلاقي وضعاً أسمى من هذا؟

عموماً فإن النفس الإنسانية حتى وفقاً لبعض الآراء الفلسفية فإنها عاجزة عن الخضوع للقانون الأخلاقي برضاها الكامل وبدافع الحب، ولما كان الانتصار على

الشر يكلفنا دائماً تضحية ويفرض إكراهاً على ذات الإنسان، فإن الكفاح يصبح في كل مكان وزمان شرطاً في الفضيلة، والوسيلة الوحيدة لاكتساب السلوك الحسن. ورأي آخر أعلن أن الفضيلة في أي مرحلة من مراحل الحياة الأخلاقية، ليست ثمرة من ثمرات الطبيعة المحضة، كما أنها ليست نتيجة الاكتساب المطلق. ذلك أن أسوأ الناس وأكثرهم شراً، لا يخلو أن تكون في نفسه بذرة طيبة يستطيع استخدامها في صراعه ضد خلقه الخبيث، كما أن أطهر الأنفس لا تستغني مطلقاً عن بعض الجهد، كيما ترتقي في مراتب الجزاء. والناس لديهم اختلاف في نصيب كل منهم من عالم الفضيلة، كما أن الناس لا يتساوون دائماً في موضوع الكفاح ولا في الشكل الذي ينبغي أن يبدو فيه جهدهم الأخلاقي وهنا نستطيع أن نعثر على مفتاح الحل في التفرقة التي أثبتها القرآن بين نوعين من الجهد، أحدهما نستطيع أن نطلق عليه (جهد المدافعة) والآخر هو (الجهد المبدع أما جهد المدافعة فهو تلك العملية التي نضع فيها في مواجهة الميول الخبيثة التي تحثنا على الشر قوة مقاومة قادرة على دفع تأثيرها. فكلما وجدنا أنفسنا أمام قوة معادية تريد أن تتغلب فواجبنا الأول ومهمتنا العاجلة الملحة هي أن تسكت سَوْرَتها. ولقد رأينا القرآن الكريم لا يفتأ في كثير من المواضع يطالبنا بهذه المقاومة وهو يعد أولئك الذين يعرفون كيف يقهرون شهواتهم بأعظم الغايات يقول تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤- ٤١].

ولتحطيم عبودية الجوارح ولحكم من أحكام كثيرة ورد في القرآن الكريم وذكر فريضة الصوم التي أوجبها الخالق على عباده بكل ما بها من صبر وجهاد لشهوات النفس المختلفة وهي عبادة سامية تسمو بالنفس البشرية وتعمل على

تهذيبها والصوم حالة تكبت الأهواء إلى مستوى لا يكـاد يدركـه الـشعور، وتحتـل فكرة الخير في النفس مكاناً سنياً بحيث يصبح العمل الصالح موضوع حب ومتعـة. وهو حال علوية يقرب الإنسان العادي من حال كبار الصالحين.

ويكمل ذلك إنجاز فريضة الحج وما به من مشاق بدنية ومصاريف مادية يبذلها الإنسان في سبيل مرضاة الله وهو يعلم ما بها من جهد ومجاهدة للـنفس لاسـيما في الأيام الغابرة وما كان يلازمها من مـشاق الـسفر وخطورتـه. إنـه مجاهـدة للـنفس وتهذيباً لها وكل ذلك طلباً لرضى الخالق سبحانه، وحسن التعامل مع عبـاده، إنهـا عبادات تخلق في أنفسنا الإحساس بقوة نابضة تبعدنا عن الشر أو تيسر لنا الابتعـاد عنه قدر المستطاع، فإذا كان القـديس مـدفوعاً (بالحـب) والإنـسان الوسـط مؤيـداً (بالعقل) والعامي مقيداً (بـالخوف) أو منجـذباً بالرجـاء فالمنهـاج دائمـاً هـو ذاتـه بصرف النظر عن ذلك الفرق النـوعي بـين الأفكـار والمـشاعر المتفاوتـة في قـدرها وشرفها.

ولكن مهما كان الحال فإن القاعدة العامة هي ما قال القرآن الكريم ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ٥٣] ولكن المؤمن الصادق المجاهد للنفس يبقى سلطان الشر وشياطينه ضعيفاً ومؤقتاً عليه ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌۚ﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، إذن فإن أثر العمل الشيطاني على الإنسان المؤمن المجاهد هو أقل ثباتاً ودواماً من التأير الذي يمارس على عامة الناس، فهو مجرد ظلام خفيف ناشىء عن ظل سحابة عابرة لا تلبث أن تنقشع والصدمة التي يحدثها التماس الشر في أنفسهم من الضعف بحيث لا

تعادل شكة الدبوس في بناء صلب.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] هنالك من المفكرين من رأى بأن العمل الأخلاقي الذي يؤدي مع أكبر قدر من المقاومة معناه الإصرار الغريب على أن يظل الإنسان في المرحلة البدائية. أما واقع حياة الإنسان عبر تاريخه الطويل فإنه يولد لنا القناعة التامة بأن الإنسان ومهما بلغ من درجات العلم والتقدم ونال من حريات مطلقة إلا أنه يبقى دائماً بحاجة لمجاهدة النفس وفق تعاليم وقوانين وأنظمة إن لم تكن سماوية فإنها أرضية وإلا تحولت الكرة الأرضية بسكانها إلى مسرح للمصارعة بين الأقوياء والضعفاء، الأغنياء والفقراء، ذوو الأخلاق الفاضلة والحميدة، وممن لا خلاق لهم. والحياة الأخلاقية المثلى ستكون لو تكرس هذا الواقع على الأرض هي حياة الأشرار والفاسدين.

أما نموذجنا فهو ذلك الإنسان الذي لا يستطيع أن يعزم على أن يسير في الحياة بشرف إلا إذا فرض على نفسه نوعاً من العنف المؤلم، وإلا إذا أتى بعض الحركات القاسية راغماً. هذا مع أننا نرى الخالق سبحانه قد ذم أولئك الذين لا يؤدون واجبهم بمسرة ونشاط والذين ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

قد يسأل البعض هنا عن العلاقة بين الجهد الإنساني من أجل ترسيخ القيم الفاضلة والأخلاق الحميدة والأعمال الصالحة، وبين دور المشيئة والقدرة الإلهية في هداية الإنسان لمثل هذه الأعمال الفاضلة.

والحقيقة أن الأعمال الفاضلة الخيرة والتي تكتسب بالجهد بداية إنما تصبح من طبيعة الإنسان الذي قام بفعلها فالأعمال الخيرة والأخلاق الفاضلة إنما تصبح وتستمر نتيجة مقاومة متجمعة في الماضي، قليلة كانت أم كثيرة، وإن كان الأداء بعد

ذلك يتحقق دون مقاومة كبيرة. ومن المؤكد أن العمل الذي يتم في هذه الظروف يرجع الفضل فيه إلى الكفاءة الشخصية؛ والانبعاث الناشيء عن الجهد لا يناقضه بل يستشعر به أنه أصله، فهو استمرار له وتتويج باعتباره الغاية والوسيلة.

ولقد يعترض البعض على تصوير الإرادة الإنسانية وكأن فيها تلك القوة المطلقة المغيرة للكائن الأخلاقي وبصرف النظر عن القوى الأخرى التي تساعد في تغييره وبالتالي ما هو دور الفضل الإلهي في هذا التغيير؟

والآن لابد لنا من وقفة نوضح بها كيف يتمثل تدخل العامل العلوي والذي يتجلى في القرآن الكريم في هذا التغير إنه يتمثل لنا غالباً باعتباره يؤدي دوراً محدداً في تكوين الطبع الأخلاقي، فهو يأتي لتلبية جهد إنساني مستهل أو منجز، وهو يجيء على إثر هذا الجهد سواء لتغذيته ودعمه، أو لإثرائه والإفضاء به إلى نتيجته، وفي هذا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، ويقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، ويقول جل من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ۖ﴾ [يونس: ٩]، إذن هنالك شيء يأتي أولاً من جانبنا، فالإنسان كي يتلقى النور يجب أن يطلبه، وأن ينشرح له، ينبغي أن يظهر حاجته إليه، وأن يمد إليه يديه، وأن يخطو خطوات نحوه، فالمدد الإلهي مشروط إذن بجهد إنساني، وهذا الجهد مع ذلك يحتفظ بقيمته كاملة، فأما السكينة والراحة اللتان تعقبانه فإنهما لا تنقصان من أجره شيئاً.

والحق أن القرآن لا يذكر في بعض آياته هذه العلاقة على أنها بين شرط ومشروط، بل إنه أحياناً لا يشير أدنى إشارة إلى المحاولة الإنسانية، وهو حين يتحدث عن الهداية الكاملة التي يحظى بها الأصفياء، يقدمها على أنها ثمرة إنعام خالص، جاء بفضل الله مباشرة وهو ما نقرؤه في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن

يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، لأنه ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

ولو أننا أردنا أن نحكم على هذا الموقف ببعض هذه الآيات نفسها فلسوف يظهر أن هذه المنحة السماوية لم تكن إلا أجراً على موقف محسن أبداه هؤلاء الناس من قبل ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨]، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، فهناك إذن إيمان يحتاج إلى تقوية ومشاعر جديدة بالإنابة، هذا ولا يمكن الادعاء أن العمل الإنساني سابق مطلقاً، فمن البداهة أن وجودنا العضوي والنفسي والاجتماعي، سابق على وجودنا الأخلاقي، ومن ثم فإن الإمكانات الموجودة بالقوة في باطن هذا الوجود الأخلاقي تسبق النشاط الشعوري وتعد له. لا بل إننا نمضي إلى القول بأن هنالك نوعاً من المدد الإلهي الإيجابي للأنفس ذات الاستعداد الطيب، وزيادة في القوة تغنيها عن مزيد من الجهد في المقاومة ضد الاتجاهات السيئة.

ما سبق يندرج تحت باب جهد المدافعة. والآن سوف نستعرض موقف القرآن الكريم مما يمكن أن نسميه بالجهد المبدع.

وهنا ينبغي لنا ألا نكل أمر تحديد إرادتنا إلى تصاريف الطبيعة الخارجية ولا إلى حركات فطرتنا الداخلية وليس دورنا الأخلاقي أن نقف متفرجين على ما يحدث أمامنا أو في داخلنا، ولا أن ننقاد إنقياداً آلياً للحواس أو العواطف الجامحة. بل ينبغي على العكس أن نسمو فوق كل الاعتبارات الباطنة والظاهرة وأن ننظر من علٍ إلى كل الحلول الممكنة ليكون اختيارنا واضحاً جلياً، وذلك هو الجانب الذي

يختص بشخص الإنسان، كعامل حر ومستقل نسبياً، ونحن حينما نوافق على أي حل أو عمل وندمغه بطابع شخصيتنا ونتبناه حينئذ فقط نستحق أن نعتبر صانعي أعمالنا.

والقرآن الكريم فيما خلا النصوص التي تذكرنا بواجباتنا الخاصة ما زال يؤكد أهمية هذا الواجب العام الذي يضم كل الواجبات الأخرى، فهو يستثير هممنا دون تحديد مستعملاً الفعل (عَمِلَ) في حالة اللزوم، ويصوغ لذلك أوامر وعظات يكررها، فيقول ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾ [التوبة: ١٠٥]، ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَـٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

فالقدرية الاتكالية لا مكان لها في الأخلاق الإسلامية والجهد المبدع لا ينحصر في اختيار إرادي أياً كان نوعه بل في اختيار صالح، ومع ذلك فليس كل ما يستهدف خيراً هو بالضرورة صالح في ذاته، ومشروعية الغاية لا تعفي من مشروعية وسائلها، فلكي يكون الحل المتصور مقبولاً لا يكفي أن يستهدف الخير، بل يجب كذلك أن يستلهم الشرع، وأن يتطابق مع قواعده في بنائه ذاته والجهد المبدع يتمثل في أعمال لا حصر لها يمكن أن يقوم بها الإنسان المسلم، فالإنسان الذي يضحي بنفسه من أجل الدفاع عن العقيدة والوطن والعباد ومن تلقاء نفسه إنما يقوم بأكبر جهد مبدع وهو يقوم بذلك لأجل حرية وسعادة غيره ومحاربة للظلم والطغيان والاحتلال. كذلك فإن من ينفق جزءاً كبيراً من ماله في سبيل مرضاة الله ومساعدة المحتاجين وفك كربهم والإسهام في مختلف أعمال الخير رغم حب المال حباً جماً كما أخبرنا القرآن الكريم، صحيح أن الخالق فرض حقوق واضحة في أموال الأغنياء للفقراء وبين قيمتها ومقدارها ولمن تصرف، لكن الجهد المبدع يتمثل في إنفاق المزيد من الأموال غير المفروضة حتى تبلغ معظم ما يملك صاحب ذلك المال. الصوم غير المفروض تطوعاً جهد مبدع لا بل من أسمى أنواع الجهد. وكذلك الابتعاد عن الأنانية وتفضيل المصالح الشخصية وتقديم مختلف أنواع

المساعدة والنجدة للملهوف والغريق وصاحب الحريق وغير ذلك، هذه نماذج وغيرها مما نستطيع أن نطلق عليه الجهد المبدع والذي يقوم به من يقوم لا لتحقيق مصالح شخصية بل لمرضاة الله سبحانه أولاً، ثم لممارسة أخلاق فاضلة تعارفت عليها الإنسانية عبر تاريخها الطويل، ولكن من الناس من يمارسها ويندفع نحوها بكل قوة، ومنهم من لا يقوم بها فحسب بل يعمل عكسها من أعمال منافية لكل خلق كريم.

والقرآن الكريم مازال يستحث هممنا ويؤكد لنا أهمية القيام بالواجبات العامة ودون تحديد لهذه الواجبات مستعملاً الفعل (عَمِلَ) في حالة اللزوم، ويصوغ لذلك أوامر وعظات يكررها فيقول ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦]، فالقدرية الاتكالية هي العدو الأول للأخلاق الإسلامية فالقرآن يدعو المؤمنين إلى أن يبتغو في سلم الأعمال أسماها وأقواها تأثيراً وبإرادة حرة وبجهد يستنفذ منه جزءاً كبيراً من قواه وربما موارده، ولكن ذلك لا يكون إلا ضمن القدرة الإنسانية وضمن مفاهيم الواقع الإنساني وبعيداً عن المفاهيم الخيالية والأسطورية.

أما موقف القرآن في هذا فإنه يجعل فكرة الكمال ما بين الانهماك الصعب والجهد المتوسط. فهو مع تشجيعه الناس على أن يطلبوا الأفضل فإنه يزكي ويستر بلطفه أهل الصلاح الطيبين جميعاً، ضعفاء كانوا أو أقوياء.

ومن أجل هذا وجدناه بعد أن يقيس المسافة بين المجاهد الذي يبذل نفسه وماله، والخالف الذي يبقى في المؤخرة وبعد أن يعلن أفضلية المجاهد في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ﴾ [النساء: ٩٥]، ثم يستدرك قائلاً: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الحديد: ١٠]، وهذه المقارنة ذاتها، بل ونفس التقدير

بين منفقين أحدهما بادر بالإنفاق في الظروف الشاقة، على حين جاء الآخر من بعد، عندما تضاءلت المشقات كثيراً ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]، ومن هنا ينبع قانون عام ذكره النبي ﷺ في قوله "المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وفي كل خير".

ومن هنا نفهم بسهولة لماذا تتغير لهجة القرآن، فهو حين يتحدث عن موقف عُدمت فيه الطاقة كلية وسيطر عليه تراخ عظيم التفريط، يكون التحريم صريحاً، واللوم عنيفاً، فأما إذا كان الأمر أمر إهمال ضئيل، وضعف نسبي بسيط فإن الرحمة تبدو مشروعية، وملائمة.

وهذا المبدأ في التدرج الذي انطوت عليه نصوص لا تحصى، قد هدى العلماء والفقهاء المسلمين إلى ترتيب معاني الخير والشر متدرجة، بحيث أدى ذلك إلى تصعيد كل منهما في طائفتين رئيسيتين، وعلى هذا النحو فإن العمل الصالح يمكن أن يكون إما تكليفياً صارماً، وأما تفصيلياً جديراً بالاختيار، وكذلك في حالة العكس أي العمل الخبيث، إما أن يكون محرماً صراحة، وأما معيباً فقط، غير مستحب.

الجهد المبدع إذن يكون بأكمل معانيه في الاختيار الإرادي، والاختيار الصالح ثم الاختيار الأفضل وإذا كانت أغلبية المذاهب الأخلاقية تقوم على أساس مبدأ وحيد هو (الواجب) أو (الخير) فإن الأخلاق القرآنية هي أخلاق واجب وأخلاق خير في الوقت ذاته ومن هنا يتضح أن أي مخلوق مهما كان وضعه لا يمكن أن يعفى نهائياً من الكفاح، لا بل إننا نرى كيف تتفتح أفاق لا حد لها أمام الأنفس الطاهرة المخلصة كيما تبذل جهدها فحتى لو انتهت مقاومتنا ضد الأهواء المضادة للشرع، فإن علينا أن نقهر خمود المادة، وأن ننتصر على تناقل الفطرة كيما نحلق في

آفاق تزداد على مر الزمن رقياً.

ومن هنا نرى أن القداسة بدلاً من أن توضع خارج الأخلاق فإنها سوف تكون (الأخلاقية بأجلى معانيها)، وهذه هي وجهة نظر القرآن في قوله مخاطباً الرسول الكريم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

والقداسة حسب تقديرنا يمكن أن تنتظم بدرجات ولكن شريطة أن تكون جميع الدرجات داخل إطار الكمال بأوسع معاني الكلمة. وموقف القرآن واضح كل الوضوح في هذه النقطة فقد قال سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥].

وربما يُطرح هنا سؤال وهو هل يمكن أن توجد القداسة مع المعصية؟ نقول: إذا كان المقصود بكلمة (معصية) معناها العادي، الذي يتمثل في عصيان متعمد، فلا مرية في أنه لا يمكن أن تكون موضوع حديث بالنسبة إلى من كلفتهم السماء بهدايتنا، فإن عصمة هؤلاء الرجال في الواقع وفي الشرع يجب أن لا تكون موضع شك لسبب بسيط جداً، هو أننا على سبيل الافتراض يجب أن نقتدي بهم، والمعصية التي قد يقعون فيها ربما يقر في أذهاننا حينئذٍ أنها صارت واجباً ولم تعد من قبيل المحرم.

أما الأصفياء الذين لم يكلفوا برسالة إلى الناس، فعلى الرغم من أن عصمتهم ليست ثابتة (شرعاً) فإنها توجد في (الواقع) بصفة عامة.

وإذا كان لهم أن يذنبوا فما ذلك إلا على سبيل الندرة والشذوذ الذي يحدث نتيجة النسيان أو الغفلة، بحيث منع ذلك مؤقتاً ضميرهم من أن يمارس وظيفته العادية ولكنهم سرعان ما يرجعون إلى صوابهم، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل

عمران: ١٣٥]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ﴾ [النساء: ١٧].

وعلى العموم فإن القرآن يعلمنا أن ذنوب الكبار ضعف ذنوب الآخرين ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، على حين الذين يجاهدون حتى لا يقعوا في الكبائر تُغفر لهم الصغائر برحمة من الله ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ [النجم: ٣٢].

وهكذا نجد في القرآن الكريم لكل درجة من درجات الدقة مقتضياتها الخاصة كما نجد لكي نبلغ مستوى الكمال الكلي تصاعداً لا ينتهي. فيما مضى كان بحثنا منصباً على الجزء الباطني والنفسي من الجهد، والآن نستعرض جوانب من الجهد الحسي والبدني لنرى القيمة الأخلاقية لهذا الجهد في نظر القرآن لنذكر أولاً أنه إذا كانت هناك أخلاق ترى في الألم النازل بأجسادنا من حيث هو قيمة جديرة بأن تطلب لذاتها، أو باعتبارها نظاماً لنجاة النفس - فإن هذه ليست أخلاق القرآن على وجه التأكيد، ذلك أن هذه أخلاق القرآن على وجه التأكيد، ذلك أن هذه الأخلاق لا ترى أن يبحث الإنسان عن الألم البدني صراحة فضلاً عن أن تأمر به، فهي قد فرقت تفرقة واضحة بين الجهد البدني الذي يتضمنه واجب مقرر، أو الذي يصحبه من وجه طبيعي، وبين جهد مندوب هو إبداع خالص لهوى أنفسنا. إنها ترفض هذا النوع الأخير من الجهد وتحرمه قال تعالى مخاطباً أولئك الذين يفرضون على أنفسهم ضروباً مختلفة من الحرمان والتقشف أو الذين يحدثون أنفسهم بذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧- ٨٨].

ولكن عندما يكون الجهد وأداء الواجب لا يتم إلا مع تحمل المشقة البدنية، فإن القرآن والحديث لا يألون جهداً في طلب جهدنا في مختلف صوره، جهد من أجل المعيشة ﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠]، ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥].

جهد لأداء العبادة في وقتها المحدد، دون نظر إلى الفصول وتغير ظروف الجو والمناخ. فالصلاة يجب أن تؤدي حين دخول وقتها وكذلك الصوم والحج، والجهاد دفاعاً عن الحقيقة المقدسة وعن شرف الأمة وحريتها.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

والجهد البدني يتمثل في:

النجدة: فعندما يكون الأمر يتعلق بحفظ الحياة الإنسانية فعندئذٍ يماثل القرآن حياة الإنسان الواحد المنقذة بحياة الإنسانية جمعاء: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ﴾ [المائدة: ٣٢]. والمراد هنا هو أن نسخر قوانا ونوجهها باتجاه هدفنا المنشود وهو انقاذ حياة الإنسان الذي نقوم بنجدته. وأن نبذل كل جهودنا الذهنية والبدنية والأخلاقية لتنفيذ ذلك.

الصلاة: والتي تحتاج إلى الخشوع والاستعداد والشعور الكامل بمدى أهمية الصلاة وقيمتها في حياة الإنسان رغم تكرارها اليومي عدة مرات، والإنسان المؤمن

الحقيقي هو ذلك الذي يزداد متعة وخشوعاً كلما وقف بين يدي الله مؤدياً الصلاة.

الصوم: وكلنا ندرك ما في هذه العبادة من سمو وتهذيب للنفس البشرية، وفيها يبذل الإنسان أكثر من جهد بدني في وقت واحد، ففي الصوم يجاهد الإنسان معظم غرائزه من أكل وشرب وممارسة للجنس ومهما كانت الظروف وتقلب الأجواء. إنها الفريضة التي تقوي الإرادة في نفس الإنسان وتجعله يتحكم بشهواته وأهوائه ويتغلب على الجزء من نفسه الذي يأمره بالسوء ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

وهي العبادة التي لا مجال فيها للنفاق والرياء، فهي خالصة لوجه الله تعالى لكل من يؤديها وهي طاعة كاملة للخالق سبحانه، من أشكال الجهد البدني أيضاً.

الصبر: والصبر من أعلى درجات الإيمان وهو متعدد الوجوه، هنالك الصبر على الألم وطول المرض والمعاناة والذي لا يزيد من ابتلي به إلا إيماناً ورضى بقضاء الله ودون تململ وتبرم بالحال الذي وصل إليه ذلك الإنسان المريض وهنالك الصبر على الفقر وقلة الرزق، لا بل الحمد والشكر لله على كل حال وعدم النظر إلى ما بأيدي الآخرين والكفر بأنعم الله الكثيرة غير المال. وكذلك الصبر أمام أية مصيبة تحل بالإنسان كفقدان بعض الأبناء أو فقد المنزل والجاه والمال وغير ذلك من أمور كثيرة يتعرض لها الإنسان في حياته، والفائز من يصبر ويشكر الله على كل حال، لذلك قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١- ٣].

وقد يستغرب البعض أن تقول بأن العطاء جانب من جوانب الجهد البدني فالإنسان غالباً ما يكسب رزقه بالعمل وبذل الجهد، وقد يكون الكسب كبيراً وقد لا يكون وأحياناً ما ينقطع عن البعض بشكل شبه كلي، وهنا يكمن الأشكال ويبدو الإنسان على حقيقته سواء الذي كثر ماله ورزقه، أو الذي انعدم منه المال

والرزق فالأول يُمتحن في موقفه من الآخر، هل يعطيه مما رزقه الله رغم حبه الشديد للمال، وربما الجهود الكبيرة التي بذلها من أجل الحصول عليه، وربنا سبحانه يأمر الأغنياء بإخراج قسم من أموالهم للمحتاجين سواء أكان ذلك بالزكاة أو غيرها من أوجه الإنفاق ولكن ليس ذلك معناه أن الله سبحانه يطلب من الإنسان الموسر أن يصبح معسراً. ولكن الله طلب من الجميع العمل وبذل الجهد لكسب المعاش، ثم حدد سبحانه طرق الانفاق وأمر أولي الأمر في الدولة من تدبير الأمور بحيث يتحقق العدل في المجتمع المسلم ويزول منه كل مظاهر الفقر والظلم والحرمان كما أنه سبحانه بين للأغنياء كيفية المحافظة على النعم حتى لا يعرّضوا أنفسهم وذويهم للفقر والبؤس سواء بالإسراف، وحتى بالوصية بالثروة كاملة فقد قال ﷺ لمن أراد أن يتصدق بكل ماله "امسك عليك بعض مالك فهو خير لك".

أما في القرآن الكريم فنقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

كذلك من أوجه الجهد البدني ذلك الصراع الذي يحتدم في نفس الإنسان لاسيما من كان على قدر كبير من الإيمان والعلم والتقى بين العزلة والاختلاط في الحياة الاجتماعية، وما يترتب على كل من الأمرين من سلوكيات إيجابية في نواح وسلبية في أخرى، وإن كان لا يوجد أمر قاطع مؤكد، لأن كل شيء يصدر عن الأشخاص والحالات كما بين الغزالي.

ولكن على وجه العموم هناك حالات يفرض فيها على العاقل الابتعاد عن الناس، سواء كان ذلك لأسباب عامة، أم كان لدواع شخصية، مثلما يحدث في حالات الفتن والاضطرابات الاجتماعية، لاسيما حينما توكل الأمور إلى الجهلة والفساق والمنافقين وأصحاب المصالح الشخصية، والإنسان غير قادر على العمل

لإصلاح الأمور لضعفه وقلة حيلته وعدم وجود الكفاية من المناصرين الصالحين، فهو لا يملك لمثل هذا الوضع دفعاً. أو يلقي بنفسه إلى التهلكة.

ولكن في الأحوال العادية لا يمكن أن تقارن الرجل الذي ينطوي على الصمت ويلتزم الجمود ليتجنب الصدمات المحزنة بأخر يضحي براحته وانفعالاته راضياً مختاراً من أجل السلام العام، ومن أجل سعادة الأمة.

فقد قال الرسول ﷺ "المسلم إذا كان يخالط الناس ويصبر على آذاهم خير من المسلم الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على آذاهم" وفي المحصلة يمكن القول إنه لا يمكن التحدث عن الأخلاق إلا بقدر ما يكون المرء صادقاً مع نفسه، وهو التحفظ الذي ما زال القرآن ينفثه في آذاننا:

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١].

وهو يثبت بطلان أي عذر لا يستمد منبعه من الصدق ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٤- ١٥]، ولقد يحدث أيضاً أن يتخلى المرء عن الجهد قبل أن يصطدم فعلاً بإحدى العقبات، لا بسوء نية، ولكن بنوع من التراخي والإهمال. فهو يتخيل ابتداء أن عقبات سوف تصادفه، فيقول في نفسه: لن أفعل هذا، فقد أمرض ولن أفعل هذا فقد يعيبه الناس علي، ولن أعطي الفقراء فقد أصبح غداً فقيراً، وليست هذه في أكثر الأحيان سوى أوهام محضة، أو بلغة القرآن، هي أفكار شيطانية والله سبحانه يقول: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨]، يجب علينا إذن أن لا نتقهقر إلا أمام استحالة واضحة لأعيننا، أو على الأقل عرفناها

معرفة كافية بالتجربة، يجب أن نبدأ دائماً بإرادة الطاعة، وأن نشرع في العمل، حتى لو بدت المهمة لنا أكثر مشقة ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦].

ثم إن الآيات القرآنية التي تأمرنا بأن نجاهد حق الجهاد في سبيل المثل العليا متعددة ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨]، ودون الالتفات لأمكانياتنا، وهذه الآيات ليس لها من معنى إنساني آخر وهي تحاول دفع جهودنا إلى أعلى درجة ممكنة.

هذا هو إذن الجهد المطلوب والمحمود في القرآن. إنه أولاً نشاط أخلاقي ومادي يسخر لخدمة الواجب، ويقاس إليه فكل ما هو معتف لا علاقة له به، ثم هو بعد ذلك نشاط مبصر، واضح الرؤية من ناحيتين فنظراته لا تتجه فقط إلى الطاقات المتاحة كيما يستخدمها على بصيرة، ولكنها في الوقت نفسه تحتوي في نظرة واحدة مختلف العلاقات بين الفرد من جانب (وربه، والناس أجمعين، نفسه من جانب آخر، كيما تتوزع بين هؤلاء جميعاً توزيع عادلاً، فتنهض بمختلف تكاليفهم.

ونختم هذا الفصل بالقول: إننا لو افترضنا أن الإنسانية سوف تبقى أبداً، وأنها سوف تغير ظروف حياتها إلى ما لانهاية فإننا نؤمل أن تجد في القرآن القواعد والإرشادات التي تنظم شؤون حياتها والوسيلة التي تدفع جهودها دائماً للأسمى والأفضل، وتصحح المسيرة كلما انحرفت، وتبقى دائماً رحمة للضعفاء ومثلاً أعلى للأقوياء.

والله من وراء القصد

الموقف من حرية الإنسان في القرآن الكريم

الإنسان وجد في الأصل ليكون حراً، وقد كان كذلك بالفعل، فقد عاش ردحاً من الزمن وهو يتمتع بحريته الكاملة وفي مختلف شؤون حياته، إلى أن قامت الملكيات وأصبح هنالك ملاك للأرض، فأصبح الإنسان يخضع أخاه الإنسان كرقيق وأجير في الأرض الزراعية، ثم قيدت حرية الإنسان مع قيام الدول فيما سمي بالعقد الاجتماعي، حيث أصبح الإنسان يخضع لقوانين مختلفة حدت من حريته في نواح مختلفة من مقدرات حياته، ومع تقدم الدولة وأنظمتها ازداد سلب حريات الأفراد وتحت مسميات مختلفة وانطلاقاً من هذا الواقع فقد بدأ الإنسان وفي مختلف أنحاء المعمورة يناضل ليتحرر من كثير مما فُرض عليه من قيود حدت من حريته، حتى أن مدرسته في تفسير التاريخ قالت بأن ما حكم سير الأحداث التاريخية لم يكن إلا نضال الإنسان من أجل كسب المزيد من الحرية.

وإضافة إلى مجريات الحياة على الأرض والتي حدت من حرية الإنسان، وجدت التعاليم الدينية والتي رسمت للإنسان منهجاً محدداً يجب أن يسير عليه أثناء حياته الدنيا لينال الثواب في الحياة الآخرة، وكان من ضمن هذه التعاليم الدينية ما حد من حرية الإنسان في التصرف في حياته كما يشاء، فهنالك التعاليم المختصة بالحلال والحرام، والأخرى التي ترسم للإنسان كيف يتصرف في مختلف المواقف الحياتية التي يمر بها، والقي يعتبر الخروج عليها ومخالفتها نوعاً من الكفر والهرطقة والذي ربما يؤدي إلى العقاب في الحياة الدنيا ابتداء ثم يوم القيامة.

هذا إضافة للقيود الاجتماعية التي تعارفت عليها مختلف المجتمعات البشرية والتي قيدت حرية الإنسان في الكثير من شؤون حياته المختلفة.

كذلك فإن نظم الاستبداد الحاكمة نراها وقد سلبت معظم أبناء المجتمع

جوانب هامة من حرياتهم وقيدتهم بقيود لا تليق بأن يفرضها إنسان على أناس أمثاله يعيشون معه وفي نفس مجتمعه.

ولكن ربما كان أكثر القيود التي فرضت على البشر هي تلك المتعلقة بالتعاليم والأوامر الدينية والتي يخضع لها الإنسان طوعاً لا بل ويعتبرها طاعة لله وتقرباً. وهو أمر سليم ونافع ولا غبار عليه، فهذا ما يعطي الإنسان الطمأنينة النفسية ويمنعه ومن تلقاء نفسه وبلا رقيب من ظلم العباد والتعدي على أرواحهم وحقوقهم، وينشر السلام الاجتماعي ويقوي الروابط بين أبناء المجتمعات المختلفة.

ولكن الخطورة هنا هو استغلال البعض من حكام وممن ادعوا بأنهم رجال دين للتعاليم الدينية لغرض وجهات نظر معينة تحد من حريات العباد باسم الدين، وتفسر التعاليم الدينية وفق أهوائها ومصالحها ورغباتها، أحياناً نفاقاً وتزلفاً للسلطات الحاكمة، وأخرى بضيق أفق وقصر نظر وتفسيرات حرفية للنصوص وتحميلها ما لا تحتمل، وهذا كله كان له الأثر الأكبر في الموقف من حرية الإنسان ولصالح تحديد هذه الحرية وتقييدها لذلك فلم يكن غريباً أن يتصدى العديد من مفكري الإسلام وعلمائه لقضية حرية الإنسان وموقف الإسلام من هذه الحرية وكان ذلك منذ مئات السنين وليس في زماننا هذا وحسب فالحرية أغلى ما يملك الإنسان، وهو دائم التفكير والعمل ليتمتع بالقدر الأكبر منها.

وتالياً سوف نعرض جوانب من تناول القرآن الكريم لمسألة حرية الإنسان، ونظرة علماء الإسلام لهذه القضية وكيف فهمها كل فريق وبنى موقفاً من خلال هذا الفهم.

ولكن قبل ذلك لابد من الإشارة إلى أن الدين أمر مطلق، فما دمنا نؤمن بأنه منزل من الحق تبارك وتعالى والحق هو المطلق بذاته، فإنه أي الدين عندما ينزل إلى الإنسان فإنه لابد أن يفقد صفة المطلق، ويصبح خاضعاً للنسبية، وقد أشار القرآن الكريم وإن بشكل غير مباشر إلى هذه الحقيقة عندما اعتبر الإنسان خطّاء وأن الله

واسع المغفرة فالغفران لا يكون إلا عن الأخطاء، وقد تكرر الغفران في القرآن الكريم مئات المرات. وهو الأمر الذي يؤكد أن الخالق سبحانه والأخبر بأمور عباده يعلم أن ما أنزله لن تكون له صفة الإطلاق في نفوس العباد وأنه لابد أن يخضع للنسبية. وهذا الأمر كثيراً ما يغيب عن بال علماء المسلمين بشكل خاص عندما يتناولون موقف عباد الله من تنفيذ أوامره سبحانه وإمكانية الانحراف أحياناً عن هذه التعاليم ثم الصورة عن الانحراف وهكذا.

فالبعض من علماء المسلمين يريد من الإنسان المسلم أن يكون ملاكاً يدب على الأرض، وهو الأمر الذي لم يطلبه الخالق من هذا الإنسان، فهل أمثال هؤلاء أعلم من رب العباد بنفسية عباده وكيفية مسيرة حياتهم.

لو أخذ علماء المسلمون بفكرة النسبية هذه لأمكن قيام النظام الإسلامي الأمثل والذي يحلم به الكثيرون منذ مئات السنين، ولأمكن للإنسان المسلم أينما كان بأن يعيش حياة خالية من التبكيت والشعور الدائم بالذنب.

ولأمكن لقافلة المسلمين المعاصرة أن تنطلق بعد أن تعطل مسيرها لعدة قرون وما يزال وبالعودة لموضوع النزعة العقلية في الإسلام والتي تدل على مدى الحرية التي أعطاها الله لعباده فالقرآن يحث الإنسان على تحكيم العقل، لا بل إن القرآن الكريم تحدى حجج معارضيه بقوة وطالبهم بأن يأتوا ببرهان على ما يقولون إن كانوا قادرين لرفع ما في القرآن من حجة بالغة ودليل قاطع. كذلك فإن لغة القرآن وطريقة خطابه، وبما فيه من آيات مختلفة ومتشابهة كانت عاملاً من عوامل الاختلاف في الرأي والتفسير والاجتهاد. وهي الأمور التي تدفع الإنسان دائماً لاستعمال العقل والتفكير الدائم في أمور الحياة المختلفة.

قضية الجبر والاختيار: وهي من القضايا التي خاض فيها العديد من مفكري الإسلام والجماعات الإسلامية كغيرهم من أصحاب الديانات والثقافات الأخرى والتي نالت حظاً من النقاش والجدل، وكان الفوز سجالاً بين المذهبين. أما في

الإسلام فقد وجد القائلون بالجبر وسموا بالجبرية الخالصة وهم أتباع الجهم بن صفوان وأهل السنة من السلفيين نوعاً ما، ويصور المنادين بحرية الإنسان المعتزلة ومن لف لفهم. وكان لموقفهم التحرري من احترام إرادة الإنسان وتقديس عقله، ما دفعهم إلى أن يتفقوا على أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها، مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة، فهم كانوا يرون في حرية الإنسان تبريراً للمسؤولية والمحاسبة. ففي رأيهم أنه لا يجوز أن يريد الله من العباد خلاف ما يأمر، ويحتم عليهم شيئاً ثم يجازيهم عليه. فالعبد هو الفاعل للخير والشر والإيمان والكفر والطاعة والمعصية، وهو الذي يجازي على فعله، والرب تعالى أقدره على ذلك كله فالمعتزلة إذن جعلوا الحرية الإنسانية شرطاً لتحمل المسؤولية وتبرير التكليف والحساب. وبدون هذه الحرية يصبح الثواب والعقاب بلا معنى حقيقي، إذ كيف يجبر الله عباده على فعل قدره هو عليهم ثم يحاسبهم لأنهم فعلوه، وهذا تساؤل فيه نصيب كبير من الصحة والحق.

فالله سبحانه خلق الإنسان وأعطاه حرية التصرف والفعل. ولا شك أن هنالك خرقاً بين الفعل الإنساني الذي يستحق المدح والذم، والفعل (الإلهي) الذي لا دخل للإنسان فيه، كالولادة والموت وغيرهما. والفعل الإنساني ليس مطلقاً فهو مقيد بالنظام الاجتماعي السائد، وبالمصلحة الفردية والاجتماعية وبما تفرضه هذه من موانع.

الحسن والقبح:

ولعل أشهر ما عرف به المعتزلة وتنوقل عنهم وردّ عليهم فيه، قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين أي أن الشيء أو الفعل يحمل صفة الحسن أو القبح في ذاته ولا يكون موصوفاً بهما لعلة خارجية، كالأمر أو النهي.

فهم يعتقدون أن الشر موصوف بذلك لأنه شر في نفسه ولذا نهى الله عنه في الديانات المنزلة، والخير خير في نفسه، ولذلك أمر به الله، على العكس مما يقول به

البعض من أن الشرع هو الذي بين لنا الحسن من القبح، أو الحلال من الحرام، بأن أمر بفعل الحسن ونهى عن فعل القبح. ولو أراد أن يجعل الحسن قبيحاً أو العكس لفعل وكان هذا صواباً منه وعدلاً.

أما موقف المعتزلة من التحسين والتقبيح العقليين فهو:

نادى المعتزلة بهذا المفهوم لأيمانهم المطلق بالعقل وبأنه هو الذي يؤدي إلى معرفة الله وإلى معرفة المحبوب من الأعمال. ويعتقد الدكتور أبو ريدة أن من أكبر العوامل التي دعت المعتزلة إلى هذا الرأي بالإضافة إلى إيمانهم بسلطان العقل في المعارف والواجبات، تفرقتهم بين علم السمع وعلم العقل، وهم قالوا بالحسن والقبح العقليين لأنهم فصلوا بين علم السمع الذي هو الكتب الإلهية المنزلة على الرسل، وبين علم العقل الذي لا يعتمد على شيء سوى نفسه، ولفرط ثقتهم بالعقل أوجبوا عليه معرفة الله سبحانه وتعالى حتى قبل نزول الوحي وبعث الرسل.

وهم يوجبون معرفة الحسن والقبح بالعقل، ويوجبون كذلك فعل الحسن واجتناب القبح أيضاً. وكان أبو الهذيل مثلاً يقول في المكلف قبل ورود السمع، إنه يجب عليه أن يعرف الله بالدليل من غير خاطر، وأن قصر في المعرفة استوجب العقوبة أبداً، ويعلم أيضاً حسن الحسن وقبح القبح، فيجب عليه الإقدام على الحسن كالصدق والعدل، والإعراض عن القبح كالكذب والجور.

وفي هذا القول دلالة على أن أصحابه يعتقدون بأن العقل لا يكمل إلا إذا عرف من تلقاء نفسه الحسن والقبح، فإذا لم يعلمه بقي ذلك مجهولاً أبداً فالقبيح ليس قبيحاً إلا لأنه يحمل صفة القبح وهو معروف بهذه الصفة من كل صاحب عقل، وكذلك الحسن إنما يكمن في نفسه وذاته، وليس هو كذلك لأمر أو نهي جاء به أو عنه.

والخلاصة ان المعتزلة وغيرهم من المفكرين المسلمين القدماء والمحدثين أعطوا

العقل قيمته الكبرى في معرفة الله قبل ورود السمع وسلطانه الكامل في معرفة الخير والشر والفساد والصلاح. وهذا يعني أن القرآن الكريم قد فتح أبواباً واسعة لحرية الإنسان في التفكير وإرشاد الإنسان إلى طرق الصواب والخطأ ذلك أن حياة الإنسان في صيرورة دائمة وتغيرات ليس لها حدود، والقرآن الكريم أعطى الإشارات ورسم الخطوط العريضة لحياة الإنسان، ولكنه لم يسلب الإنسان حرية التفكير واستعمال العقل. لا بل إن الكثير من آيات القرآن تحض الإنسان على التفكر واستعمال العقل والتنبيه إلى المستجدات القادمة في حياة الإنسان على هذه الأرض والقي لابد أن تزيد المؤمن إيماناً لما سوف تكشفه من أسرار الخلق سواء في هذا الكون الواسع، أو في ذات الإنسان.

موقف القرآن الكريم من الحرية في حياة الإنسان العملية:

الموقف من الرق لعل أخطر ما هدد حرية الإنسان على الأرض هو النظام الذي ساد بين البشر لفترة طويلة من الزمن، ألا وهو نظام الرق. هذا النظام البغيض والذي من الصعب أن يتصوره إنسان هذا العصر مجرد تصور. وإن كنا نراه في أيامنا هذه وقد انتشر بأشكال مختلفة ومسميات جديدة. حيث ظاهرة انتشار ما يعرف بالرقيق الأبيض أو الاتجار بالنساء أو ما يسمى بتاجرة الجنس، والتي نشأت من جديد في ظل النظام الرأسمالي المتفول هذه الأيام، والذي ليس له من قيم أخرى وإن ادعى غير ذلك، فهذا النظام جعل من الإنسان عبداً للمال والشهوات. يطلبه ويسعى لجمعه بكافة الطرق المشروعة وغير المشروعة.

نظام الرق هذا حاربه الإسلام قبل عدة قرون من الزمن، ومنذ نزول القرآن الكريم. والمتتبع لموقف القرآن الكريم من هذا النظام يرى ويعلم يقيناً أن الإسلام لا يحبذه ويحاربه بمختلف الوسائل. فهو إضافة لرفع مقام البشر المستعبدين إلى درجة من يستعبدهم في الإنسانية والحض على حسن معاملتهم والتعامل معهم، نرى بأن القرآن الكريم وفي آيات عديدة جعل عتق العبيد وإعطائهم حرياتهم

كفارات لذنوب عديدة يقترفها الإنسان المسلم فقد قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ﴾ [المائدة: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١١- ١٣]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ٣].

كما جعل الخالق تحرير الرقيق أحد مصارف الزكاة قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ﴾ [التوبة: ٦٠].

هذه الآيات الكريمة وغيرها تدل على مدى رغبة القرآن الكريم في أن يرى عباد الله جميعاً من الأحرار وأنه يود انتهاء مثل هذا النوع من العلاقة التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان.

أما لماذا لم يحرم الإسلام نظام الرق دفعة واحدة وكما يشكك البعض، فإننا نقول بأن من معجزات الإسلام عدم تحريم الرق دفعة واحدة وفي زمان معين، فالرق كان نظاماً عالمياً سائداً ومتعارف عليه بين البشر كافة. ويبدو أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية كانت تحتم وجود مثل هذا النظام. والإسلام لم يقم ويستمر بسياسة حرق المراحل، ولكنه كان يجاري الحياة البشرية وتطورها الطبيعي والتدريجي، والله سبحانه وتعالى منزل القرآن يعلم بما ستؤول إليه أمور البشرية وأن هذا النظام بالتالي لابد أنه زائل بحكم تطور مفاهيم البشر وفق تطور أساليب

حياتهم ومعاشهم. وكان هذا أحد أسباب ثبات الرسالة الإسلامية وانتشارها السريع المذهل.

حيث أنها واكبت تطور حياة الإنسان، وكان كل جيل إسلامي يرى في القرآن الكريم من التعاليم ما يناسب الحياة والعصر الذي يعيشه.

والغريب أن الذين يأخذون على الإسلام عدم تحريم نظام الرق قبل ألف وأربعمائة سنة نراهم الآن وكما أسلفنا يعودون لإحياء هذا النظام البغيض وبشكل سافر ومكشوف ولكن بصور خفية أو بتسميات مختلفة.

هذا عدا أنه لم يحرم هذا النظام في الأديان السابقة للإسلام، لا بل حتى المدن اليونانية التي اشتهرت بممارسة أنظمة الديمقراطية الصحيحة والحقيقية كما توصف وهي الديمقراطية المباشرة وظهور كبار الفلاسفة على أراضي تلك المدن. نرى أن كل ذلك التقدم لم يواكبه إلغاء نظام الرق.

لا بل إن العبيد كانوا يحرمون من التصويت في تلك المدن، وكانوا يعتبرون بالتالي مواطنين من الدرجة الثالثة بعد النساء، أما الإسلام فقد ساواهم مع غيرهم من عباد الله الأحرار وبدأ أولى الخطوات لتحريرهم.

الحرية السياسية:

القرآن الكريم بداية جعل عبودية الإنسان لله وحده، وكرّه أن يتسلط إنسان مهما بلغت درجته على بقية عباد الله وتحت أي ذريعة كانت، وبحيث يتحكم برقاب الناس وتكون كلمته هي العليا، ويفرض عليهم ما يشاء من قرارات تمس شؤون حياتهم المختلفة، وحين لا راد لقراراته وكلماته. والقرآن الكريم صور لنا الحاكم المستبد وطغيانه وأثر ذلك على أبناء قومه. فالطغيان لغة تجاوز القدر والحد، والطغيان في الأمر هو الغلو فيه، ونقول فلان طغى إذا أسرف في المعاصي والظلم واتباع الهوى، ويراد في هذا المعنى العموم والارتفاع والعلو، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا

ﭐلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] وقال عز وجل: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: ٤] كما قال سبحانه: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٣] فكل شخص علا وتجاوز حده وقدره وعم بلاؤه الناس هو طاغ ومتفرعن.

والطغيان من أسوأ أشكال الظلم، وأسوأ أنواعه أن يكون جماعياً منظماً ممثلاً لحالة استبداد عامة ذي آليات عمل منظمة وأساليب وتكتيكات ممنهجة للوصول إلى حالة استعباد العباد والإفساد في البلاد دون رقيب أو رادع أو حسيب، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ويدلل ذلك على العمل الطغياني الجماعي المنظم لأحكام القبضة على الشعوب بالقوة والسيادة على الناس بالحديد والنار حتى لا ينازع الطاغي أو الجماعة الطاغية أحد في الحكم ويكون الحاكم إلهاً من دون الله في الأرض متفرداً بذاته وصفاته ويحكم بهواه ورأيه الفردي فهو المشرع والحكم والخصم والجلاد، وهنا نجد النص القرآني قد قرر مبدأ هاماً هو أنه متى كان هنالك طغيان فهنالك فساد كبير، وليس نوعاً واحداً من الفساد، وكلما زاد الفساد وكثر فإن هذا يعني أن هذا البلد لا توجد فيه رقابة أو محاسبة أو سيادة للقانون أو عدالة وانصاف، وأن البلد بهذا لامعنى قد استشرت فيه حاكمية الطغاة على أيدي شخص أو طائفة أو حزب مستبد وأن هناك طاغية أو مجموعة من الطغاة يقودون هذا الشعب أو ذلك البلد.

لذلك ولتماشي الوقوع في مثل هذا الحال نجد أن القرآن الكريم قد اشتمل على مجموعة كبيرة من الآيات التي تحض على إقامة العدل بين الناس ورفع الظلم عن كواهل أبناء المجتمع، وإحقاق الحق، واحترام كل إنسان يعيش على الأرض الإسلامية كون هذا الإنسان كرمه الله وجعله خليفة في الأرض وأن حياته مقدسة، وما دامت كذلك فيجب أن تُحترم ولا تشعر بالغبن والظلم بأي صورة من صوره.

والحاكم حسب الشريعة الإسلامية ليس إلا منفذاً لشرع الله الذي يقيم العدل

بين الناس. وحتى لا ينحرف الحاكم فقد جعل أمور المسلمين الدنيوية والمعيشية شورى بينهم، ولم يؤيد وجود السلطان الحاكم بأمره والذي يقود رعية أشبه بقطعان الأغنام. قال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] وقال سبحانه مخاطباً رسوله الكريم ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وكان هذا الأمر للرسول ﷺ وهو الذي ينزل عليه القرآن، فكيف الحال مع الحكام العاديين. للإنسان أن يتصور الأمر. والشورى في الإسلام والتي تعني الديمقراطية في المفاهيم المعاصرة ليس لها شكل محدد ويمكن أن تتطور وتأخذ أشكالاً مختلفة حسب تطور الحياة البشرية ومفاهيم كل عصر بما يحدث فيها من تغيير وتطوير. إذ من الخطر على أي تجربة إنسانية أن يتصدى الباحثون لحل مشاكلها في مرحلة متقدمة من مراحل تطورها وهم يستعملون المناهج والقوالب التي استعملتها الأجيال السابقة وخلال المراحل الأولى لنشأة تلك التجربة. وتجارب المسلمين ليست مستثناة من النواميس العامة التي تحكم حركات المجتمعات.

ولعل مما يؤخذ على الدول الإسلامية ومنذ انتهاء فترة الخلافة الراشدة أنها لم تؤصل لمبدأ الشورى ولم تنشيء له المؤسسات المطلوبة، لا بل لم تحدد للناس وسائل تطبيق مبدأ الشورى وتفاصيل العمل به حسب كل مرحلة مرت بها الدولة الإسلامية. فالشارع حينما اكتفى بالإجمال دون التفصيل إنما كان يفترض أو يفوض الناس في اختيار الوسائل والتفاصيل التي يرونها أكثر قدرة على تحقيق مقاصده في رعاية مصالحهم، ولكن هذا لم يحدث مع الأسف طوال التاريخ الإسلامي. أما قضية مدى وجوب الشورى ومدى الزامها فإنها قضايا لم ترد في القرآن الكريم وإنما هي اجتهادات بشرية. وهي طروحات تقليدية لقضية الشورى لم يعد صالحاً ولا كافياً لمناقشة مباحث الشورى في المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

فالأمر الملزم بشأن موضوع الشورى إنما هي النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ولا حجة لأحد في تركها والخالق سبحانه لم يفصل في هذا الأمر حتى يكون

الناس في سعة من أمرهم وليختاروا في تطبيق تلك المبادئ ما يحقق مصالحهم كما تحددها ظروف البيئة والزمان والمكان فأسلوب الإسلام في التشريع وبناء الأنظمة يقوم كما قيل بحق على إجمال ما يتغير وتفصيل ما لا يتغير. فأمور العبادة مثلاً ليست مما يتغير بتغير المصلحة بتغيير الزمان والمكان، ومن هنا كان النقل مصدرها وكان الدخول في الطاعة جوهرها ومظهرها، أما الأمور المعاشية فتبقى على الأصل في الحل والإباحة الأصلية وحرية الحركة في طلب الأصلح، تحدها في ذلك كله حدود النصوص القطعية وما اشتملت عليه من أحكام تكليفية أمراً ونهياً.

ولكن مجمل القول أن الإسلام رفض الاستبداد بكافة صوره وأشكاله، وقد علمنا التاريخ أن الحكام الذين اعتمدوا الظلم والاستبداد وقمعوا الحريات وعطلوا مبدأ الشورى الحقيقي بين الناس أياً كانت حججهم في ذلك أو أفكارهم وأنظمتهم، إنما حولوا حكمهم إلى نظام مستبد مارس أقصى درجات القمع للعباد، مما دفع أفراداً وخرقاً ومؤسسات لتمارس عنفاً مضاداً في المجتمع الإسلامي كثيراً ما قاد إلى الفتن والثورات التي أسالت أنهاراً من الدماء، قال تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤].

إن الاستبداد حوض ماء راكد تعيش فيه كل أنواع الطفيليات والطحالب من المنافقين والانتهازيين والوصوليين وغيرهم ممن يزينون للحاكم المستبد كل فعل يقوم به حتى لو كان به خراب البلاد وهلاك العباد. قال الكواكبي واصفاً الاستبداد "لو كان الاستبداد رجلاً وأراد أن يحتسب وينتسب لقال: أنا الشر وأبي الظلم، وأمي الإساءة، وأخي الغدر، وأختي المسكنة، وعمي الضرر، وخالي الذل، وابني الفقر وابنتي البطالة، ووطني الخراب، وعشيرتي الجهالة" أما البليغ القدسي فنراه "أم القرى" يقول العناصر الأساسية التي تبدت فيها العلة السياسية للتقهقر: إن سبب الفتور هو تحول نوع السياسة الإسلامية، حيث كانت نيابية اشتراكية أي ديمقراطية تماماً، فصارت بعد الراشدين، بسبب تمادي المحاربات الداخلية، ملكية مقيدة بقواعد

الشرع الأساسية، ثم صارت أشبه بالمطلقة. وهذا ما يذهب إليه (المولى الرومي) من القول "إن البلية فقدنا الحرية" والحرية تعني أن يكون الإنسان مختاراً في قوله وفعله ولا يعترضه مانع ظالم، ومن فروعها تساوي الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء وعدم الرهبة في المطالبة وبذل النصيحة. وحرية التعليم وحرية الخطابة والمطبوعات، وحرية المباحثات العلمية، والعدالة بأسرها حتى لا يخشى إنسان من ظالم أو غاصب أو غدار مغتال. إن الحرية هي (روح الدين) "وهي أعز شيء على الإنسان بعد حياته"، بفقدانها تفقد الآمال وتبطل الأعمال وتموت النفوس وتتعطل الشرائع وتختل القوانين، فيصير الفتور والانحطاط والتقاعس طبعاً لمن ألغوا الاستبداد والذل والهوان.

أما المرحوم عبد القادر عودة فيقرر: أن الشريعة لم تترك لأولياء الأمور تحديد القواعد الأساسية الخاصة بتطبيق مبدأ الشورى وتنفيذه، وإنما هي قد بينت أسس هذا التطبيق فأوجبت (أن تكون الأقلية التي لم يؤخذ برأيها أول من يسارع إلى تنفيذ رأي الأغلبية وأن تنفيذ، بإخلاص باعتباره الرأي الواجب الاتباع وأن تدافع عنه كما تدافع عنه الأغلبية.

وليس للأقلية أن تناقض رأياً اجتاز دور المناقشة أو تشكل في رأي وضع موضع التنفيذ. وفي رأيه أن هذه السنة التي سنها الرسول نفسه للناس تكمل مبدأ الشورى العام وتصلح لأن تكون علاجاً ناجعاً للاخفاق الذي تعاني منه الديمقراطية في عصرنا.

أما الأساس الجوهري الثاني الذي حددته الشريعة حين أقامت الحكم على مبدأ الشورى، وبه سبقت الشريعة كافة القوانين الوضعية فيتجسد في نظرية تقييد سلطة الحاكم. وهذه النظرية تقوم في تصور عبد القادر عودة على ثلاثة مبادئ أساسية.

المبدأ الأول: وضع حدود لسلطة الحاكم، فقد كانت سلطة الحاكم قبل نزول

الشريعة سلطة مطلقة لا حد لها ولا قيد عليها وكانت علاقة الحاكمين بالمحكومين قائمة على القوة البحتة، والتي منها كان يستمد الحاكم سلطانه. ولما جاءت الشريعة الإسلامية جعلت أساس العلاقة بين الحاكم والمحكومين تحقيق مصلحة الجماعة لا قوة الحاكم أو ضعف المحكومن. وتركت للجماعة حق اختيار الحاكم الذي يرعى مصلحتها ويحفظها وجعلت لسلطة الحاكم حدوداً ليس له أن يتعداها فإن خرج عليها كان عمله باطلاً وكان من حق الجماعة أن تعزله وتولي غيره رعاية شؤونها.

المبدأ الثاني: مسؤولية الحاكم عن عدوانه وأخطائه:

إذ من الطبيعي وتحقيقاً للعدالة والمساواة واستجابة للمنطق وبعد أن جعلت الشريعة الحاكم كأي فرد عادي ولم تميزه بأية ميزة أن يسأل الحاكم عن كل خطأ أو مخالفة للشريعة سواء أتعمد ذلك العمل أم وقع منه نتيجة إهمال، شأنه في ذلك شأن أي فرد من الجماعة مسؤول عن أعماله.

المبدأ الثالث: تخويل الأمة حق عزل الحاكم. وذلك كنتيجة للقول إن الحاكمية أو الإمامة عقد بين الأمة وحاكمها، ومن الطبيعي بعد ذلك أنه ليس للحاكم الذي لا يقوم بالتزاماته أو الذي يخرج عن حدودها أن ينتظر من الشعب السمع والطاعة وفي هذه الحالة عليه أن يتنحى عن مركزه لمن هو أقدر منه على الحكم في حدود ما أنزل الله، فإن لم يتنح نحاه الشعب مكرهاً واختار غيره.

الحكومة الإسلامية الحقة إذن وإن كانت حكومة شورى وأساسها القرآن إلا أنها تختلف عن الحكومات الديمقراطية الحديثة، كما تختلف عن الحكومات الدينية الثيوقراطية، فهي لا تستمد سلطتها من الله وإنما من الجماعة، كما أنها لا تصل إلى الحكم ولا تنزل عنه إلا برضى الجماعة فهي مقيدة بها تقييداً كاملاً. والتزام الحكومة حدود الدين الإسلامي لا يغير من الأمر شيئاً لأن الدين الإسلامي يدعو الناس أن يعملوا لدنياهم مثلما يعملون لآخرتهم، بل إن الإسلام يرتب الحياة الأخرى على ما يعمله المرء في حياته الدنيا. فالنظام الإسلامي في الحكم نظام فريد

في نوعه لكن الأهواء هي التي عبثت به فحولته إلى ملك عضو من يعطل أحكام الإسلام ويمكن للظلم بين المسلمين وعليهم. فقد طبق أباؤنا بعض أحكام الشريعة دون البعض الآخر، وآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض فصدقهم الله وعده (إن وعد الله حق) وأخزاهم في الحياة الدنيا، وجئنا نحن على آثارهم نتبعهم ونؤمن إيمانهم فأخزانا الله كما أخزاهم وسلط علينا كما سلط عليهم وجعلنا عبرة لأولي الألباب.

الموقف من الحرية الفردية:

لعل أخطر ما يواجه العمل الإسلامي المعاصر هو الموقف من حريات الإنسان الفردية والتي تعتبر أبرز سمات العصر الذي نعيشه، فالقرآن الكريم حدد للإنسان المسلم سلوكيات محددة من المفترض أن لا يخرج عليها ومن الطاعة لله التقيد بها أو هكذا يفسر البعض الأمر. فهنالك مثلاً طريقة لباس معينة للمرأة، والنهي عن تناول الكحول وهي أبرز ما ورد في القرآن الكريم ما يسمى الحريات الشخصية، أما الامور الباقية فإنها من فضائل الأخلاق والتي يتعارف عليها البشر جميعاً مثل النهي عن الزنا والربا والسرقة والغش وما إلى ذلك.

ولكن خارج تعاليم القرآن الكريم حرّم فقهاء المسلمين أموراً عديدة على الإنسان المسلم باسم السنة والقياس فقد حرموا الفنون بمختلف أشكالها وألوانها، كما حرموا الاختلاط بين الرجال والنساء، لا بل حددوا للإنسان المسلم كيف يمشي وينام ويأكل ويلبس ويتعامل مع أعضاء جسمه. لا بل إن البعض حدد للإنسان المسلم كيفية قضاء أوقاته والتدخل في أدق تفاصيل حياته ودونما إثبات من كتاب الله وأحياناً استناداً لأحاديث ضعيفة أو احتجاجاً بسلوكيات وتصرفات السلف الصالح والتي لا يعلم إلا الله مدى صحة ما ورد عن تلك التصرفات هذا إلى جانب إغفال ما طرأ على الحياة ويطرأ باستمرار من تغييرات وتطورات لا ينكرها إلا جاهل أحمق. علماً بأن هنالك من يردد دائماً أن الله يبعث على رأس

كل قرن من يصلح أحوال هذه الأمة. وأقوال وردت عن علي بن أبي طالب وغيره من أجلاء الصحابة يقولون بها (ربوا أولادكم بغير ما ربيتم عليه).

والغريب في الأمر أن أحداً من المفكرين المسلمين وسواء أكانوا إسلاميين أو علمانيين أو بين بين لم يجرؤ على التطرق لهذا الجانب الهام في حياة الإنسان المسلم المعاصر. فنرى علماء المسلمين وبعض دعاتهم ومفكريهم يستنكرون ما يرونه من أساليب حياة عصرية تكاد تكون مفروضة على كل إنسان بحكم طبيعة حياة العصر وما تقتضيه حتى أن بعض من يستنكر نمط هذه الحياة نراه هو نفسه يعيشها دون أن يشعر أو تعيشها أسرته من زوجة وبنين وبنات. ومن اللافت للنظر أن هذا الهجوم على أساليب حياة العصر نراه مستمراً منذ أكثر من قرن من الزمان، وربما يكون له بعض الأثر أحياناً ولكن لفترات مؤقتة، ثم سرعان ما تدهم أساليب الحياة المعاصرة لتأخذ مكانها بين أبناء المجتمعات الإسلامية.

لا بل الأغرب من كل ذلك أن ما يهاجمه هؤلاء المتشيخون وادعياء السلفية من أساليب حياة معاصرة أو هكذا يظنونها، نرى أمثال هذه السلوكيات وقد وجدت وعرفت في كل العصور وبين أبناء كل المجتمعات بما فيها المجتمع أو المجتمعات الإسلامية والتي يظن البعض أنها كانت مجتمعات ملائكية فعلى مدار التاريخ الإسلامي وجد الزنا وشرب الخمر والرقص والفحش بكل أشكاله وألوانه في الوقت الذي لم نقرأ به عن منع بالقوة لمثل هذه السلوكيات، أو وجود ساحات عامة لا يُكف بها عن الجلد والرجم وتقطيع الأيدي والأرجل.

ولو رجعنا لروح الإسلام وكان القرآن الكريم هو مرشدنا ودليلنا لوجدنا أن الخالق سبحانه لم يفترض في الإنسان المسلم أن يكون ملاكاً يدب على الأرض، بل افترض بالإنسان الخطأ والوقوع في المعاصي ولذلك تكررت آيات المغفرة عشرات المرات في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ

لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] لا بل إن الكثير من الآيات القرآنية تختتم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤] وهو واسع المغفرة، وأرحم الراحمين ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [الفتح: ١٤].

ومن اللافت للنظر أن علماء المسلمين في هذا العصر تركوا كل قيم الإسلام ومشاكل المسلمين وما هم عليه من ذلك وهوان، وحشروا كل تعاليم الإسلام في أثواب النساء وتبرجهن وزينتهن، وفي قضايا الاختلاط والموسيقى والغناء. وكان ليس لدى الإنسان المسلم من هموم غير وجود مثل هذه السلوكيات من الحياة.

ناسين أو غافلين وجاهلين بأن حياة الإنسان لا يمكن أن تحشر في قالب لا يمكن الخروج عليه. وأن كل فعل له رد فعل معاكس، وأن الإنسان بطبعه يعشق حريته ولا يريد لإنسان مثله أن يقيد حركاته ويتحكم بسلوكياته حتى ولو كان ذلك باسم الدين وطلب الجنة. وهذا كان حال الإنسان المسلم وغير المسلم عبر المراحل التاريخية المختلفة.

لا بل وكما أسلفنا فإن القرآن الكريم لم يفترض بالإنسان أن يكون ملاكاً. بل افترض في هذا الإنسان الخطأ ثم التوبة، وكل بني البشر خطاؤون وخير الخطائيين التوابون، هكذا ورد في الأثر، حقيقة أن الكل يحترم ويجل من يتقيد حرفياً بفضائل الأخلاق ويتمسك بمكارم الصفات والسلوكيات. ولكن هذا لا يمكن أن ينطبق على جميع المسلمين.

والقرآن الكريم أعطى الحرية للإنسان في أخطر أمر نزل من أجله وهو الإيمان، فقد أعطى للإنسان الحرية في أن يؤمن أو لا يؤمن ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] وقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

[يوسف: ١٠٣]، فإذا كان القرآن الكريم قد أعطى للإنسان الحرية بهذا الأمر الخطير فكيف سيسلبهم هذه الحرية في جزئيات أخرى لا تمس جوهر الإيمان، إنه البعد عن فهم روح الآيات الكريمة والتي عالجت وتعاملت مع النفس البشرية تعامل الخالق الذي أوجدها والذي هو أخبر بمكنوناتها وخفاياها، وهي النفس الإنسانية المتقلبة الأمارة بالسوء والكثيرة الأهواء، والتي لا يمكن أن توضع في قوالب جامدة وتحصر في مساحات ضيقة فأفاق هذه النفس وسعها هذا الكون الفسيح.

أما هؤلاء المتفقهون ومدعو التقى والصلاح والسلفية والذين يريدون تعليب النفس البشرية والحد من تقلباتها فإنهم يجهلون أبعاد هذه النفس وهم أول من يخالف التعاليم الربانية وهم يظنون أنفسهم شديدي التمسك بها والحفاظ عليها.

جوهر تعليمات القرآن الكريم فيما يتعلق بالحرية الفردية هو الحرص على أن لا تشيع الفواحش في المجتمع وتمارس بأشكال علنية فاضحة. فالانحراف وارد في حياة كل إنسان ولكن بالتستر قدر الإمكان وعدم نشر هذه الانحرافات والتباهي بها كما يفعل البعض.

لذلك كانت عقوبات مثل هذه الانحرافات الشخصية تخضع وفق أحكام القرآن الكريم لشروط قاسية قبل تطبيقها، ومنها ما ورد النصح بالنهي عنه ولكن دون النص على عقوبات بعينها، لاسيما إذا انحصر ضررها على من يفعلها ولم يتعده لباقي أبناء المجتمع. هذا في الوقت الذي نرى به أن أي عمل يقوم به إنساني ويضر به إنساناً آخر أو مجموعة من البشر فإن عقابه وفق القرآن الكريم يكون بالسرعة الممكنة وبلا هوادة أو تهاون. لأن ذلك يمس حرية الآخرين وقد يمس أرواحهم أو أموالهم وأعراضهم وأمنهم الاجتماعي، والقرآن الكريم لا يحرص على شيء حرصه على الأمن الاجتماعي.

وتأمين الحرية والطمأنينة لكل من يعيش على الأرض الإسلامية. فحرية أي إنسان تنتهي عندما تبدأ حرية الآخرين. إن في أحكام القصاص في الإسلام وسواء

أكان الأفراد مسلمين أو غير مسلمين أما ما يؤخذ على هذه الأحكام من الأعداء والمغترين والحاقدين فإنها أقوال أناس لا يريدون وجه الله وصالح بني البشر. والتهاون بها يزيد من معدلات الجريمة والتحلل بكل أبعادها، وهو ما نراه جلياً في أقطار تدعي الحفاظ على حرية الإنسان وصون الحياة البشرية، فتلغي عقوبة الإعدام مثلاً وتتهاون بإيقاع القصاص بالمجرمين على اختلاف أنواع جرائمهم، وهو الأمر الذي أدى إلى ما نراه من تحلل وفوضى لم تشهد لها البشرية مثيلاً من قبل.

الموقف من حرية المرأة:

من المفارقات الغريبة وطوال فترات التاريخ الإنساني المعروف، أن العلاقة بين الرجل والمرأة وفي مختلف المجتمعات وعلى تنوع الثقافات واختلافها فإننا نرى أن علاقة المرأة والرجل علاقة تناصرية، تزكيها المعايير الثقافية والأيديولوجية التي تتناقلها الأجيال عبر التنشئة الاجتماعية. وإن كانت هذه العلاقة بين الرجل والمرأة قابلة للتطور نحو الأفضل، وحسب درجة ثقافة أبناء المجتمع ونوعية هذه الثقافة.

إضافة لنوعيات وسائل الإنتاج المتوفرة ومدى مشاركة المرأة في عملية الإنتاج والمساعدة في توفير مستوى معين من الحياة لأفراد أسرتها، فالمرأة المزارعة أو الراعية والآن العاملة في مختلف المجالات نراها أكثر حرية من المرأة التي ليس لها من عمل سوى الانجاب وأشغال المنزل. فهذه تكون عرضة للتحكم الذكوري بها وسلب الكثير من حريتها أكثر من غيرها.

أما نظرة الإسلام إلى المرأة فإننا نجد هذه الصورة بشكلها الصحيح في القرآن الكريم ليس غير أما المصادر الإسلامية الأخرى فقد خضعت لمفاهيم اجتماعية واجتهادات شخصية أملتها ظروف المجتمع وظروف الأفراد الذين كتبوا حول المرأة.

فالقرآن الكريم لم يفرق في الخلق بين الرجل والمرأة ولم يجعل للمرأة طبيعة

مختلفة عن الرجل قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ ﴾ [البقرة: ٢٢٨] والمقصود بالدرجة هنا كما ذهب معظم المفسرين هي درجة القوامة بكثرة القيام على خدمة النساء وقضاء حاجاتهن القوامة بكثرة القيام على خدمة النساء وقضاء حاجاتهن وبإنفاق الرجل من ماله.

فالإسلام لم يفرق بين رجل وامرأة في العبادة والتكليف والحساب في الدنيا والآخرة، فقد فرض على المرأة كل ما فرضه على الرجل، كما وعد المرأة بنفس الثواب والعقاب فكل الآيات التي تخاطب المؤمنين إنما تخاطب الرجال والنساء جميعاً وفي كل الحالات. ولم تفضل الرجل بشيء إطلاقاً. وهذا بعكس تصوير المرأة الشيطان والتي وردت في الكثير من قصص الأولين وآثارهم، ففي إسطورة الخلق الهندوسية مثلاً، نفخ براهما الخلاق في الجسد العملاق الذي انشق إلى نصفين نصفاً لرجل ونصفاً لامرأة، أطلت المرأة إلى رجلها وتساءلت في أعماقها، كيف استطاع ذلك العملاق أن يخرجني من نفسه؟ ولأنها مخلوقة من قوة الذكورة لابد للمرأة أن تبقى تحت جناحي الرجل. كما لابد لهذا الأخير من قمع رغباتها لأحكام وصايته عليها.

والاحتراس من شيطانية المرأة غدا أحد الدوافع العدوانية الذكورية حيالها، حتى ساد في أوروبا في القرون الوسطى الاعتقاد بأن للنساء قدرة على تبديل عقول الرجال بضروب من السحر، أو سحر بضائع الناس وسرقتها. أو أنهن يركبن ليلاً على ظهور الدواب مع حشد من العفاريت في صورة نساء.

ومن المعتقدات التي انتشرت أيضاً في القرنين الثالث عشر والرابع عشر أن بعض النساء قادرات على إلحاق الأذى والقتل بنظره من عيونهن الحاسدة، واتهم بعضهن باستحضار العفاريت وبتقديم القرابين للشياطين وإثارة العواصف، بحيث شنت محكمة التفتيش عام ١٢٩٨ حملة قوية للقضاء على السحر بحرة الساحرات علناً. أما في الشرق فقد أعلن (ماني) مدعياً أنه المسيح المنتظر، أن المرأة هي خير ما صنع الشيطان وهي عامله الأكبر في إغواء الرجل وإيقاعه في الذنوب. فإذا امتنع الرجل عن إقامة العلاقات الجنسية، والكف بالنساء، وعن السحر، وعاش عيشة الزهد فإن ما فيه من عناصر النور يتغلب على الدوافع الشيطانية ويهديه إلى النجاة.

في الإسلام ومصدره الأول القرآن الكريم لا نجد مثل هذه التوصيفات للمرأة. فالقرآن الكريم وصف مريم العذراء بشمائل لم يدركها أحد غيرها. وكذلك أقر للمرأة باتخاذ ما تراه من قرارات واختيارات في حياتها ولم تكن قصة إيمان امرأة فرعون وزوجها كافر وكفر امرأة لوط وزوجها نبي مؤمن إلا لتعطيا المثل على أن المرأة يمكن أن تستقل برأيها وتخالف زوجها فكرياً وكان ذلك قبل مئات القرون.

أما هذا الواقع المأزوم الراهن للمرأة المسلمة فإنه لم ينشأ ويستقر كل هذه المدة الطويلة من الزمن لم يكن إلا بسبب الانحراف عن تعاليم القرآن الكريم المصدر الأول للفكر والتشريع الإسلامي، والاعتماد على كتب التراث وتخريجات الفقهاء والتي كثيراً ما ابتعدت عن روح التعاليم القرآنية، لاسيما في قضايا اللباس

والاختلاط وزينة النساء وحقهن بالميراث وعدم الحضور إلى المساجد لا بل والتعليم بمختلف مراحله وأنواعه، وحرية اختيار الزوج وحرمانها كثيراً من حقوقها المدنية، وهي الأمور التي لم ترد في القرآن الكريم ولا الأحاديث الشريفة الثابتة عن الرسول ﷺ حتى أن علماء المسلمين في هذا العصر نسوا أو تناسوا كل مصائب الأمة وما يحيط بها من أخطار وركزوا كل اهتمامهم على إعادة حبس المرأة المسلمة وإعادتها إلى عالم الحريم، لا بل واعتبر البعض أن كل ما لحق بالأمة من كوارث ومصائب لم يكن إلا بسبب ما نالته المرأة المسلمة من تحرر نسبي وخروجها من عالم الحريم. هذا في الوقت الذي نجد به أن القرآن الكريم يتكلم عن النساء باحترام كامل ويعدهن مع الرجال مستوين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

والحقيقة أن هذه النظرة السلبية للمرأة في أذهان جماهير غفيرة من المسلمين إنما تولدت منذ عصور الإماء والجواري حينما كان الرجل يتزوج من أربعة نساء ويملك ما تيسر من الجواري، وهو الشخص الواحد والمعروف قدراته الجسمية، لذلك لم يكن يستطيع تلبية رغبات زوجاته إلى جانب ما يملك من إماء وجواري، ومع المدة تولدت لديه أحاسيس الشك مع الثقة بعدم المقدرة على التعامل مع عدد كبير من النساء، لذلك خاف على زوجاته الحرائر من الانحراف والخيانة، وأخذ يعمل على الاقفال عليهن، والحرص على عدم خروجهن من المنزل أو الاختلاط بغيره من الرجال، وهذا هو الأصل في وجود فكرة الحريم في المجتمع الإسلامي وهذه النظرة السلبية لمكانة المرأة وحريتها والتي وجدت من علماء المسلمين من شرّع لها وأفتى وكتب، وتناقلته الأجيال جيلاً بعد آخر دون الوقوف على الأسباب الحقيقية لهذه النظرة السلبية للمرأة وهذه المكانة الدونية التي وضعت بها.

وبعيداً عن فهم النصوص القرآنية أو حتى أخذها على علاتها وكما وردت. فالقرآن الكريم قبل ألف وأربعمائة عام ينظر للمرأة نظرة أسمى بكثير مما ينظر به إليها الكثيرون من المسلمين في العصر الحديث.

ويكفي أن ندلل على ذلك بموقف القرآن الكريم من عقوبة الزنا والتي فرضها على الرجل والمرأة بالتساوي وبتفاوت بين المتزوجين وغير المتزوجين. بينما نحن الآن نفرق تماماً بين عقوبة الرجل وعقوبة المرأة.

وكذلك الحال مع الموقف من الميراث، والتي كانت المرأة إلى عهد قريب تحرم منه تماماً وعكس ما شرع الخالق في كتابه الكريم.

هذا إضافة إلى أن الفلسفة التي ورثها المسلمون عن اليونان وبعض الأقوام الأخرى كان لها حظ وافر في الترويج لدونية المرأة بالقياس إلى الرجل.

وهذا إلى جانب الأخذ بالنص أحياناً دون ملاحظة ظروفه وهذا إن كان لا ينطبق على القرآن الكريم كلام الله سبحانه والصالح لكل زمان ومكان، إلا أنه ينطبق على الكثير مما قيل بأنه أحاديث نبوية وربما هي ليس كذلك، إضافة لاجتهادات العلماء وفتاواهم والتي قيلت ووضعت في أزمان وظروف خاصة بهم ولا تصلح لكل الأوقات والأماكن.

وخلاصة القول بالنسبة لموضوع المرأة أننا لابد أن نعترف بوجود خلل معين في واقع المرأة في المجتمعات الإسلامية، وإن علينا أن نصلح هذا الخلل من خلال عقائدنا ومفاهيمنا وقيمنا النبيلة، بعيداً عن التقليد الأعمى لاسيما للمرأة الغربية والتي لا نرى أنها أحسن حالاً بشكل مطلق، فربما أعطيت حرية ولكنها مشوبة بكدر من لون آخر. ويكفي أن المرأة الغربية تعتبر الآن أول امرأة في العصر الحديث تعود للمتاجرة بها فيما يسمى بتجارة الرقيق الأبيض والتي نراها تعبر مختلف قارات العالم. ولكن هذا لا يعفي المشتغلين على صناعة الفكر الديني وصياغة مفاهيمه من واجب إعادة النظر لتقويم ما اعوج ورأب ما تصدع ليعود لصورة

المرأة نقاؤها الذي أرادته لها سنة الخلق كما سنة التشريع. فإن كان وأد الجسد جرماً فوأد الروح والمعنى أشد وألم.

أما الأصل في ضمان الحرية الحقيقية للناس جميعاً وهو الحياة المعيشية الكريمة وتأمينها للجميع فقد ورد تفصيل بشأنها في فصل الموقف من المال.

آيات لرفع الروح المعنوية وتقوية الثقة بالنفس

الخالق سبحانه منزل القرآن الكريم على رسوله الأمين ليبلغ الرسالة ويحمل الأمانة هذا الخالق سبحانه أعلم بالنفس البشرية التي خلق فسوى، فهو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، لذلك فإن القرآن الكريم لم ينزل ليغير طبيعة النفس البشرية ويبدل الفطرة التي فطرها الله عليها، وإنما نزل ليهذب هذه النفس ويرشدها إلى سواء السبيل حاثاً إياها على اتباع الصراط المستقيم وترك أهواء هذه النفس اللوامة وأهوائها قدر الإمكان. وفي عصور مختلفة نرى أناساً ادعوا أنهم ما أتوا لتفسير العالم ولكن لتغييره وكان مصير هؤلاء الفشل الذريع، ولكن بعد أن أفسدوا في الأرض وأهلكوا الحرث والنسل وأذاقوا عباد الله الظلم والحرمان ألواناً، ونحن أبناء هذا العصر عشنا تجربة الشيوعية التي ادعت أنها ستغير كل ما درج عليه الإنسان من مفاهيم وقيم ومبادئ منذ أن كان على هذا الكوكب. وكلنا رأينا النتائج التي حصدتها البلدان التي حكمتها الأنظمة الشيوعية، وكما رأينا وسمعنا ما تعرضت له شعوب تلك البلدان من ظلم وفقر واذلال، والذي أدّى إلى انهيار تلك الأنظمة والقائمين عليها.

وهذا لا يعني أن النظام الآخر والمسمى بالنظام الرأسمالي هو النظام الأمثل، بل إن هذا النظام بدوره يمارس أبشع أنواع الظلم وسوء توزيع الثروات، كما يمارس الجشع وألوان العنصرية والاعتداء على الأمم الضعيفة، متذرعاً بالحجج الواهية واختلاف الأكاذيب والتهم التي لا أساس لها وما عملية غزو العراق الأخيرة إلا خير برهان على ما نقول.

القرآن الكريم لم يعتبر الإنسان المسلم معصوماً ولا بعيداً عن الخطأ أو التأثر بما يتأثر به غيره من عباد الله، فالإنسان المسلم يمكن أن يخطئ وينحرف أحياناً عن

الصواب، وهو معرض في حروبه للنصر والهزيمة.

وبما أن خوض أي أمة للحروب والصراعات يعتبر من أخطر ما تمر به من مراحل حياتها، وبما أن الإنسان المسلم أو مجموعة كبيرة من المسلمين يمكن أن تتعرض للهزيمة وخسارة بعض المعارك، والتي يكون لها دائماً الأثر الأكبر في مسيرة الأمة بسبب ما قد تعاني من هزيمة نفسية وانهيار الروح المعنوية، الأمر الذي له أكبر الأثر في حياة الأمة بمختلف مناحيها لذلك ولرفع الروح المعنوية عند الإنسان المسلم في حال تعرضه للهزيمة في المعارك، ولشد أزره وإعادة الثقة إلى نفسه نرى أن القرآن الكريم احتوى على آيات بينات بها الشفاء للنفس المنهارة برفع معنوياتها وتعزيز الثقة بنفسها وأن ما جرى لا يعتبر نهاية العالم أو فقدان الأمل والثقة بالنصر من جديد وإعادة الروح للأمة وبعث حياة متجددة في نفوسها لئلا يسيطر عليها القنوط وتصيبها الذلة والمسكنة إلى ما لا نهاية.

وكم هو حري بأمتنا في هذا العصر الذي نعيش وأمام هذه الهزائم المتلاحقة التي تمنى بها، وخوفها الدائم من قوة أعدائها حتى وصل بها الأمر حد أن تفقد الثقة بقدراتها ومقدرتها على الصمود ورد كيد الطامعين والمعتدين؛ كم هو حري بأمتنا أن تتدبر آيات القرآن الكريم والتي هي لا غيرها يمكن أن تعيد الروح لهذه الأمة وتجعلها تهب متمردة على واقعها لتأخذ مكانها من جديد بين الأمم وأن تعود لتقود قافلة البشرية من جديد بعد أن سارت طويلاً في ذيل هذه القافلة.

ولأهمية الحفاظ على الروح المعنوية نرى بأن مختلف جيوش العالم المعاصر قد أنشأت أقساماً لما يسمى بالتوجيه المعنوي وكل مهامه العمل على رفع الروح المعنوية لدى أفراد الجيوش بشتى الطرق ومختلف الأساليب والتي منها دحض الدعايات المعادية ومحاولة زرع الخوف والرعب في نفوس الأعداء بمختلف وسائل الدعاية والإعلام وزرع الجواسيس والعملاء في صفوف الأعداء، في الوقت الذي تعمل فيه هذه الأجهزة لرفع الروح المعنوية في صفوف جيوشها وعمل الدعاية

المضادة لدعاية العدو وبمختلف الوسائل من إذاعات مسموعة ومطبوعات واستخدام رجال الدين والمفكرين وغيرهم للمساهمة في هذه المجهودات.

والمتمعن لآيات من القرآن الكريم يقف على عمق ما تعرضت له هذه الآيات الكريمة في مخاطبة النفس البشرية والنفاذ لأعماقها ومعالجة أحوالها سواء في حال النصر أو الهزيمة. وكان لهذه الآيات أكبر الأثر في مسيرة الدعوة الإسلامية وتصحيح مسارها كلما انحرف عن سواء السبيل، فكانت الانتصارات الإسلامية الباهرة التي أعقبت كل هزيمة وقعت في صفوف المسلمين، مما حفظ لهذه الأمة شخصيتها ومكانتها عبر التاريخ والتي مكنتها من استيعاب أعتى الأعداء وإدماجهم في صفوفها وليصبحوا من أشد المدافعين عن الإسلام وأرضه وإذا استعرضنا بعض آيات القرآن الكريم والتي تعالج قضايا النصر والهزيمة فإننا سوف نقف على عظمة المعاني في هذه الآيات ومدى تأثيرها في النفس البشرية لتعالج كل ضعف أصاب هذه النفس وكيف تعيد الثقة للنفس المهزومة وتحضها على الثبات والتعامل مع الوقائع بنفس أبية شامخة يمكن أن تصحح الخطأ كلما حدث وتقوّم الاعوجاج وتعدل المسيرة من جديد نحو النصر والعزة للتمكن من الدفاع عن العقيدة والنفس والأرض والتمكين لحرية الدعوة لمنهج الله دون عقبات.

وسبحان الخالق الرؤوف بعباده والذي يخبرنا سبحانه وهو الأعلم بمكنونات النفس البشرية بأن هذه النفس بطبعها تكره القتال والحروب وأن غايتها دائماً تحقيق السلم والعيش بأمان وسلام وطمأنينة فنراه سبحانه يخاطب المسلمين بقوله:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

فالقتال إذن لا يمكن أن يكون غاية بحد ذاته إلا لأصحاب النفوس المنحرفة الشريرة والذين رأينا منهم الكثير عبر التاريخ؛ فالقتال لا ينتج عنه سوى الفناء والخوف والدمار. لذلك كرهته النفس البشرية السوية. وبما أن نتائج القتال هي

تلك التي ذكرنا وغيرها فليس غريباً أن يخافه العباد ويخشون خوض معتركه ويحسبون مختلف الحسابات للعدو الذي سوف يقاتلون وربما خشوه وخافوا منه قبل بدء القتال لأنهم ربما سمعوا عن أعداده الغفيرة أو عدته التي لا قبل لهم بها. لذلك وحسماً لهذا الأمر نرى هذه الآية القرآنية التي تحث المسلمين إلى عدم الاستماع للدعايات المفرضة والتي تصور قوة الأعداء وكثرتهم، لأن الأصل في الإنسان المسلم هو الإيمان بالله والتوكل عليه. قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

أما إذا حصل القتال وأصاب المسلمين شيء من الضر أو الهزيمة وهو أمر متوقع دائماً لأن المسلمين كغيرهم من البشر يمكن أن يضعفوا أو يخطئوا الحساب وغير ذلك من الأسباب الكثيرة التي تؤدي لعدم النصر، أو النصر ولكن بتكاليف باهظة الثمن، ولرفع معنويات المسلمين وحتى لا يصيبهم اليأس والقنوط نرى الخالق سبحانه يخاطبهم بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٩- ١٤٠].

فالمسلمون هم الأعلون مهما أصابهم بحكم إيمانهم بالله سبحانه والذي يعوضهم عن كل ما يمكن أن يخسروه في هذه الحياة الدنيا، هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى فإن طرفي القتال غالباً ما يصابون بالأذى، وهنا كأن الخالق سبحانه يخبر المسلمين بأن ما قد يصيبهم من أذى ليس مقصوراً عليهم لأن هذا معناه انهيار الروح المعنوية بشكل كبير، وإنما أنتم أيضاً أيها المسلمون أوقعتهم بهم نفس ما أوقعوا بكم من أذى ولكنكم ستبقون الأعلون بحكم إيمانكم.

وفي نفس المعنى تقريباً وببلاغة القرآن المعهودة يقول سبحانه مخاطباً المؤمنين الذين يتألمون ربما من شدة القتال كبشر لهم مزايا أي أناس آخرين جسمياً ونفسياً، الخالق سبحانه يخاطب هؤلاء المؤمنين المتألمين ويشد من أزرهم بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

إذن الألم يشعر به الطرفين المتقاتلين ولكن ميزة المؤمنين أنهم يرجون من ربهم ما لا يرجوه عدوهم من عز وسعادة في الدنيا لمن تكتب له الحياة بعد القتال، ومن جنات عرضها السموات والأرض في حال نيل الشهادة وهي غاية الوجود البشري في نظر الإسلام والمؤمنين برسالته، فهم يرجون المكاسب الثمينة في كلا الحالتين، وهو الأمر الذي لا يتوفر لأعداء الإسلام والمسلمين. وهذا أمر ليس هنالك ما هو أكثر أهمية منه في الحض على الثبات وتحقيق النصر بعيداً عن الخوف والحسابات الدنيوية وهو الأمر الذي لا يتوفر لغير المسلمين. وهذا هو الأمر الذي جعل المسلمين يغيرون وجه التاريخ ومجرياته في سنوات قليلة ويقضوا على أعظم دول العالم في ذلك الوقت وهم النفر القليل والذين كانوا قبل سنوات معدودات بدواً يتيهون في الصحاري بحثاً عن مصدر رزق لهم.

ولضرب الأمثلة للمسلمين وتثبيتاً لقلوبهم وقت القتال والشدة نرى أن الخالق سبحانه يذكر المؤمنين المسلمين من عباده بأولئك الذين قاتلوا سابقاً مع بعض الأنبياء فما ضعفوا وما استكانوا قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. وهذا دافع للمسلمين للصبر ومجاهدة النفس وعدم الضعف أمام الأعداء وليس لتحقيق مكاسب دنيوية ولكن في سبيل الله ومن أجل أن تكون رايات الحق والعدل والإنسانية مرفوعة دائماً وتظلل العدد الأكبر من بني البشر.

كانت هذه الآيات الكريمة وغيرها التي دفعت بالمسلمين الأوائل للاندفاع للقتال بكل ثبات وعزم وإيمان، يتسابقون إليه كما يتسابق غيرهم لمتاع الدنيا ومكاسبها وغنائمها.

والحقيقة أنه لولا هذه الروح التي غرسها القرآن الكريم في نفوس المسلمين وأرواحهم لما حقق المسلمون ما حققوا من معجزات النصر التي أذهلت العالم، فبضع مئات أو آلاف قليلة من المسلمين اندفعوا لتسطير صفحات جديدة في تاريخ الإنسانية ولتقضي هذه القلة على أعظم الإمبراطوريات القديمة التي عرفها التاريخ وبسنوات قليلة لم يسبق أن سجل أي قوم مثيلاً لها لا من قبل ولا من بعد. مئات من المسلمين غيروا مسيرة التاريخ في بضعة عشر عاماً من عمر الزمن يملأ نفوسهم إيمان راسخ لا يتزعزع بأنهم حتى لو فقدوا حياتهم في سبيل الله ونشر رسالة الإسلام السامية فإنهم سوف لن يخسروا شيئاً لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون. قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

أجل لقد آمنوا بآيات ربهم إيماناً راسخاً رسوخ الجبال، ما أصابهم الشك لحظة فما هانوا ولا جزعوا، بل اندفعوا لنيل جنات عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، وعلى رأس هؤلاء المتقين الشهداء الذين قدموا أرواحهم ودماءهم رخيصة في سبيل الله ومن أجل نصرة الحق أينما وجد على هذه الأرض، ونشر العدل والمساواة بين أبناء البشر جميعاً، لا فرق بين عربي ولا عجمي إلا بالتقوى.

وبعد فهذه هي كلمات الخالق سبحانه ملأت نفوساً فانتصرت وتغلبت على قوى الشر والعدوان أينما وجدت، ما حسبت لكثرة أو لعدة حساباً ولو للحظة واحدة لا لشيء إلا لأنها على خالقها متوكلة وبنصره واثقة ما دامت لأوامره مطيعة منفذة. لا تلغي في الوقت ذاته ما منحها الخالق سبحانه من عقول تتدبر بها أمورها ولا تلقي بنفسها إلى التهلكة، تعرف متى تقاتل ومتى تطلب السلم وتكف

عن القتال. لا تعتدي على من يسالمها وإن اختلف معها في العقيدة، وتود كما أمرها خالقها أن يسود الوئام والسلام بين الأمم كافة بسيادة الحوار والجدال بالتي هي أحسن فالله سبحانه لم يشرع القتال لأجل القتال ولكنه شرعه دفاعاً عن النفس ورفعاً للظلم عن عباده أينما كانوا ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره الكافرون.

هذا ويجب التنويه هنا بأن رب العزة سبحانه وهو العليم بنفوس عباده التي خلقها ما أنزل هذه الآيات لرفع معنويات عباده الصادقين إلا بعد أن أمرهم بتمام الاستعداد قوة وعدداً إذا ما أرادوا أو فُرض عليهم القتال فقد قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. كما أنه سبحانه أمر المسلمين بعدم إلقاء أنفسهم في التهلكة فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

أما بعد فهذه آيات كريمة ما خاب يوماً ولن يخيب من يتمسك بها ويعمل لتحقيق معانيها. فهي أعمدة رئيسة ضمن ما أوجده القرآن الكريم من أعمدة لبناء إنسانية تمتاز بسمو الأرواح وصدق المعاملة والابتعاد عن كل ما يمكن أن يضل به الإنسان ويشقى، والآن المطلوب من كل مسلم مؤمن صادق الإيمان أن يتمثل آيات القرآن الكريم ويعمل بها للخروج بالأمة مما تعاني من هزائم وانعدام ثقة بكل ما تملك من مقومات وجودها وشخصيتها وللخروج من كل ما تعاني من أزمات وعلى مختلف الصعد يعيشها أبناء الأمة ولا يعرفون طريقاً للخروج منها والتغلب عليها.

الحج وتربية النفس البشرية

اهتم القرآن الكريم بالنفس الإنسانية كونها محور رسالة الإسلام، كما كانت محور كل الرسالات السماوية. فالخالق سبحانه شاء أن يقدر هذا الإنسان ويعظمه، فهداه سواء السبيل ودله على ذاته سبحانه، فنجد القرآن الكريم يهتم بإثبات الخالق وتوحيده، وإثبات البعث والحساب، ثم يهتم بعد ذلك بالعمل على تربية النفس الإنسانية والاستعلاء بها إلى آفاق سامية من التهذيب والتدريب.

وللطبيعة في الحج دروس ومواعظ كثيرة، مثبتة في النصوص القرآنية التي تتحدث عن هذه الشعيرة الهامة في حياة الجماعة الإسلامية.

فمناسك الحج وما فيها من ممنوعات على المحرم دروس نفسية قيمة، هدف إليها القرآن الكريم وأكدها، وحث المسلمين على التمسك بها وتنفيذها فهو يأمر المسلمين الذين يؤمون البيت الحرام ليؤدوا شعيرة الحج ألا يعتدوا على ما في الطبيعة من طير وحيوان، ويأمرهم ألا يتعدوا حدود الله وهم في حرم الله وباحته يناهيهم عن الصيد إذا هم محرمون، ويبيح لهم طيبات الأنعام، فالحج في صورته العملية فترة استجمامية تركن فيها النفس إلى الراحة وتخلد فيها إلى استشعار معاني الخير وتتجرد من ماديات الحياة العادية وملابساتها الحسية فهي لذلك فترة من فترات التدريب النفسي الواعي، ولقد جعل القرآن الكريم الحج منطقة أمان وسلام حقيقي، يطمئن فيه كل مخلوق حي للإنسان المؤدي لشعائر الله، والحيوان والطير اللائذ بحرم الله وفي كنفه.

ومن هنا نجد القرآن يخاطب أولئك الذين ألغوا حياة الصيد والقنص في عامة أيامهم قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا

يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة: ١]، فالقرآن يبين لهم أن هذا حكم الله، وحكم الله هو الذي ينبغي أن يتبع، لأن الله برأ النفس الإنسانية وهو الأعلم بكل ما يهمها من بعيد أو قريب، وهو الأعلم بما تحتاج إليه من ضبط وتربية وتدريب، فهو سبحانه إذ يربط هذا الحكم بإرادته فإنما يهدف إلى التأثير الوجداني في المخاطبين، وإلى استجاشة مشاعرهم لقبول ما أمر الله به من أمر أو نهي وأخذه عن طواعة واستسلام.

وبعد ذلك يفتح لهم سبحانه سبيل ما تهوى أنفسهم من صيد، فيحل لهم ذلك بعد الإحرام فيقول سبحانه: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ﴾ [المائدة: ٢] وذلك بعد فترة التدريب وثم درس آخر من الطبيعة يتجلى في شعائر الحج وذو علاقة بتربية النفس الإنسانية وتدريبها وتهذيبها أيضاً، فالقرآن ينبئ المسلمين في الحج أنه سيبتليهم بشيء من الصيد السهل القريب تناله أيديهم ورماحهم من غير مشقة ولا عناء، وذلك ليعلم من يخاف الله بالغيب ممن لا يخافه، وبذلك يضعهم على المحك في التجربة الجديدة ويحملهم على نوع من الضبط النفسي فريد، ولا يمكن أن يتحقق إلا في هذا المكان الآمن الوديع، ثم إنه سبحانه يتبع الحديث عن هذا الدرس المفيد بضرب التهديد والوعيد لأولئك الذين لا يريدون أن ينتفعوا منه، يقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٤].

ولكن الله سبحانه الذي سوى هذه النفس الإنسانية يعلم ما جبلت عليه من نزوع إلى الماديات ومن استسلام للشهوات، فمخالفة تلك الدروس التي تقدمت متوقع وجائز، وما دام الأمر كذلك فلابد من علاج لما يترتب على هذه المخالفات من تبكيت، وما يرافقها من شعور بالاثم، في مكان لا ينبغي لأحد أن يأثم فيه، ولا يخالف أمراً من أوامر الخالق سبحانه (وهذا بالطبع لا يعني أن الاثم مسموح به في

الأماكن الأخرى).

لذلك فإن القرآن يرفع عن كاهل الضمير الحساس ما يشعر به من تبكيت بأن يضع الكفارات التي هي إحدى وسائل القرآن المجدية في حل أزمة الضمير المبكت عن شعور صاحبه بأنه اقترف ذنباً أو اجترح إثماً، مثلها في ذلك مثل الاستغفار والكفارة المشار إليها تكون من مستوى الصيد المقتول عدداً قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥]، والذي لا مراء فيه أن الذي يؤدي ما عليه من كفارة بعد أن تجاوز المحظور تنتهي أزمته النفسية، وتزول حالته التبكيتية ويعود له الاطمئنان والشعور بالراحة من جديد فالقرآن الكريم قصد إذاً بتجريح الصيد في الإحرام تأمين الطير والحيوان في البر والبحر من جهة، وتهذيب حس المحرم وشعوره من جهة أخرى. وإشعاره بالوشيجة التي تربط الأحياء جميعاً، وما لها من حرمة في جميع الصور والأشكال، وهو بذلك خطا خطوة نراها فريدة في تربية النفس الإنسانية وتهذيبها والاستعلاء بها على الماديات، وتعويدها على استشعار المعاني السامية والمثل الرفيعة، وتوثيق صلتها بهذا الكون الفسيح وإشعارها أن الإنسان مع عناصر الطبيعة كالأسرة الواحدة في درب الحياة الطويل.

فلسفة الصيام في جهاد النفس

النفس البشرية التي خلقها الله سبحانه وتعالى ووضعها أمام خيارات قد تؤدي بها لطرق الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، أو توردها طرق الشقاء والهلاك، وحمّل الإنسان مسؤولية الأعمال التي تقوده لهذه أو لتلك، بعد أن رسم لـه طريـق الخـير والنجاة، كما حذره من الطريق الأخـرى ﴿هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، ولأن الله رؤوف بعباده ولا يريد لهم سوى سـلوك الـصراط المـستقيم الذي ينجيهم من عذاب الدارين، لذلك فقد أنزل عليهم أنبياءه لهدايتهم وإرشادهم لدروب الخير والنجاة، بأن أمرهم باتباع سلوكيات محددة وعبادات تؤمن لهـم دوام الاستقامة على الطريق، كما نهاهم عما يقودهم للخسران والمهالك.

وكانت فريضة الصيام من أعظـم الفـرائض الـتي كلـف الخـالق سـبحانه بهـا الإنسان ليختبر مدى طاعته وصدقه، وقوة إرادتـه وتحملـه الابتعـاد ولـو لـساعات قليلة عن ملذات الحياة ومتعها.

فرمضان هو الفترة الروحية التي تجد فيها الجماهير والأفـراد فرصـة لإصـلاح تاريخها، ومحطة لتعبئة القوى النفسية والروحية والخلقية التي تحتاج إليها كل أمـة في الحياة. ويحتاج إليها كل فرد في المجتمع، فالأمم والأفراد تحتاج في حياتها الطويلة إلى فترات من الراحة والهدوء تصلح ما فسد فيها من أوضاعها، وتجدد ما كاد يبلى من مقوماتها وتعالج ما ساء من شؤونها، وهـذه الفـترات هـي اللحظـات الفاصـلة في تاريخ الأفراد والجماعات، فإن عرفت كيف تستفيد منها، كانت مفتاحاً لكـل خـير تناله في المستقبل، ولكل نصر تحرزه في المعارك، ولكل خلود تسجله في التاريخ.

ورمضان يمنحنا فيما يمـنح تـذكيراً بـالحق الـذي تقـوم الـسموات والأرض عليه، ويمنحنا القوة التي لا تنتصر أمة بدونها، وشغفاً بالحرية التي لا تتم الكرامة الإنـسانية إلا

بها. هذا هو بعض ما يمنحنا رمضان في أيامة الجائعة العطشى، فما من صائم يفهم معنى الصوم ويتحقق حكمته وفلسفته إلا وكان مناضلاً في سبيل الحق لا تلين له قناة، قوياً في حلبة الصراع لا ينهزم منه يتمتع بأكر معاني الحرية، لا تعلق به ذلة ولا عبودية، إن المسلم الصائم طواعية واختياراً وعبودية لله وخضوعاً لجلاله ورجاء للقرب منه والأنس بحضرته يرى الأنانية والأثرة والعزلة والانقطاع عن مشاركة المجتمع في آلامه وأحزانه، يرى في كل ذلك باطلاً ما أحراه أن يترفع عنه وينتصر عليه. ويرى في الأهواء والشهوات والظلم والبغي والعداوة والبغضاء ضعفاً يقتل روح الأمة ما أجدر به أن يثور عليه ويقف دونه، ويرى في لذة المناجاة مع الله وتنفيذ شرعه فيما نهى عنه وأمر حرية تنأى به عن العبودية لغير الله من طعام وشراب ولذة وطمع وأماني كاذبة. فهو الحر دائماً وأبداً، حر في القدرة على أن يتحكم بعواطفه وميوله، فيحبس عنها ما يشاء ويطلق منها ما يشاء، إنه هنا حر الروح ولو أطبقت عليه الجدران، حر الفكر ولو عاش في أرض قفر، حر الإرادة ولو كبل بالحديد وهذه هي الحرية التي تليق بكرامة الإنسان وأين منها حرية الأشباح والأجسام.

بهذا الفهم الدقيق لرمضان وفلسفته، وبهذا التخلق الكامل بالصيام وأدابه، سجل تاريخنا القديم والحديث من النصر في معارك الحق آيات بينات، وترك للإنسانية من أبطال الإصلاح والفتوح والحكم والعلم أعلام شامخات فهذا هو نصر القلة القليلة من المسلمين في بدر يوم السابع عشر من رمضان يخلّده القرآن الكريم في محكم آياته، وسواء أكان المقاتلون صائمين أو لا بحكم وجودهم في ميادين القتال، إلا أن مفهوم الصيام ذاته وأجواء رمضان المعطرة المباركة تبث فيهم من القوة ونصرة الحق والحرية الروحية الكاملة ما يجعلهم يخوضون المعركة أقوياء أحراراً. إنه خلق الصيام وآدابه تلك التي لا تزال تذهل كبار الباحثين في أسرار انتصارات المسلمين المتلاحقة خلال سنوات معدودة وعلى أعظم قوى العالم في ذلك الوقت. إنه خلق الصيام من عفة وسمو وتضحية وفداء، وتحمل للشدائد وخضوع لله واستعلاء على كل ما سواه، واستهزاء بقوى الباطل مهما كثرت

وبلغت من القوة المادية لقد وصلوا أرواحهم بقوة الله، ومن ذا الذي يغلب الله والله غالب على أمره. ولو وقفنا لحظات مع انتصارات الضعفاء على الأقوياء لأدركنا سريعاً أن الحرب لا ينتصر فيها الضعيف على القوي، والقليل على الكثير، والأعزل على المسلح إلا إذا كانت له أخلاق الصائمين.

وبعد فها هو رمضان، والذين يستقبلونه على أنه شهر جوع نهاري وشبع ليلي وتلاوة الذكر باللسان ونوم في المساجد بالنهار لن يستفيدوا منه، وأما الذين يستقبلوه على أنه مدرسة لتجديد الإيمان وتهذيب الخلق وتقوية الروح واستئناف حياة أفضل وأكمل، فهؤلاء هم الذين يستفيدون منه، وهم الذين يجدون في نهاره لذة الأبطال في المعركة، قد اصطلوا بنارها وغبارها ويجدون في مسائه وفي ليله وفي سمره وفجره لذة المنتصرين في المعركة في ساعاتها الأخيرة وقد أغذوا السير لقطف ثمار النصر على عدو الله وعدوهم.

وهم الذين تفتح لهم أبواب الجنان في رمضان، وتغلق عنهم أبواب النيران، وتتلقاهم الملائكة ليلة القدر بالبشرى والسلام، هؤلاء هم الذين ينسلخ عنهم رمضان مغفورة ذنوبهم مكفّرة عنهم سيئاتهم مجلوة بنور الله قلوبهم، مجددة بقوة الإيمان عزائمهم، يتمتعون باطمئنان أنفسهم وصفائها وخلوها من الأدران والاحن والضغائن، فلا عقد نفسية وما يرافقها من قلق واضطراب واكتئاب ولا أمراض تصيب النفوس هي أشد فتكاً من الأمراض الجسدية، ولا يعاني منها غير أولئك الذين ابتعدوا عن دروب الإيمان وما يفرضه من سلوكيات وممارسات بها كل الخير والنفع للإنسان كفرد وللمجتمع وللإنسانية عموماً.

وما أحوجنا اليوم لإيمان قوي يعمر قلوبنا ونفوسنا وينعكس على أعمالنا وممارستنا لتصلح أحوالنا وننتصر على أعدائنا وتُختم بالصالحات الباقيات حياتنا الدنيا الفانية.

كيف تعامل الإسلام مع قضية الجنس

لعل قضية الجنس من أهم القضايا التي تشغل بال الأجيال الشابة في عالمنا الإسلامي المعاصر، فالجنس يشغل بال الشباب من الجنسين ويأخذ الكثير من وقتهم حديثاً وعملاً، تمهيداً وتدبيراً جداً ومزاحاً، تصوراً وواقعاً. وتصل المشاغل بالجنس وتغلغله في الأفكار والمشاعر والتعبيرات والتصورات ألا يكتفي الناس بالحديث عنه بألفاظه المباشرة وميدانه الأصيل، بل ينقلون ألفاظه بطريق الاستعارة إلى موضوعات أخرى لا دخل لها بالجنس، كالنصر والهزيمة والسيطرة والخضوع... الخ، كما تستغل كل لفظة وكل إشارة وكل استعارة قريبة أو بعيدة للتعبير عن أعمال جنسية بكتابات يمكن أن تحمل معنين، ولا يتورع عن ذلك بمجالسهم الخاصة أناس يعرفون بالوقار والتزمت، أو يعرفون بنظافة المشاعر والسلوك.

والنساء والرجال سواء في انشغالهم بقضايا الجنس والحديث حوله، وكل في جوه الخاص به.

إنها حقيقة مسألة تستلفت النظر، وتستحق أن يبحث فيها عن الأسباب، فليس من الطبيعي ولا من الخير أن تنفق شعوب كاملة طاقتها في أمور الجنس، ولو كانت مجرد قصص ونكت وأحاديث، لأن ذلك يشغلها عن أمور أخرى لها أهمية كبرى في حياتها. كان من الأجدى أن توجه إليها الطاقة وينصرف فيها الجهود ولاشك أن الجنس طاقة بشرية طبيعية تحتاج إلى إشباع، إلى جانب مهامها الأخرى في الحياة كحفظ النسل الذي يعمر الأرض.

والقرآن الكريم الذي نزل ليهدي الإنسان إلى الطريق القويم في حياته لم يغفل هذا الجانب في حياة الإنسان وأعطاه المعاني والأوصاف الحقيقية والواقعية فقد وصفه بأنه متعة للإنسان:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤].

كما قال عليه الصلاة والسلام: "حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة" والوصف هنا لا شك ينطبق على الرجال والنساء وإن جاء بصيغة حب الشهوات من النساء، من أجل تخفيف الضغط على الأعصاب إلى أصغر مدى ممكن، وإراحة النفس من كثير من عوامل الاضطراب ولكن مع كل السهولة التي شرعها الإسلام في عملية الزواج إلا أنه جعل منه ميثاقاً غليظاً ترتبط به القلوب ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

ولقد أمر سبحانه الزوجين بالتعفف والإخلاص كل للآخر لتستقيم الحياة الزوجية وتسمو معانيها ويحتفظ الإنسان بقيمه الإنسانية النبيلة، وحتى لا تشيع الفاحشة في المجتمع ويسود الانحلال ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠].

وهنا تظهر لنا قمة المساواة بين الرجل والمرأة في الإسلام، حيث أمر الرجال والنساء معاً بأن يغضوا أبصارهم ويحفظوا فروجهم.

فقد وردت صيغ كثيرة في القرآن الكريم يخاطب بها الرجال ولكنها تنطبق على الجنسين معاً. القرآن الكريم إذن وصف الحال كما هو، وصف الجنس بأنه شهوة ومتعة، لا كما يحاول البعض أن يتهرب من هذا وكأنه أمر مشين ليركز على أن الهدف من الزواج ليس إلاّ السكينة وحفظ النسل وما إلى ذلك، متجاوزين ما

جاء في الآيات المحكمة من نصوص ومعان واضحة لا ليس فيها.

فالقرآن الكريم المنزل من رب العالمين، العالم بما يجول في نفس الإنسان، والخالق فيه الغرائز كلها حث على إشباع هذه الغريزة وبالسرعة الممكنة، حتى لا يتحول الأمر عند الإنسان إلى كبت وحرمان وتوجيه الطاقات كلها لإشباع هذه الغريزة بطريقة أو بأخرى. فقد أمر الإسلام بالتبكير بالزواج. وحدد مصارف الجنس بما أحل الله، كما أمر بالتخفيف من المهور ونفقات الزواج، لا بل جعل عملية الزواج والاقتران ذاته عملية في منتهى اليسر والبساطة، ولم يحطها بهالات من الطقوس والمراسم، والإسلام لا يستقذر الدوافع الجنسية، لا بل يعترف بها اعترافاً صريحاً واضحاً على أنها أمر واقع وهي جزء هام من حياة الإنسان لا يستطيع منها فكاكاً ولو أراد، وقد تعامل مع الإنسان من هذا المنطلق. لا بل نرى أن القرآن الكريم يسرد الكثير من قصص الجنس والحب لكي يضرب للناس المثل الأعلى والتصرف السليم في كل موقف، ولتصبح تلك الأمثال قدوة للبشرية على مر الأجيال. من ذلك قصة العفة والإرادة متمثلة في نبي الله يوسف مع امرأة العزيز في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤].

وكذلك قصة ابنة شعيب التي أعجبت بسيدنا موسى عليه السلام لأمانته وقوته فقالت لأبيها: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

ففهم الأب وقال لموسى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ﴾ [القصص: ٢٧].

كذلك صور القرآن الكريم الجانب القبيح في عملية الجنس حينما وصف ضيوف سيدنا لوط: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٧].

القرآن الكريم إذن اهتم بقضية الجنس عند الإنسان وحدد طرق إشباعها. أما هذا الكبت الذي تعاني منه الأجيال الإسلامية المعاصرة فإن الإسلام ليس مسؤولاً عنه، إنما تقع المسؤولية في ذلك علينا نحن المسلمين الذين ابتعدنا عن تعاليم الإسلام الصحيحة واتبعنا عادات وتقاليد جاهلية بعيدة كل البعد عن الإسلام وأحكامه. ولو أردنا إيجاد الحل الإسلامي لهذه القضية الهامة لما تعذر علينا ذلك. ففي الإسلام الحلول الميسرة والتي تساير كل زمان ومكان.

فهل نحن فاعلون؟

القرآن الكريم والموقف من المال وأثر ذلك في النفس البشرية

قد يعجب الإنسان لموقف الإسلام من قضية المال وما أعطاه من أهمية في حياة البشر، وما عرض من نظرة تصلح لكل زمان ومكان، أما العجب فيتمثل في عرض الموقف من المال في عصر وبيئة لم يكن فيهما مجال كبير لإنفاق المال والتمتع بكثرة ما يملك الإنسان منه في أغراض الدنيا المختلفة، فالإسلام كما هو معروف نزل في بيئة يغلب عليها الطابع الصحراوي حيث حياة التقشف والرضى بالقليل من متاع الحياة. هذا من ناحية أما من الناحية الأخرى فإن العصر الذي نزل به الإسلام كان عصراً ما تزال فيه البشرية في مختلف أنحاء الأرض تحبو نحو شيء من استغلال ما وهب الله لعباده على هذا الكوكب ولكن من يقرأ موقف الإسلام والقرآن الكريم بوجه خاص من قضايا المال وحب الإنسان له والحرص على جمعه وعدم التفريط به وأن كثر مقداره ومنعه عن بقية عباد الله المستمتعين والمحتاجين، وهي الأمور التي تكررت كثيراً في الآيات المتعلقة بالمال في القرآن الكريم، فالقرآن وضع الضوابط لكيفية جمع المال وانفاقه وبيّن أفضل الطرق وأسلمها لكيفية التداول بالمال في المجتمع بحيث يرتفع الظلم ويسود العدل بين العباد، كما حدد كيفية وحدود تدخل السلطة الحاكمة في الإشراف على المال سواء منه العائد للدولة أو للأفراد.

نقول من يقرأ موقف القرآن الكريم من المال. والأهمية القصوى التي أولاها له لا يظن إلا أن القرآن الكريم يخاطب هذه الأجيال المعاصرة والتي تعيش حياة يمكن أن تنفق به ما لا حصر ولا عد له من الأموال، حيث تطور وسائل العيش الدائم وظهور ما لم يكن في مخيلة أي إنسان من أدوات العصر والتي لا تقف عن حد وهي في تطور وتزايد يوماً بعد آخر. سواء في مجال اللباس أو الغذاء وطرق

المواصلات والاتصالات، ونوعيات المساكن الحديثة وما تحوي من فرش وأثاث، إلى جانب متطلبات الحياة المختلفة الأخرى من رحلات وإنفاق على التلعيم ودفع الضرائب المستحقة وما إلى ذلك من وجوه إنفاق للمال لم يكن معروفاً من قبل.

صحيح أن المال يعتبر عصب الحياة عبر مراحل تاريخ البشرية ومنذ نشوئها، ولكن الحاجة إليه لابد أنها متفاوتة بين عصر وآخر، فأحياناً يوجد الإنسان في بيئات لا يعرف أين ينفق بها المال وإن توفر لديه الملايين منه لأن ليس هنالك ما يمكن الإنفاق عليه. والأمور هنا نسبية ومتدرجة. ولو أخذنا العصر الذي نزلت به الرسالة والبيئة التي نزلت بها وتمعنا في الأمر لرأينا أن الإنسان ذلك الوقت وفي تلك البيئة لا يحتاج إلى الكثير من المال لتسيير شؤون حياته، فليس هنالك أكثر من بيت يؤيه ودابة يركبها وإن أمكن مزرعة يتملكها إلى جانب تربية ما تيسر من حيوانات يعتاش منها. وكل هذه الأوجه من متطلبات الحياة لا تحتاج منه في ذلك الوقت ما صوره القرآن الكريم من حب لجمع وكنز كل ما يستطيع أن يصل إليه من مال وذهب وفضة وغيرها، ولا تستدعي منه هذا البخل الشديد ومنع جزء منه عن إخوته وجيرانه وأبناء مجتمعه. فطرق الإنفاق محدودة ذلك الوقت ولا تحتاج لما لا عد له ولا حصر من المال. وهنا تكمن روعة الإعجاز القرآني في التعامل مع النفس البشرية ومنذ نزول القرآن وحتى قيام الساعة. فالقرآن لم يتعامل مع من نزل في عصرهم فقط ولكنه تعامل مع النفس البشرية وجارى تطوراتها والمراحل والعصور التي تمر بها ويمكن أن تتغير وفق ما تمليه عليها هذه التطورات. وكان الموقف من المال وتصوير العلاقة بينه وبين الإنسان أبلغ دليل على مدى مجاراة القرآن الكريم للحياة البشرية في مختلف عصورها. فالآيات المتعلقة بالمال تتناول جوانب مختلفة. تحيط بكل ما للمال من أبعاد في الحياة البشرية سواء على المستوى الفردي أو ما يخص الدولة والمجتمع وبشكل غير مسبوق تناوله، لا في الكتب المقدسة السابقة ولا على مستوى من كتب حول هذا الجانب الهام في حياة الإنسان

عبر التاريخ. فالقرآن الكريم عدا عن تبيانه لكيفية جمع المال وانفاقه بالشكل الصحيح والسليم وكما يريد الخالق سبحانه، فإنه صور خطورة حصر الأموال بأيدي فئة قليلة من أبناء المجتمع وما يمكن أن يسبب ذلك من أخطار على بناء المجتمع وسلامة العلاقات بين أبنائه حينما يسيطر هؤلاء على مقدرات المجتمع والتحكم بشؤون أفراده وتسيير أموره وفق رغبات هؤلاء من أصحاب المال ومحتكري الثروات، بحيث يصبحون أصحاب قرار ومن الممكن أن يقودوا المجتمع نحو الهلاك والهاوية في سبيل تحقيق مصالحهم. (حتى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) وهم قادرون كما صور القرآن الكريم على شراء الذمم والتأثير على الحكام لتسيير الأمور وفق ما يرونه وبما يحقق أهدافهم ومصالحهم لذلك أمر سبحانه أصحاب المال بعدم إغراء الحكام به خوفاً من شراء الذمم وانحراف القائد أو الحاكم عن النهج الصحيح ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وهذا كله من آفات النظام الرأسمالي المتوحش والذي يسود العالم هذه الأيام والذي لا يهتم بإنسانية الإنسان وإن ادعى ذلك وإنما كل همه زيادة ثراء الأثرياء الذين يتحكمون برقاب العباد وزيادة الفقراء فقراً وحاجة وعوزاً وهو الأمر الذي بات يلمسه ويشاهده ويعيشه معظم أبناء الكرة الأرضية هذا الزمان وهذه الأيام تحديداً، حيث تزداد معاناة البشر ولاسيما أبناء الدول الفقيرة والمنهوبة الثروات لصالح أصحاب الشركات الكبرى عابرة القارات، والتي لا تعرف إلا جمع أكبر قدر من ثروات العالم وعلى حساب تعاسة الملايين من البشر الذين داهمهم مثل هذا النظام المتفول والمدعوم بالقوة العاتية والفكر الضال والمنحرف عن الفطرة البشرية. وبحيث أصبحت الإنسانية تعيش زماناً أصبح فيه جمع المال والثروة غاية وهدفاً لا وسيلة كما أراد الإسلام دين الفطرة السليمة. فالمادة أي المال في نظر الإسلام وسيلة وليس غاية بذاتها، وليس سبباً تفسر به كل الحوادث.

وإنما هو وسيلة لتحقيق بعض الحاجات والمنافع التي لا غنى للإنسان عنها، وهو في خدمة الفرد ولكن بما لا يتعارض مع مصلحة الجماعة ودون تفريط ولا إفراط. ولو تقيد كل مسلم بما جاء في القرآن الكريم بطرق جمع المال وإنفاقه لقام في العالم ذلك المجتمع المثالي والذي حلم به كبار مفكري العالم وفلاسفته ولكان انتفى الغنى الفاحش واحتكار الثروات من فئات قليلة من البشر ولما وجدنا الفقير والمعوز والمحتاج يمشي على هذه الأرض. فالإسلام أباح جمع المال ولكن حدده بشروط معينة فقد حرم الربا والغش والاحتكار والإدلاء به إلى الحكام لتسهيل الأمور والمعاملات التي تجلب المزيد من المال. كما حدد طرق إنفاق المال وحض على عدم اكتنازه وأن يكون غاية لذاته ومنع الآخرين من الانتفاع به بدورانه من يد إلى أخرى.

﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [التوبة: ٣٤]، فالإسلام ذم البخل والشح والتقتير، كما ذم الإسراف والتبذير، ويدعو إلى الاعتدال في جميع الأمور. كي يبقى الإنسان محافظاً على كرامته الإنسانية وأن لا يصبح بحاجة لسؤال الآخرين بسوء تصرفاته وتبذيره وإسرافه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧] ولكن ما يجب ملاحظته والتمعن به أن الخالق سبحانه لم يجعل أمر التصرف اختيارياً لأصحاب الأمول فهو سبحانه أعلم بنفس من خلق ومدى حبه للمال والحرص عليه، مما يؤدي إلى منعه عن الآخرين الفقراء والمحتاجين من أبناء المجتمع والذين لهم نصيب في هذا المال كونهم شركاء في الوطن والمصير. قال تعالى: ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النساء: ١٢٨]، فالنفس إذا تركت على هواها في شؤون الحياة المختلفة فإننا نجد الأمور وقد انحرفت عن مسارها السليم وعم الظلم والفوضى وانقطع حبل الأمن والأمان.

لذلك فإن الله سبحانه وجه وفرض الأوامر المشددة بوجوب العدل وكيفية جمع المال وانفاقه إلى جانب ما يحفظ سلامة المجتمع من أوامر ونواه أخرى. فالإسلام أمر بعدم كنز المال وحجبه عن أبناء المجتمع، بل أمر المسلم أن يعمل على استثمار أمواله ليستفيد منها الجميع. كما أنه فرض الزكاة على كل مسلم قادر: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النور: ٥٦]. كما أنه سبحانه أمر بالإنفاق سواء أكان المرء غنياً أو فقيراً قال تعالى: ﴿مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وفرضية الإنفاق في الإسلام لا تقتصر على الزكاة وإنما تشمل كل ما يتعلق بالفرد في نفسه والأسرة في ارتباطها بمعيلها والأمة في تكاملها وتضامنها وتعاونها على البر والتقوى. قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، من الملاحظ أن كل أوجه الإنفاق تلك وردت قبل إيتاء الزكاة، مما يؤكد أنه حق مستقل عن فريضة الزكاة التي ذكرت بعده.

وهذا الحض على الإنفاق وغيره مما ورد في القرآن الكريم إنما يدل على أن الخالق سبحانه وإحقاقاً للعدل ورفع الظلم فإنه شرع بوجوب تداول الثروات، وعدم جواز انحصارها بأيد قليلة، وحتى لا يبقى المال محصوراً في خزنه مما يجعله عديم الفائدة. فالإسلام لا يرضى احتكار الأموال ولا اكتنازها لأن ذلك يضير بالمصلحة العامة قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ﴾ [الحشر: ٧]

وقال تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ [إبراهيم: ٣١].

والإنفاق في الإسلام مقيداً بالقيود التي تجعل منه قربة وطاعة ونفعاً، لا معصية وأضراراً وكفراً. تماماً كما هو الحال في شروط الحصول على المال، بجمعه من حلال ودون ربا ولا غش ولا احتكار ولا رشوة واحتيال وتعد على حقوق وأموال الآخرين ومن الإعجاز القرآني في هذا المجال والذي ينفذ إلى أعماق النفس البشرية فعلاً هو هذا التصوير القرآني السامي لقضية التعامل المالي بين عباده وليس بين المسلمين فحسب فالله سبحانه أمر بالإنفاق وكثرة الصدقات على الفقراء والمحتاجين والمساكين وأبناء السبيل والغارمين وغيرهم ولكن روعة كلام الخالق سبحانه تكمن في تصوير العلاقة لحظة الأخذ والعطاء، ومراعاة نفس الإنسان الذي يأخذ ومراعاة شعوره والحرص على عدم إشعاره بالذل أو الدونية عندما يأخذ. فقد قال له سبحانه أن هذا حق له وليس منّة ممن يعطي.

أما المعطي فقد رسم له وبين كيف يكون العطاء، وهو تصوير للنفس البشرية ونفاذ لأعمق أعماقها ولا نرى مثيلاً له بغير القرآن الكريم من كتب سابقة أو لاحقة. فمشاعر الإنسان وكرامته أعز ما يملك والمساس بهما يؤثر على مجرى حياة الإنسان وسلوكياته وتصرفاته سواء مع نفسه أو عائلته أو أبناء مجتمعه. لذلك فقد صور الخالق سبحانه أن ما يمكن أن يفعله الإنسان من عمل يظنه خيراً ربما ينقلب إلى أذى يلحق بمن شمله العمل. لذلك كان من شروط العطاء أو الصدقة أن لا يتبعها منّ لأن هذا المن لابد أن يتبعه أذى. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۝٢٦٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة ٢٦٢ - ٢٦٤].

لا أظن أن هنالك كلاماً أبلغ من هذا في تصوير العلاقات البشرية لحظة الأخذ والعطاء. فلا منّ ولا أذى يتبعه لأن ذلك يبطل الصدقة لا بل يحولها من صدقة إلى أذى للعباد وبالتالي تحول المعروف والعمل الصالح إلى ذنب وربما كان كبيراً لذلك نجد الخالق سبحانه يقول وهو خير من قائل: ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [البقرة: ٢٧١]. فالمنفق في السر يكون أبعد عن الرياء وعن المن والأذى، وهو شأن من يبتغي بعمله وجه الله سبحانه ولا يريده على عمله من الإنسان لا جزاء ولا شكوراً.

كذلك بين الخالق سبحانه وبتصوير رائع لا يمكن إلاّ ان يكون من لدنه جل شأنه لأن الإنسان مهما أوتي من الفطنة والذكاء والمعرفة إلاّ أن أموراً كثيرة تبقى غائبة عن ذهنه، فالإنسان مهما كانت عبقريته لا يمكن أن يلم بمختلف جوانب الحياة الإنسانية ومشاعر الإنسان المتقلبة والمتغيرة حسب الظروف وتبدل الأيام والأحوال. لقد صور الخالق أولئك الفقراء ذوو النفوس الضعيفة الذين لا يستطيعون إذلالها وهدر ماء الوجه بالسؤال. قال تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

القرآن يطمئن الإنسان على رزقه:

ما من أمر من أمور الحياة الدنيا يسبب قلقاً للإنسان ويعكر صفو حياته قدر عدم الاطمئنان لتحصيل رزقه ورزق من هو مسؤول عنهم سواء أكانوا أبناء وأزواج أو والدين وأخوة صغار أو غيرهم ممن يعيل ويعتمدون عليه في حايتهم ففقدان الرزق بحد ذاته مدعاة للتحسر والألم والقلق أناء الليل وأطراف النهار. فقدانه يشل حركة التفكير والإبداع لا بل وحركة الجسم ذاتها فنرى الإنسان الغير مطمئن إلى دوام رزقه أو لا يملك منه شيء أصلاً دائم التكدر والتحسر والألم والشعور بالحرمان والمذلة.

لاسيما أولئك الذين يطوون على نفوس أبية وهمم عالية مستكبرة عن السؤال متعففة من أن تريق ماء الوجه لكل من هب ودب من القادرين أولئك الذين وصفهم الخالق سبحانه بأن الناس يحسبونهم أغنياء من التعفف.

أمثال هؤلاء يجب أن تكون نفوسهم مطمئنة ساكنة لا مكان للخوف والقلق فيها. فالخالق سبحانه أخبرنا بأنه متوكل برزق عباده ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وأنه يرزق من يشاء بغير حساب وأن مع العسر يسرا، وأن لا دابة على الأرض إلا وعلى الله رزقها، وهو الرزاق ذو القوة وأنه سبحانه يعجل بالرزق لبعض عباده، ويؤخره للبعض الآخر. ولكن المهم في كل ذلك هو التحلي بالصبر فالصبر مفتاح الفرج. ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]، فالصبر رأس الفضائل الإنسانية ويكرس إنسانية الإنسان ويجعلها في أسمى صورها ومن الواجب معرفته هنا أن الله سبحانه وتعالى عندما نزل هذه الآيات المتعلقة بالرزق فإنه أنزل معها ما يدل الإنسان على التكافل والتضامن مع أخيه الإنسان، وأن المال بيد من يملكه ليس إلا أمانة لديه ولكل محتاج وفقير ومعوز نصيب من هذا المال،

فالمال كما ورد هو مال الله والإنسان ليس إلا أميناً عليه. فالله لم يسخر ملكه لفرد دون فرد أو لفئة دون أخرى، وإنما سخره للبشر جميعاً وجعله للتداول بين عباده الذين استخلفهم في الأرض ليعيشوا فيه وينتفعوا به، فما يعيش أحد من الناس في ملكه، وما ينتفع إلا بملك الله، وليس أحد منهم أحق بملك الله من غيره، فكل ما في أيدي البشر من ملك الله وثمراته إنما هو (عارية) ينتفعون بها ويقومون بها نيابة عن مالكها الحقيقي الذي استخلفهم في الأرض. ولأن ما يملكون (عارية) للبشر فقد فرض الله عليهم الإنفاق من هذا المال الذي أتاهم، دون أن يكون لهم حق التأخر في انفاذ الأمر أو حتى التوهم بأنهم قد (خصوا) بهذا الرزق أو فضلوا به على نحو يجعلهم يتفردون في أمر التصرف به، فهم في الحقيقة ليسوا إلا وسطاء لا تملك حقيقي لهم.

فالخالق سبحانه إذن عندما وعد جميع عباده بالرزق إنما كان يرسم المنهج القويم الذي يحدد به توزيع المال والثروات بين عباده دون ظلم لأحد ودون أن يتحكم البعض برقاب أبناء الأمة ويتحكمون بأرزاقهم والتي هي عماد حياتهم الدنيا ومبعث حسن إيمانهم لأن الفقر كاد أن يكون كفراً.

كيف بين الخالق سبحانه التصرف بثروات البلاد والعباد:

ربما كان هذا العنوان به شيء من المجاز فعندما نقول كيف بين الخالق التصرف بثروات البلاد والعباد فليس المقصود أنه سبحانه قد أنزل آيات في كل صغيرة وكبيرة بهذا الشأن، لأن القرآن الكريم ليس كتاب اقتصاد بالدرجة الأولى، كما أنه ليس كتاب طب أو فلك أو فضاء وإلى آخر ما هنالك من علوم ولكنه سبحانه رسم وبين الخطوط العريضة والتي ترك للإنسان المؤمن الحافظ المتمكن من كتاب الله ومعانيه والمشهود له بذلك أن يفسر ويجتهد ويقيس وإلى آخر ما هنالك من طرق لكيفية تطبيق تعاليم القرآن بمقاصدها الصحيحة.

وفي مسألة المال والثروة فقد رأينا ما أعطى القرآن الكريم من أهمية لهذا الجانب في حياة البشر، وصور مدى حب العباد للمال وحرصهم عليه ومدى ما في النفوس من شح تمنع من أن ينفق الإنسان مختالاً من المال الذي وقع بين يديه.

وإذا ما ترك الأمر هكذا اختيارياً فلابد أن يقع الظلم على فئات عريضة من أبناء المجتمع ويقعون تحت رحمة أناس مستغلين لا يهمهم سوى جمع المزيد من المال وعلى حساب الفقراء والمستضعفين مما يسبب اتساع الهوة بين أبناء المجتمع الواحد ونشوب الفتن والثورات مما يقطع حبل الأمن وتنحرف المسيرة عن طريقها القويم الذي رسمه الخالق سبحانه لعباده.

لذلك فقد برز في مختلف العصور الإسلامية علماء اجتهدوا ووقفوا في وجه الظلم وبينوا أفضل السبل لإقامة العدل والتعامل مع قضايا المال والثروة في العالم الإسلامي.

ومن المعروف أن الانتفاع بالمال له وجوه شتى فالمال يستغل ويستثمر كما هو الحال في الأراضي الزراعية والمناجم والمحاجر، أو يتصرف به تصرفاً شرعياً كالبيع والوصية والهبة، أو يستهلك في الطعام والشراب والثمار، والإنفاق على مختلف وسائل العيش الأخرى والتي تستجد وتتزايد زمناً عن آخر وجيلاً بعد جيل. وهذه الوجوه جميعاً في الانتفاع حق للبشر غير أن هذا الحق ليس حقاً مطلقاً كما قال بعض فقهاء وعلماء المسلمين وإنما هو حق مقيد بقيود، إذ ليس لصاحب المال أن ينتفع به إلاّ في حدود الحاجة لهذا المال وبالقدر الذي يكفي عنه الحاجة ويدفعها، أي في حدود الاعتدال ودون إسراف ولا تقتير.

وعلى مثل هذا المفهوم لوضع المال والذي يعني في النهاية أن المال مال الله تترتب نتائج مصيرية تحدد منهج ونوعية الحياة في المجتمعات الإسلامية، فهذا المفهوم يعني:

١ - لا يجوز لأحد كائناً من كان أن يمتلك المال تملكاً نهائياً ولا يجوز لأحد أن

يكون له على المال إلا ملك المنفعة لأن حقوق الله ثابتة لـه جل شأنه، وليس لأحد من البشر أن يتصرف فيها أو يتنازل عنها، حاكماً كان أو محكوماً، فرداً أو جماعة.

٢- إن للجماعة بواسطة ممثليها من الحكام وأهل الشورى أن تنظم طريقة الانتفاع بالمال، إذ المال وإن كان لله إلا أنه جعله لمنفعة الجماعة، والقاعدة في الإسلام أن كل ما ينسب من الحقوق لله إنما هو لمنفعة الجماعة وهي التي تشرف عليه دون الأفراد.

٣- إن للجماعة بواسطة ممثليها من الحكام وأهل الشورى أن ترفع يد مالك المنفعة عن المال إذا اقتضت ذلك مصلحة الجماعة، بشرط أن تعوضه عن ملكية المنفعة تعويضاً مناسباً إذ الإسلام لا يجيز الغصب ولا يحل أخذ المال بغير طيب نفس صاحبه كما لا يحل أخذه بالباطل، ويمكن أن يحصل ذلك في حال تعرض وجود المجتمع الإسلامي ذاته للخطر الداهم والذي يودي بالجميع وما يملكون.

كذلك فإن إباحة الإسلام لحرية التملك إلى غير حد، لا تمنع الجماعة بواسطة ممثليها باعتبارها القائمة على حقوق الله وتنظيم الانتفاع بها، أن تحدد ما يملكه الشخص من مال معين إذا اقتضت المصلحة العامة ذلك.

(الإسلام وأوضاعنا السياسية: عبد القادر عودة).

أما المرحوم سيد قطب والذي أكمل مشوار عودة في كتابه العدالة الاجتماعية في الإسلام فينطلق من فكرة (الوحدة المتكاملة) في وجود سائر أجزاء الكون من حيث هو صادر عن الإرادة المطلقة المباشرة لله. فهذه الوحدة لا تعرض التناسق والتعاون بين أجزاء الكون المادية فحسب، وإنما بين أفراد الإنسان أيضاً، بحيث يصبح الأصل في الوجود الاجتماعي هو التعاون والتكامل بين الجميع.

وهكذا يعتقد سيد قطب أن الأسس التي يقيم عليها الإسلام العدالة ترتد إلى ثلاثة:

١. التحرر الوجداني المطلق.

٢. المساواة الإنسانية الكاملة.

٣. التكافل الاجتماعي الوثيق.

والذي يقول فيه: إن الإسلام جعل مصلحة المجتمع هي العليا وربط الحرية الفردية والمساواة الإنسانية بهذه المصلحة.

أما بالنسبة لسياسة المال الإسلامية وهي سياسة تستلهم فلسفة الإسلام العامة وتقوم على أساس التشريع والتوجيه: التشريع ينظم الواقع من أجل بلوغ الأهداف العملية لمجتمع ينشد الرقي والنماء، والتوجيه يرسم صورة المثل الأعلى التي يطلب من أفراد المجتمع ومن المجتمع التطلع والارتفاع إليها.

ويدير سيد قطب (سياسة المال) في الإسلام على مسألة الملكية الفردية ووسائل تملكها المشروعة وطرق التصرف بها وانفاقها، وعلى فريضة الزكاة، وعلى فرائض أخرى غير الزكاة تقع خاصة في دائرة (المصالح المرسلة) و (سد الذرائع).

بالنسبة للملكية الفردية يقول قطب بأنها حق لا شبهة فيه وقد أقره الإسلام في آيات كثيرة ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ﴾ [النساء: ٣٢].

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ﴾ [النساء: ٣] وغيرها من الآيات الكثيرة الدالة على حق الفرد في كسب المال وانفاقه ضمن الأحكام الشرعية.

كذلك فإن حق الإرث والتوريث يعتبر فرع لحق الملكية الفردية. بيد أن الإسلام لا يطلق حق الملكية ولا يدعه بلا قيود ولا حدود والحقيقة أنه يقيده بمادئ تكاد تحيله حقاً نظرياً لا عملياً فإن الفرد أشبه شيء بالوكيل في هذا المال عن الجماعة وأن حيازته له إنما هي وظيفة أكثر منه امتلاكاً، وأن المال في عمومه إنما هو حق للجماعة، والجماعة مستخلفة فيه عن الله الذي لا مالك لشيء سواه، فملكية

المال الفردية هي إذن في الحقيقة (ملكية التصرف والانتفاع) فحسب، كذلك فإن الانتفاع بالمال لا يجوز أن يحبس في أيدي فئة خاصة من الناس ويحرم منه الآخرون ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

كذلك فإن نوعاً من الأموال الشائعة (كالماء والكلأ والنار) هو حق خالص للجماعة ولا يجوز أن يحتجزه الأفراد.

كما يحدد الإسلام وسائل التملك الفردي وشروطه، فهو يقرر قبل كل شيء أن الملكية بمعنى الانتفاع بالمملوك "لا تثبت إلا بإثبات الشارع وتقريره".

هذه هي إذن نظرة الإسلام إلى المال والملكية نراه وقد أعطاهما الأهمية العظمى وأفرد القرآن الكريم سوراً عديدة للكلام حول هذا الموضوع الهام في حياة الإنسان كفرد وحياة المجتمعات البشرية.

فغياب العدل وانحصار الثروة بأيدي قليلة من أبناء المجتمع كان السبب في معظم الثورات التي شهدها التاريخ البشري وفي أنحاء مختلفة من الكرة الأرضية، فالإنسان بطبعه يحب العدل والعادلين ويكره الظلم والحرمان والمسببين لهما، ومن عظيم تعاليم الإسلام أن العدالة التي حض عليها ليست عدالة اقتصادية خالصة وإنما هي عدالة إنسانية، ليس العنصر الاقتصادي أو المادي فيه إلا واحداً من جملة عناصر يحرص الإسلام على أن يدخلها في اعتباره عند التشريع للمجتمع. ولو اقتصر الأمر على العدالة الاقتصادية وحدها لفسدت أمور إنسانية واجتماعية أخرى في حياة البشر، فللحياة البشرية جوانب مختلفة وكل لها أهميتها الخاصة. والإسلام لا يريد أن تكون الحياة البشرية سلسلة لا تنقطع من الثورات والحروب من أجل جانب واحد وهو الجانب الاقتصادي ورغم أهمية هذا الجانب القصوى في الحياة الإنسانية والخلاصة أن كل ما تقدم لا يمكن أن نعتبره نصوصاً وشروحات جامدة لا تقبل المزيد من التفسير والشرح والإيضاح، وإنما كل الأمور أو معظمها والتي تناولها الشرع الإسلامي تراعي تطورات الحياة البشرية وتقلباتها ودرجة

تقدمها. ولكن المهم في الأمر هو ضرورة الانفتاح النظري الواسع على القضايا الاجتماعية والاقتصادية وبشكل مستتمر ودون تعصب وتزمت لوجهة نظر معينة لا تقبل التأويل أو التحويل فالحياة البشرية في تحول مستمر ولا تعرف السكون والثبات، وإذا أردنا أن نطبق مقولة الإسلام صالح لكل زمان ومكان فما علينا سوى فتح قلوبنا وعقولنا والتعامل مع كل جديد بما يستحق ويجعل حياة المسلمين تساير تطورات الأزمان وبقية المجتمعات السائرة في ركب التقدم مع الحفاظ على ثوابت العقيدة الإسلامية وجوهر تعاليمها. وعلينا أن نكشف وبشكل مستمر عن مدى استجابتنا العملية لحاجات المجتمع الحديث والذي يتحرك بقوانين الواقع المعقدة المريرة لا بقوانين "المثال" السحرية.

كيف وصف القرآن نفسية بني إسرائيل

العرب والمسلمون يجب أن يكونوا أعلم الناس وأعرفهم بنفسية اليهود وخدعهم وكذبهم ونقضهم للعهود والمواثيق وشدة مماطلتهم فيما يُطلب منهم إذا كان في غير صالحهم. فلو قرأ المسلمون القرآن الكريم الذي بين أيديهم منذ قرون عديدة لوجدوا فيه أصدق تصوير وأعمقه لنفسية اليهود وأخلاقهم ومعاملاتهم، ولكان العرب وفروا على أنفسهم الكثير من الجهود والهزائم التي لحقت بهم على يد اليهود؛ فقد تصور بعض العرب وصوروا لغيرهم بأن الصراع مع اليهود ما هو إلى حاجز نفسي بين أمتين ويمكن لهذا الحاجز أن ينهار بعد سنوات قليلة من التطبيع ولكن بمرور السنوات نرى أن اليهود بنوا أسواراً مانعة بدل الحواجز. فالعرب أو بعضهم يحسبون أن الصراع مع الصهاينة يمكن أن ينتهي بتبويس اللحى وبعض كلمات المجاملات والقبلات، والوعود بمستقبل باسم وزاهر للجميع وعفى الله عما سلف.

وكلما أوغل العرب في الانبطاح وتقديم المزيد من التنازلات نرى اليهود وقد إزدادوا عناداً وتصلباً ومراوغة ونقضاً للعهود والمواثيق، واختلقوا من أجل ذلك مختلف الأعذار والحجج. والغريب أن أخلاق اليهود هذه لم تتغير منذ أن وجدوا فهي جبلة راسخة متوارثة من الآباء والأجداد، صورة اليهود وأخلاقهم غابرين ومعاصرين كونتها عندهم كتبهم المحرفة لاسيما كتابهم المسمى بالتلمود، وحافظت عليها عبر العصور الفيتوات اليهويدة في مختلف مناطق العالم بعد تشتتهم عام ٧٠م على تيطس الروماني. ولو قرأنا بتمعن وصف القرآن الكريم للأخلاق اليهودية لكان لنا مع اليهود شأن آخر، هؤلاء القوم الذين شاءت الأقدار أن تجعل منهم خصم هذه الأمة وعدوها اللدود، وهي التي احتضنتهم وحمتهم قبل الإسلام

وبعده، رغم كل الصفات التي أوردها القرآن الكريم عنهم. حيث وصفتهم الآيات الكريمة بالكفر والجحود واللجاج والأنانية والزهو والتبجح والترفع عن الغير واعتبارهم أنفسهم فوق البشر كافة وعدم الاندماج الصادق مع أحد، وعدم الولاء الصادق لأحد في الوقت ذاته، هذا إلى جانب التضليل والتدليس والدس والشره الشديد إلى ما في أيدي الغير والحسد الشديد لهم ولو تمتعوا أنفسهم بأرفع النعم.

فهم يستحلون لأنفسهم ما في يد الغير ولا يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن أي شيء أمامه. لذلك لم يكن غريباً موقف شعوب كثيرة من اليهود لاسيما في القارة الأوروبية والتي اعتبر الكثيرون من مفكريها وقادتها أن اليهود هم سبب معظم المصائب التي حلت بهم في فترات تاريخية متفاوتة. حيث اخترع اليهود ما سمي (باللاسامية) تعبيراً عن عداء الأمم الأوروبية لهم. ولعل من معجزات القرآن الكريم تصويره البالغ الدقة للنفسية اليهودية والتي تنطبق عليهم في كل زمان ومكان وجدوا به. فمن يقرأ وصف أخلاق اليهود وصفاتهم في القرآن الكريم يجدها مطابقة تماماً لما هم عليه اليوم لاسيما في تعاملهم مع شعب فلسطين وكافة الشعوب العربية. فنراهم يماطلون ويراوغون وينقضون العهود والمواثيق، فبعد أن كانوا يلهثون وراء أي عربي مهما كان مركزه كي يتعامل معهم لا بل يتكلم معهم، أصبحوا الآن وبعد أن حاول العرب التقرب منهم يسخرون من أمة العرب ويريدون منها أن تتنازل عن كل شيء مقابل لا شيء، وكلما حاول العرب وبكل سذاجة التقرب منهم يهربون بعيداً مستغلين ضعف الأمة وتفرقها للمزيد من الابتزاز والسيطرة والاذلال.

فرغم أن العديد من رجال السلطة الفلسطينية يلهثون خلف اليهود للحصول على ما يحفظ ماء الوجه أمام شعبهم ورغم أنهم ينفذون معظم شروط اليهود والتي لا نهاية لها، إلا أن هؤلاء اليهود لم يحترموا من عادوا شعبهم لأجلهم ولم يمنوا عليهم ولو بالشيء القليل مما يريدون، وحجتهم في ذلك دائماً أنه لا يوجد الشريك

الفلسطيني المناسب والذي يمكن أن يتعاملوا معه، أما ما هي صفات هذا الشريك فلا أحد يعرفها غير اليهود أنفسهم. والتي أصبحت سراً من الأسرار اليهودية. ولو قرأ هؤلاء الذين يذلون أنفسهم لليهود الصفات التي وصفهم بها القرآن الكريم لاستراحوا وأراحوا ووفروا على أنفسهم الكثير من الجهد. وحبذا لو قرأوا ما سجله القرآن الكريم عليهم من خلق الخديعة والتضليل وبأن لا يتوافقوا ولا يتبادلوا المعرفة والمودة مع غيرهم، وأن لا يتساهلوا فيما يمكن أن يفيد المسلمين من تقدم ومعرفة.

هذا وقد وردت آيات عديدة في القرآن الكريم تصف وتبين أخلاق اليهود وصفاتهم من غدر وخيانة ونقض للمواثيق والعهود، لا بل وتصوير مواقف اليهود في مختلف الظروف تصويراً عجز ويعجز عنه كل علماء الأرض الذين حاولوا دراسة النفسية اليهودية وما انعكس عنها من سلوكيات عُرف بها اليهود منذ أن كانوا قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٤٤-٤٥].

وقال سبحانه: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ١٣]. وقال رب العزة سبحانه: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٧ - ١٦٨]. وواصل القرآن الكريم وصفه

لأخلاق اليهود فقال سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

وهم يكذبون على الله وكتابه عن علم وتعمد قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]. وقال جل من قائل: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

والغريب أن هذه الأخلاق استمرت مع اليهود جيلاً بعد جيل، وهذا الخلق حكته عنهم الأسفار من لدن موسى وما بعده. وكان قائماً في الجيل المعاصر للنبي ﷺ وإلى يومنا هذا. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥]، ويستمر منزل الكتاب سبحانه في وصف أخلاق اليهود وسلوكياتهم منذ القدم فيقول: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا

﴿ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧- ٧١].

وقد وجه الخالق سبحانه الخطاب إلى اليهود في زمن الرسول ﷺ في مقام التذكير بما كان من نعم الله على أبائهم وما كان من تاريخ ومواقف أولئك الآباء، وقد تكرر هذا الأسلوب كثيراً بقصد ربط أخلاق ومواقف اليهود وبني إسرائيل في زمن النبي ﷺ بأخلاق ومواقف آبائهم للتدليل على وحدة الحيلة واستمرارها. وقد تكررت هذه الصورة لليهود في آيات عديدة فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَـٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٧٧- ٨١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١].

وفي سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥].

وفي الآية موقف تعجيزي من بني إسرائيل لموسى وبيان لما كان من نكال الله

لهم على ذلك. وفي الآية ربط بين مواقف بني إسرائيل من رسالة النبي ﷺ ومواقف آبائهم. وفي سورة النساء آية فيها توضيح وتدعيم لذلك وهي: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [النساء: ١٥٣].

وقال جل من قائل: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وفي سورة البقرة نقرأ قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [٧٥].

والآية تخاطب النبي والمؤمنين في صدد مواقف اليهود الجحودية لرسالة النبي ﷺ وفيها صورة لما كان من آبائهم الأقدمين حيث كانوا يحرفون كلام الله وهم يعلمون إنما يفعلونه تحريف وفي السورة نفسها نقرأ هذه الآيات:

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [٧٨- ٨٠].

وفي سورة البقرة نقرأ كذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [٥٨- ٦٠].

وفي سورة آل عمران نقرأ قوله سبحانه: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [١١٢] وفي نفس السورة نقرأ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [١٨٣]، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [النساء: ١٥٥].

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة: ٧٠].

وفي سورة المائدة نقرأ قوله تعالى استمراراً لوصف نفسية اليهود وطبائعهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟

يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [١٩- ٢٦].

وفي الآيات صورة لما كان من جبنهم وهلعهم وعدم اعتمادهم على الله وعدم قبولهم السير في تنفيذ وعده، وقد سجلت الفسق بلسان الله عز وجل وبلسان موسى عليه السلام. وفي السورة نفسها هذه الآيات التي تصور ما كان انحراف كثير منهم عما كتبه الله عليهم وفسادهم وإسرافهم في الأرض قال سبحانه: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

وفي السورة نفسها هذه الآيات:

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [٧٨- ٧٩].

وفي الآيات صورة لما كان من استغراق كثير منهم في الآثام ومنكر الأفعال وعدم مبالاتهم وتناهيهم عن ذلك وتسجيل لعنتهم على ذلك على لسان داود وعيسى عليهما السلام.

وفي سورة الإسراء هذه الآيات:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ [٤-٧].

وفي الآيات صورة من تاريخ بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام وما كان من تنكيل الله فيهم بسبب فسادهم واستعلائهم الباغي.

ولما كان تاريخ بني إسرائيل قد تقلب كثيراً وتعرضوا فيه لغزوات وضربات كثيرة فالمتبادر أن القصد بالمرتين هو الإشارة إلى أشد ما كان من ذلك. وقد تدل روح الآيات أنها تشير إلى الغزوة الأشورية التي هدمت إحدى مملكتيهم (إسرائيل) في القرن الثامن ثم الغزوة الكلدانية البابلية التي هدمت مملكتهم الثانية يهوذا ودمرت معبدهم وعاصمتهم (أورشليم).

أما بالنسبة لما درجوا عليه من استحلال كل شيء يأخذونه من الغير أو يفعلونه معهم واعتقادهم بأن الله لا يؤاخذهم عليه لأنهم شعبه كذباً وافتراء عليه سبحانه.

فإننا نقرأ في سورة آل عمران هذه الآية:

﴿۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ

وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [٧٥].

وفي سورة آل عمران أيضاً هذه الآية:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [١٨٧].

وفيها صورة لمخالفتهم ميثاق الله الذي أخذه عليهم ببيان ما في كتبه وعدم كتمانه. وإهمالهم هذا وإساءة استغلال كتاب الله في منافعهم الدنيوية.

هذه هي أخلاق اليهود وهذا هو سلوكهم تعيشه الأمة العربية والإسلامية واقعاً وحدثاً يومياً وقد تجلت هذه الأخلاق عندما بدأ العرب يلهثون خلف اليهود لاستعادة أراضيهم المغتصبة ومن موقف الضعف عبر المفاوضات والمساومات لاسيما مع الجانب الفلسطيني والذي نأى بالقضية الفلسطينية عن بعدها العربي والإسلامي وحشرها في زاوية ضيقة وهو الأمر الذي كان يخطط له الصهاينة منذ أمد طويل. إنهم يريدون من الفلسطينيين التنازل عن كل شيء مقابل لا شيء، فهم يحتجون بالأمن تارة وبعدم وجود الشريك الفلسطيني المناسب أخرى، يعقدون اللقاءات والاجتماعات لكسب الوقت ليس إلا، ويريدون من بقية العرب التطبيع المجاني ودون أن يتنازلوا عن أي حق اغتصبوه، يفقدون المعاهدات والاتفاقات ثم ينقضونها ويفسرونها حسب أهوائهم ومصالحهم.

يثيرون إشكالات جديدة لكي يطالب العرب بحل ما قبلها وهكذا. لا بل إن هدفهم من حضور الاجتماعات مع العرب هو إنجاز التطبيع المجاني معهم مستغلين ضعف الأمة وإلقاء كل ما بيدها من أوراق ضغط وبشكل مجاني ودون أي مقابل. فاليهود يدّعون رغبتهم بالسلام في الوقت الذي يعملون به على ضم المزيد من الأراضي وبناء المزيد من المستوطنات وإسكان المزيد من اليهود بها، إلى جانب بناء الحائط اللعين وتقسيم الأراضي المحتلة وفق مصالحهم، ثم ليفرضوا ما شاؤوا من

حلول بعد ذلك إن كان في نيتهم إيجاد أي حل، فهدفهم النهائي هو القضاء على كل قدرة لأمة العرب.

ولو قرأ الفلسطينيون والعرب وصف القرآن الكريم للنفسية اليهودية لما وصلوا إلى هذا الحال، ولكانوا تنكبوا جادة الصواب وحققوا النصر الذي كانوا يتمنون، وفروا على أنفسهم الكثير من الجهد والخسائر المادية منها والبشرية والتي لم تقد إلا للهزائم المتلاحقة. ولكن ما يعزي النفس العربية والإسلامية أن القرآن الكريم المعجز محفوظ في العقول والصدور والصراع مع اليهود طويل ولابد من رجعة للقرآن وفهم المزيد من معجزاته لاسيما منها ما يتعلق باليهود وحينها سوف يفرح المؤمنون بنصر الله. وليس ذلك ببعيد إن شاء الله.

آيات تنفذ لأعماق النفس البشرية

قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣- ٢٤]. صدق الله العظيم

ما أروع هذه الآيات المعجزات، وما أعظم أثرها في حياة الإنسان لو تدبرها وفهمها حق الفهم. في هذه الآيات الكريمة معان عظيمة وتحث على مواقف أكثر عظمة، آيات لو فهمناها حق الفهم لوقفنا على ما بها من معجزات إنسانية خالدة، فالإعجاز القرآني نلمسه ونعيشه في كل أية من آيات الذكر الحكيم، وإن كان البعض ركز على ما في القرآن الكريم من إشارات معجزة لبعض الظواهر الطبيعية والعلمية والتي شاء الخالق سبحانه أن تكتشفها الأجيال المتعاقبة للبشرية جيلاً بعد جيل وما تزال كدليل على المعجزات المتجددة للقرآن الكريم، وأنه خاتم الرسالات ويصلح لكل زمان ومكان.

والآن سنقف عند آيات كريمة لنرى روعة الإعجاز القرآني في التعامل مع النفس البشرية وهي تتعلق بمعاملة الإنسان لوالديه بما للوالدين من مكانة عظيمة عند الأبناء. لأنهما بعد الخالق سبحانه هما من ربي وأنشأ تلك المخلوقات التي أراد الله لها الحياة على هذه الأرض، فهما اللذان أنجبا وتولا بالرعاية الأبناء حتى اشتدت الأعواد وأصبحت الأنفس مهيأة لتحمل مسؤوليات الحياة وأعبائها.

هذان الوالدان قد يطول بهما العمر ويفقدان الكثير من القدرة الجسمية وأحياناً بعض العقلية لذا لابد أن يعاملا المعاملة اللائقة بهما، وهذه المعاملة لا

تقتصر على الإنفاق عليهما وحسب لا بل إن هذا الإنفاق ربما كان الأسهل في رد بعض الجميل لهما، هنالك أمور ركز عليها القرآن الكريم وصورها على أنها أكثر أهمية من قضية الإنفاق، فكأن الإنفاق ليس إلا تحصيل حاصل.

وهنا تتجلى المعجزة القرآنية في التعامل مع النفس البشرية والتي لم يصل إليها كتاب من قبل ولا من بعد، ولا استطاع آلاف علماء النفس والاجتماع ولو اجتمعوا على أن يصلوا إلى جزء مما وصل إليه القرآن الكريم في اكتمال التعامل مع النفس الإنسانية.

ففي تلك الآيات البينات لم يشر سبحانه كما أسلفنا إلى قضية الإنفاق، ولكنه أشار إلى ما هو أهم من ذلك، ونقول أهم ونحن على يقين كامل من صحة ما نقول وأعتقد أن أغلب عباد الله يوافقون على ما نذهب إليه، فمن خلال حياة الإنسان وما يمر به من مراحل مختلفة للحياة، نرى من هو على استعداد لإعطاء الوالدين الشيخين ما يريدان من مال، ولكنه لا يتحمل العيش معهما، وإن أجبر على ذلك فعلى مضض وكره منه لأنه ليس على استعداد لتحمل ما قد يصدر من تصرفات أو أحاديث منهما أو إرضاء لزوجة ليست على استعداد لخدمة كهلين في أرذل العمر.

المشكلة في التعامل مع والدين كهلين إذن وكما يصورها القرآن الكريم ليست مشكلة إنفاق وحسب، ولكن القضية أبعد من ذلك وأشمل وأكثر مساساً بخفايا النفس البشرية.

القرآن الكريم هنا يطالب بحسن معاملة الوالدين وتحمل كل ما يصدر عنهما معاً أو أحدهما من تصرفات كثيراً ما تظهر عند الإنسان في سن الشيخوخة، فالإنسان في السن المتقدمة يصبح كثير النسيان، وغالباً ما يردد نفس الرواية لمرات متعددة وفي اليوم الواحد أو ضمن ساعات قليلة. وربما فقد الذاكرة، أو تكثر مطالبه وهنا يأتي أمر الله سبحانه وتعالى للأبناء بعدم التأفف من تصرفات شيخين

كبيرين أو التبرم بأقوالهما وطلباتهما، وعدم رفع الصوت عليهما نهراً وتوبيخاً والعياذ بالله، وهذا ما نراه بكل أسف يحدث مراراً وتكراراً وأحياناً كثيرة من قبل أناس متمسكون بتعاليم الإسلام أو جوانب كثيرة منها، وإن كان أمثال هؤلاء ليسوا ممن أضاء نور هذه الآيات قلوبهم بكل قوته وطاقته كذلك لا يغيب عنا ما قد يعانيه الأبوين أو أحدهما من أمراض الشيخوخة وغيرها من الأمراض ووهن الجسم بحكم تقدم السن، وفقدان بعض الحواس، وما قد يصاحب ذلك من آلام وضجر، قد يؤدي إلى كثرة الشكوى والتبرم من قبل الوالدين وأحياناً عدم الصبر على ما قد يصابا به.

وهنا يأتي دور الأبناء في التحمل بكل نفس راضية وعدم زجرهما وإعلاء الصوت عليهما وإشعارهما بأن السعادة والراحة تكمن في انتهاء حياتهما، فواجب الأبناء خفض جناح الذل لهما والعمل على إطاعتهما وتلبية كل ما يرغبان به بنفس راضية، وإظهار السعادة لبرهما لأن الله مكن هؤلاء الأبناء من خدمة الوالدين في كبرهما وعجزهما، لذلك فلا عجب أن يقول رسول الله ﷺ "عجبت من امرئ أدرك والديه ولم يدخلاه الجنة".

الإنسان المسلم الحق ما عليه مع خدمة والديه إلاّ أن يدعو لهما بالرحمة وحسن الخاتمة ويتلطف معهما بالخطاب والكلام ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣] وأن يبتعد عن كل ما يؤذيهما أو يسبب لهما الإزعاج والمتاعب، هذه هي المعاني العميقة لهذه الآيات الكريمة وهذا هو جانب من الإعجاز القرآني في التعامل مع النفس البشرية، إنه الدخول إلى أعمق أعماق هذه النفس لمعالجة كل سوء بداخلها وهي الإمارة بالسوء.

ولعل المعجزة القرآنية في هذه الآيات تتجلى حينما نعلم ونتذكر دائماً أن الرسول الكريم ﷺ عاش يتيم الأبوين منذ نعومة أظفاره لم يتعامل مع أبوين في أرذل العمر، ولعله لم يقف بدقة على تصرفات أبوين بلغا من العمر عتيا. ولكنه

القرآن الكريم والذي تدل كل آية به على مدى إعجازه وأنه تنزيل رب العالمين، إنه الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تتدبره الأجيال المتعاقبة لتكتشف به دائماً الجديد الذي يقوّم ما إعوج من سبل حياتها، ويرسم لها طريق النور والهداية للتي هي أقوم.

ينير ظلمات القلوب ويشفي النفوس من الغل والحسد وما تتعرض له من وساوس شيطانية وإنحراف عن جادة الصواب.

وما علينا كمسلمين إلاّ أن نتدبر كتابنا الكريم فإنه كفيل بحل كل ما نعاني من مشاكل وأزمات ويضعنا على الطريق القويم، طريق القوة والحرية والتقدم وهو الكفيل بحل مشاكل البشرية كلها ومعالجة أمراض النفوس البشرية وما أكثرها في عصرنا هذا، وهو الكفيل بإقامة المجتمع الفاضل.

وسبحان منزل هذا الكتاب والذي يخاطب عباده المؤمنين قائلاً جل من قائل ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤] صدق الله العظيم.

وجعلنا ممن يتدبرون كتابه الكريم.

آيات تنفذ لأعماق النفس البشرية

قال تعالى: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] صدق الله العظيم.

سبحان منزل هذا الكتاب الكريم والذي لا تغرب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، سبحانه الذي خلق الإنسان ليكون خليفة في الأرض وكرمه بأن حمل الأمانة التي عجزت الجبال عن حملها، صوره فأحسن تصويره، وجعل بين ضلوعه نفساً أبدع في تسويتها وألهمها فجورها تقواها، وزاد هذا الإنسان تكريماً بأن رسم له دروب الخير ودله عليها وكان ذلك من خلال التعامل مع هذه النفس البشرية بشكل لم يسبق له مثيل من قبل ولا من بعد، لم يغفل صغيرة ولا كبيرة سبحانه في هذه النفس إلا تناولها، إرشاداً وأمراً ونهياً وتطميناً وإعلاءاً ومواساة وإلى آخر ما تتعرض له هذه النفس البشرية في هذه الحياة الدنيا.

وسوف نقف اليوم مع أية من كلمات معدودة وكلها تدل على إعجاز بائن ظاهر بعمق التعامل مع هذه النفس البشرية وجعلها تكون دائماً هادئة مطمئنة هانئة في هذه الحياة الدنيا ولتنال الأجر الأوفى يوم الحساب.

نقف عند آية تكاد تكون الوحيدة التي يقرر فيها سبحانه ويربط التنفيذ بالاستطاعة مع أن هذه العبادة تعتبر ركناً أساسياً من أركان الإسلام. وهذه الاستطاعة غير مقرونة بكفارة أو قضاء أو غيره كما في الصيام مثلاً.

إنها حقاً معجزة في التعامل مع النفس البشرية المؤمنة فالإسلام امتد إلى أصقاع شاسعة وبعيدة عن أماكن الحج ومشاعره، وهنا تكمن المعجزة فخالق هذا الإنسان والعالم بظروفه يعلم أن أناساً كثيرين سوف لن يتمكنون من أداء هذه

الفريضة لسبب أو لآخر، فأما أن تكون عدم استطاعة مادية أو جسدية أو لظروف أخرى خارجة عن إرادة الإنسان. وذلك بعكس العبادات الأخرى والتي تتم في نفس مكان إقامة كل إنسان؛ والآن لنتصور لو أنه سبحانه لم يخبر الإنسان بأن هذه العبادة مربوطة بالاستطاعة.

إذن لكان خلق في نفس الإنسان المسلم المؤمن نوازع من الخوف والارتباك وتبكيت النفس وبالتالي نزع صفة الاطمئنان عن النفس البشرية وهي الصفة التي أراد أن تتحلى بها كل نفس مؤمنة طائعة قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧- ٢٨]، فالخالق سبحانه يريد للنفس المؤمنة الطائعة أن تتحلى دائماً بالطمأنينة وهي أكبر نعمة يمكن أن تتحلى بها أي نفس بشرية، فهي متعة الحياة الدنيا ولا يقدر هذه المتعة إلا من يعيش حياة الشقاء والاضطرابات النفسية والتي غالباً ما تنشأ جراء عصيان أوامر الخالق واللهاث وراء متع الدنيا وشهواتها السريعة الزائلة. وكان يمكن لنفس الإنسان المسلم المؤمن أن يصيبها شيئاً من الاضطراب لو فرض سبحانه الحج دون أن يذكر الاستطاعة إنها حقاً لفتة إعجازية لا يمكن أن يلتفت إليها إنسان مهما أوتي من الذكاء والنباهة، فهي تعالج قضية تمس أعماق النفس البشرة وبالتالي تؤثر على حياة هذه النفس ومسيرتها ما بقيت تدب على هذه الأرض. وهذا هو إعجاز القرآن الكريم المتجدد والذي كلما قرأه الإنسان وتمعن به أنار بصيرته وهداه إلى ما استغلق من مفاهيم الحياة وأبعادها ومعانيها، وكل هذا يتحقق ليعطي للإنسان المزيد من الراحة والطمأنينة والعيش الكريم، فمعجزات القرآن الكريم المستجدة دائماً تساير ركب التطور البشري وتحافظ بالوقت نفسه على راحة الإنسان وتنظيم مسيرته الحياتية، وذلك على العكس من التطور الذي تشهده البشرية بعيداً عن الإيمان وطاعة الله. فإننا نرى

هذا التطور وقد جلب للإنسان المهالك والمشاكل والاضطرابات النفسية وبصور وأشكال لا عد لها ولا حصر فالإنسان بعيداً عن الإيمان والطاعة نراه يهيم على وجهه ضالاً حائراً يحمل في جنباته نفساً شقية مضطربة غير مطمئنة.

تبارك سبحانه الذي أنزل على البشرية هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من أمامه ولا خلفه معجزاته متجددة وهي لا تعد ولا تحصى، منها الكونية وأخرى العلمية وكذلك المعجزات المتعلقة بالنفس البشرية ومسيرة الإنسان في هذه الحياة.

معجزات يعرفها كل جيل ويفسرها حسب الظروف التي يمر بها ومدى التطور الذي وصل إليه.

إنه كتاب معجز بكل ما في كلمة إعجاز من معانٍ. وهو دائماً بحاجة لمن يتدبره بقلب مفتوح وعيون مبصرة ونفس راضية مطمئنة.

وأما القلوب التي وضعت الأقفال على قلوبها، والأعين التي وضعت غشاوة لتحجب النور عن أبصارها فإنها تتحمل وزر ما فعلت، وهم الذين حق فيهم قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨].

آيات تنفذ إلى أعماق النفس البشرية

قال تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] صدق الله العظيم.

هذه هي معجزات هذا الكتاب الكريم تترى على مر العصور، وكل جيل وكل عصر يكتشف به ما يلائم حياته، ويسير مع مجريات زمانه، فلكل جيل الفهم الذي يناسب عصره من كنوز القرآن الكريم، وهذه هي معجزة القرآن المتجددة وملاءمة هذا القرآن لكل زمان ومكان، فالقرآن هو نفسه منذ أن أتم الخالق نزوله على قلب رسوله الأمين ﷺ فهو لم يتغير ولم يتبدل وبعكس الكتب الأخرى التي أصابها التحريف لتلائم مقتضيات تطور الحياة فالأجيال البشرية المتعاقبة هي التي يجب أن تطور فهمها لنصوص كتاب الله الكريم وما يحويه من معجزات تكتشفها الأجيال المتلاحقة.

وكم حاول هذا الإنسان الظلوم الجهول وبقصر نظره وإدراكه أن يوائم بين بعض المفاهيم القرآنية وبين ما ظنه جوانب من الحياة العصرية المتقدمة والتي لا يمكن أن تتغير أو تتبدل وليظهر أن تعاليم القرآن الكريم تعاليم تواكب حياة هذا العصر، ومن أجل ذلك حملوا الآيات القرآنية ما لا تتحمل من التفاسير ليبرهنوا على صحة ما يذهبون إليه، وكانت المفاجأة الكبرى أن تلك المفاهيم العصرية قد تبدلت بعد سنوات وبما يلائم المعاني الحقيقية لآيات القرآن الكريم، ومن أمثلة ذلك قضية الطلاق والتي أباحتها معظم المجتمعات العالمية ولاسيما الأوروبية منها، وكذلك الموقف من المال والملكية الفردية وغيرها الكثير والذي كلف الإنسان غالياً من الأرواح والأموال والجهود بعيداً عن مفاهيم القرآن الكريم وتعاليمه الإنسانية السمحة الخالدة.

وهنا سوف نقف مع آية كريمة تخترق أعماق النفس البشرية وبكلمات ربانية معدودة، ولكنها تصف أدق الوصف ما جُبلت عليه النفس البشرية من الأنانية وحب الذات ومنع الخير عن الآخرين لأنها اتصفت بالشح، ورغم علمها اليقين أحياناً بأن ما تملكه يفيض عن حاجتها خلال السنوات القليلة التي سوف تعيشها في هذه الحياة الدنيا، ورغم أن الخالق يأمرها بالإنفاق ومساعدة كل محتاج، ويعدها بمضاعفة ما تنفق في سبيل الله أضعافاً مضاعفة.

قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ولأن النفس البشرية أحضرت الشح كما وصفها الخالق سبحانه، لذلك فلا عجب أن نرى العشرات من الآيات القرآنية الكريمة تحض الإنسان على الإنفاق في سبيل الله ولمساعدة الفقراء والمساكين والمحتاجين ووعد أولئك المنفقون بجنات النعيم في الآخرة، وحياة الرخاء والسعادة في الحياة الدنيا قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٥]. لقد جعل سبحانه الإنفاق في سبيله مقترناً بإقامة الصلاة والإيمان بالغيب، وهذا يدل دلالة قاطعة على مدى أهمية الإنفاق ومحاربة الشح الذي يستقر في أعماق النفس.

ولأن الله سبحانه هو الأعلم بنفوس عباده ومدى حرصهم على المال وإمساكه فقد جعل تبارك وتعالى بعض هذا الإنفاق واجباً وافترضه على عباده،

وهكذا تشمل النفقة، نفقة التطوع كما تشمل فريضة الزكاة. كما أوصى سبحانه بأن لا يكون المال دولة بين الأغنياء منكم، كما نظر أمور ملكية الثروات وجعل بعضها مسؤولية الدولة والجماعة، حتى لا تستأثر بها فئة قليلة من الناس وتتحكم من خلالها بسياسة الدولة وتسيطر على مقدرات المجتمع فتحرم الأكثرية من خيرات بلادها وتحتكرها أقلية من أبناء المجتمع لا تخلو نفوسهم من الجشع والطمع والأنانية وحيث يفقد المجتمع توازنه ويصبح رهينة بأيدي أقلية صغيرة من أبنائه. وهو ما لا يرضاه الإسلام ولا يقره.

والله تبارك وتعالى جلت حكمته، لم يكلف الناس شططاً ولا رهقاً، ولذا جاء نضم الآية الكريمة ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣] فنفقتهم لا تعدو أن تكون شيئاً قليلاً مما أعطاهم الله، وحتى الزكاة المفروضة كانت قليلة النسبة وهي تختلف باختلاف المال المزكى. ولم يسأل الله الناس جميع أموالهم أو أكثرها ولو سئلوا ذلك لشق عليهم وبخلوا وهذه الحكمة العظيمة فيما طلب منهم هي في حقيقتها نعمة من الله ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] لذلك امتن الله على المسلمين فلم يسألهم أن ينفقوا أموالهم جميعها ولم يشق عليهم في السؤال قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦- ٣٧]. (والإخفاء هنا بمعنى المبالغة، ومنه إخفاء الشارب أي المبالغة في استئصاله).

﴿تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ [محمد: ٣٧] أي إذا بالغ في السؤال وأجهدكم فيه وطلب منكم أن تنفقوا أكثر أموالكم، بخلتم وأظهرتم كراهيتكم لهذا الدين. فالإنسان يعشق ذاته أولاً ورغبته ليس لها حدود في أن يكون أكثر من غيره مالاً

وولداً ليفاخر الناس ويعتز بما لديه ويشعر نفسه أفضل من بقية عباد الله وقد نسي أن كل هذا ليس إلا متاع الغرور، وهو لا شك إلى زوال، وإن كان هذا المال ليس إلى زوال فإن صاحبه نفسه إلى زوال وهو الذي جهد بجمعه وحرص عليه وكان في الدنيا بخيلاً قتوراً.

قال تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

إن هذه الآيات الكريمة تذكرة للناس من أجل إيقاظهم من سباتهم وتنبيههم من غفلتهم وتحذيرهم أن يؤخذوا على حين غرة، ومن أن يستمروا في هذه الغفلة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣].

ويجب أن لا يفهم هنا أن هذه الآيات الكريمة تطلب من المسلمين أن يعيشوا فقراء عالة على غيرهم من الناس، ولكن الغرض أن لا يفتن المسلمون بالدنيا فتنسيهم الآخرة، وكذلك فإنها تحض المسلمين على التعاون والتكافل حتى لا يبقى فيهم الفقير والمعوز والمحتاج. لذلك وعد سبحانه المنفقين في سبيله بأن لهم الأمن وهم مهتدون قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢]، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴾ [المعارج: ٣٥]، أما من بخل فقد قال فيه سبحانه: ﴿ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ ﴾ [التوبة: ٣٥] وشتان بين هؤلاء وأولئك.

آيات تنفذ لأعماق النفس البشرية

قال تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: ١١].

لا نظن أن هنالك أبلغ من هذا الوصف وأدق منه عبر تاريخ البشرية يصور حال النفس البشرية وميولها ورغباتها السريعة فهذا وصف لتصرف مجموعة من عباد الله مع خير عباد الله جميعاً، فالرسول ﷺ بين طهراني هؤلاء القوم يخطب بهم ويرشدهم لما فيه خيرهم وصلاحهم، بينما هم ينقضون عنه عندما رأوا بعض المنافع الدنيوية السريعة المنال متوفرة أمامهم وبعضهم انفض ليستمتع بلهو سريع شاهده أمامه وحتى لا تفوته الفرصة.

وهذه هي النفس البشرية دائماً تميل إلى المكاسب المادية السريعة، كما تميل إلى الحرص على التمتع باللهو والراحة والتأفف من أي أوامر ونواهي تكلفها بعض الجهد والحد من الانسياق وراء الشهوات ومتع الحياة الدنيا وما أكثرها حتى لو كانت هذه الأوامر والنواهي من الخالق سبحانه والذي هو أعلم بدروب الخير والسعادة للإنسان من نفسه، ولكنه الإنسان خُلق ظلوماً جهولاً، تغره الحياة الدنيا بزخرفها ومتعها قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

هذه هي الحياة الدنيا وهذا هو وصف الخالق سبحانه لها، وهذا هو واقع الإنسان فهو يعيش هذه الأوصاف كل يوم من أيام حياته، إنه يلهث في طلب متع هذه الحياة الدنيا، ويحرص عليها حرص من يظن أنه يعيش فيها عيشة الخلود.

والحقيقة إن هذه الكلمات الربانية المباركة يجب أن تُفهم جيداً وتؤخذ المواقف تجاه سلوكيات الإنسان من خلالها إذا أردنا التعامل مع حياة الإنسان بشكل سليم ودون إرهاب ولا كبت، ولا تحميل هذا الإنسان ما لا يطيق من الألم والشعور بالذنب وتبكيت للنفس بعد أي تصرف قد يصدر منه ونظن أنه مخالف أو به شيء من الانحراف عن أوامر الله سبحانه، فالله تبارك وتعالى خالق هذا الإنسان هو الأدرى به، وهو الذي وصف لنا حال هذا الإنسان وكثرة تقلب أهوائه وميوله وبالتالي سلوكياته وأفعاله، فهو سبحانه الذي صور لنا الحياة الدنيا بما فيها من متاع وملذات ولهو ومكاسب مادية، وهي كلها تهم الإنسان في حياته الدنيا لا بل وزينها الخالق سبحانه له وجعل في نيلها سعادة كبرى للإنسان في حياته الدنيا قال تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

هذه هي الحياة الدنيا إذن وهكذا وصفها الخالق سبحانه وصور موقف الإنسان منها وهو سبحانه لم يحرم زينة الحياة الدنيا على الإنسان، ولكنه أمره بعدم الاندفاع وراءها أو نيلها بشتى الطرق المتاحة سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة، لقد رسم الخالق سبحانه للإنسان كيفية التعامل مع الحياة الدنيا ومتعها وزينتها وشهواتها وبحيث لا يتعدى على حقوق الله ولا حقوق الناس، هذه الحقوق المتمثلة بأموالهم وأعراضهم وأمنهم وحرياتهم. ومن أطاع الله سبحانه فيما أمر ونهى فإنه لابد أن ينال سعادة الدارين، الدنيا والآخرة.

وهنا لابد من وقفة مع أولئك الذين يعتبرون أنفسهم أوصياء على عباد الله وكثيراً ما يكون ذلك عن جهل وعدم دراية بكتاب الله وأحكامه ومقاصده أولئك الذين يرهبون عباد الله ويطلبون منهم السير على خط معين لا يحيدون عنه قيد أنملة وحسب وجهة نظرهم، وإلا كانوا كفاراً فسقة يستحقون القتل أو إشاعة جو من الإرهاب والخوف في نفوسهم ومن حولهم. أمثال هؤلاء مطلوب منهم التبصر بكتاب الله سبحانه ليروا كيف تعامل الخالق سبحانه عبر كتابه الكريم مع الإنسان، وصور نفسيته وموقفه من الحياة الدنيا بكل أبعادها وتشعباتها، وأنه سبحانه بين لنا أن حياة الإنسان لا تسير على خط مستقيم واحد، ولكنها تسير ضمن منحنيات كثيرة ومتاهات لا يخرج منها إلا من عمر الإيمان قلبه وحول هذا الإيمان إلى ممارسات وسلوكيات في حياته، وكل هذا دون أن يأمر الخالق سبحانه أي من خلقه بالتفتيش على قلوب العباد أو معاقبتهم على كل ما صغر أو كبر من أفعالهم.

فالخالق سبحانه افترض بالإنسان الانحراف والزلل عن الطريق القويم، لذلك ركز سبحانه على المغفرة أكثر مما ركز على إنزال العقاب فباب التوبة مفتوح دائماً لعباد الله المخلصين (لا يقنط من رحمة الله إلا القوم الفاسقون).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

فالله سبحانه إذن خلق الإنسان وفطره على الصواب والخطأ، ولقد أخطأ أناس في حياة الرسول ﷺ ومع هذا فإنه عليه الصلاة والسلام لم يقاطعهم ولم يأمر بقتلهم، أو إيقاع الأذى بهم، لأنه ﷺ من تنزل القرآن الكريم على قلبه وكُلف بتبليغه للناس كافة وهو ﷺ أولى الناس بفهم أسراره وخفاياه ولاسيما موقف القرآن الكريم من التعامل مع النفس البشرية المتقلبة الأهواء والأمارة بالسوء.

الإنسان بطبعه يميل لسهولة الحياة والاستمتاع بملذاتها العاجلة، ويفضل اللهو والراحة والحياة الرغدة الهانئة ويحاول الهروب قدر الإمكان من صعوبات الحياة وخشونتها ومسؤولياتها، لذلك كانت الطريق إلى الجنة محفوفة بالتضحيات، التضحيات بالمال والنفس والتخلي عن زخارف الحياة الدنيا ومتعها قدر الإمكان، أو طلبها أي الجنة بالسير على الطريق التي رسمها الخالق سبحانه وعدم إطلاق العنان لشهوات هذه النفس وتقلباتها وذلك حتى يمحص الله الذين آمنوا منكم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٨].

هذه هي معجزات القرآن الكريم المستمرة عبر الأجيال، والصالح حقاً لكل زمان ومكان، فالعقل البشري بعد مرور القرون الطويلة على نزول القرآن الكريم ما زال قاصراً في كثير من المجالات على استيعاب تعاليم القرآن الدقيقة وفي مختلف مجالات الحياة.

فنحن لو أخذنا ممارسات فئات كثيرة من المسلمين في هذا العصر لوجدنا أنها قاصرة عن استيعاب مقاصد القرآن الكريم والسمو إلى تعاليمه الإنسانية، لأنهم يريدون وضع الإنسان على طريق مستقيم لا يحيد عنها أبداً وهم بذلك يعتقدون أنهم يرضون الله ويرسخون تعاليمه في الأرض وفي نفوس المسلمين حتى ولو كان ذلك بالقوة والإرهاب وسفك الدماء.

وأين هذا من موقف القرآن من قضايا الإنسان وتصويره لنفسية الإنسان وتقلباتها، ووعد المخطئ والمنحرف عن الجادة الصحيحة بالمغفرة لو عاد واستقام ومشى على الصراط المستقيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [هود: ١١٤]. وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، فهل نتدبر القرآن الكريم أم على قلوب أقفالها؟

آيات تنفذ لأعماق النفس البشرية

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ما أعظمها من كلمات ربانية تنفذ إلى أعماق النفس البشرية لتسبر أغوارها وتقف على رغباتها وأمنياتها، ما تحب وما تكره، ما تريده وما تخشاه وتحاول تجنبه.

وهل هناك أشد على نفس الإنسان من القتال وأكره منه إلى نفسه وقلبه، مهما أدعى المدعون ونظر المنظرون.

فالقتال يعني احتمال فقدان الحياة ذاتها، هذه الحياة التي يحرص عليها الإنسان ويحيد من لحظة فقدانها، قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩].

وفقدان الحياة إذا هان على الإنسان ذاته فإنه لابد أن يتفكر فيمن هم خلفه من نساء وأولاد. القتال كذلك يكلف الكثير من المال والجهد ويكون على حساب حياة الهدوء والاسترخاء الذي تعودت عليه النفس البشرية، وهي أمور ليست بالسهولة التي يظنها البعض ولاسيما من لم يقترب من ساحات القتال يوماً، وإنما ينظر له وهو جالس بعيداً يتمتع بالراحة والحياة الهانئة الرغيدة، فالمال عزيز على قلب الإنسان وكثيراً ما يساوي الحياة ذاتها، لذلك وردت التضحية به في معظم آيات الجهاد، وأحياناً ما كان مقدما على النفس ذاتها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠ — ١١].

ولأن القتال كريه على النفس البشرية كما وصف القرآن الكريم، لذلك فلا

عجب أن نرى للقتال والجهاد إذا اضطر إليه الإنسان منزلة عظيمة عند الخالق سبحانه، لأن المقاتل يضحي بأغلى ما وهب الله له، يضحي بنفسه وروحه وماله وسعادته، من أجل إعلاء كلمة الله، ورفع الظلم عن المظلومين أو دفاعاً عن النفس ضد عدو غاصب ومعتد أثيم. لذلك كان الجهاد في سبيل الله من أعظم القربات، وأرفع الطاعات، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على الجهاد وتثني على المجاهدين، وتنعي وتعنف بل تذم وتتوعد المتقاعسين عنه. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ولأن القتال عملية معقدة وليست سهلة على النفس البشرية مهما كانت منزلتها عالية في الدنيا والآخرة، لذلك فقد تطلب الجهاد إعداداً خاصاً ومتعدد الجوانب لكي تستوعبه نفس الإنسان وتمارسه راضية مرضية.

فهناك الإعداد المادي ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [الأنفال: ٦٠].

كذلك هناك الإعداد النفسي، والذي يعني تهيأة الأمة ووضعها على طريق الجهاد، بعيداً عن الغرور وعن اليأس في الوقت ذاته. لأن كلا الأمرين لا يقود للنصر والغلبة وهدف كل جهاد وقتال تخوضه أي أمة من الأمم ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وهنالك الإعداد الفكري كذلك والذي يسهم في بناء الشخصية القوية الجادة للإنسان المسلم وإعداده للقتال إذا فُرض عليه وهو مطمئن بأنه الأقوى والأجدر بالنصر لأنه يقاتل من أجل رفع باطل وإحقاق حق، وغايته فقط إعلاء كلمة الله في الأرض، والقضاء على مصادر الشر والإثم والعدوان. ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ

وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ...﴾ [آل عمران: ١٣٩- ١٤٠]. وقال سبحانه ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

القتال إذن ألم للطرفين المتقاتلين كما يصف الخالق سبحانه، فهو ليس نزهة ولا سعادة آجلة ينالها المقاتل وهو في ميدان القتال ولكنه ألم ومعاناة وصبر على ما يكره الإنسان، قال تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦].

والصبر دائماً لا يكون إلا على الألم أو الفقر والجوع وكل مكروه يمكن أن يتعرض له الإنسان في حياته.

والتوصية من الخالق سبحانه وتعالى بالصبر في القتال فإنما يعني ذلك كم هو صعب ذلك الموقف الذي يكون فيه الإنسان وهو في ساحة القتال، إنه موقف يتطلب قمة الصبر.

لأن الأمر يحتمل فقدان الحياة ذاتها، وهو ما لا يستطيع عليه سوى المؤمن الحق الذي يتحلى بالشجاعة والصبر في الوقت ذاته، وهذا يتطلب نوعاً آخر من الأعداد وهو الإعداد الروحي، وهو أن يحكم المسلم صلته بخالقه وأن يحسن الاعتماد عليه، وأن يوقن أن النصر والعزة إنما هي فضل من الله وحده لا يملكها أحد من الناس.

بسبب ما تقدم كله فلا عجب أن يعتبر الجهاد ذروة سنام الإسلام. فلا أصعب ولا أشق على النفس البشرية منه. كما وصف ذلك الخالق سبحانه.

وهو الأعلم بكل خبايا النفس البشرية ومكنوناتها.

كيف صور القرآن الكريم نفسية المنافقين

النفاق أخطر آفة إنسانية واجتماعية تبتلى بها المجتمعات البشرية مهما كان دينها أو جنسها، فالمنافق إنسان كذاب لا يصدق حديثاً ولا وعداً ولا عهد له ولا ذمة يقول ما لا يفعل ويفعل ما لا يقول يظهر خلاف ما يبطن ويبطن خلاف ما يظهر، ومن هنا كان خطره على المجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه ولخطورة المنافقون في المجتمع نجد أن الخالق سبحانه أنزل في قرآنه الكريم سورة خاصة اسمها (المنافقون) وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى خطورة النفاق وأهله في الدولة والمجتمع، فهؤلاء يكون خطرهم كبيراً ولا حدود له، إنهم يساهمون في إفساد المجتمع الذي يوجدون به بما ينشرون من أكاذيب وأخبار كاذبة وملفقة قد تحدث الفتن في المجتمع وتؤذي نفر من أهله المعروف عنهم الاستقامة والتقوى وحسن الخلق وربما أشاعوا الفاحشة ورموا أعراض الناس بكل مكروه، فهم كالسوس الذي ينخر في الجسم. وبحكم أخلاقهم الفاسدة وأنانيتهم وطمعهم فلا مانع لديهم من التعاون مع أعداء الأمة لتحقيق مكاسب شخصية غالباً ما تكون مادية، وإنهم في سبيل الحصول على المكاسب الرخيصة من مال أو منصب نراهم على استعداد لبيع ضمائرهم والتخلي عن كل ما يتعارف عليه مجتمع من مبادئ وقيم وتحل بالوطنية والإخلاص للوطن والدفاع عنه والتضحية في سبيله، ويتعللون بمختلف الأعذار ويختلقون أوهى المبررات لأفعالهم الدنيئة، فالمنافق لا مانع لديه من الحاق الأذى بأقرب الناس إليه لا بل بأهله وأسرته إذا كان يرى في ذلك تحقيق مصلحة له، فهو أناني بطبعه ولا يعمل إلا لتحقيق مصالحه الذاتية وبكل الطرق المشروعة وغير المشروعة.

وإن معظم ما تعاني منه الدول وعبر كل العصور يرجع في غالبية أسبابه للمنافقين وما يمارسونه من سلوكيات شاذة مرفوضة. وغالباً ما يكون أبناء المجتمع نابذين لهم، لذلك تُنزع الثقة بهم. ويتسببون إذا وصلوا إلى أعلى مراتب السلطة في نزع الثقة بين الحاكم والمحكوم، وفي إثارة الفتن في مجتمعاتهم مما يسبب ارباك المسيرة وبطء التقدم وحركة النمو وربما انهيار الدولة.

فهم لا عهد لهم ولا يعرفون الوفاء أو الحفاظ على الأمانة التي أوكلت إليهم. فهذا مصداق قول الرسول الكريم ﷺ أيه المنافق ثلاث: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتومن خان وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم.

وقد شهدت الدعوة الإسلامية ومنذ أن كانت أنواعاً مختلفة من النفاق، وبدأ هذا في حياة الرسول ﷺ وأثناء قيامه بنشر الرسالة وجهاده في سبيل الله يتبعه المجاهدون الصادقون؛ حيث نزلت آيات كريمة تبين حال القاعدين والخالفين ويبين ما اعتذروا به للرسول ﷺ من أعذار بسبب تخلفهم. قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤١- ٤٣] ثم وفي آية أخرى من نفس السورة يقول سبحانه: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ

ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴾ [التوبة ٤٤- ٤٨].

ثم يقول سبحانه: ﴿قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٣- ٥٤] إلى أن يقول سبحانه: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٣- ٦٧].

ويستأنف القرآن الكريم حديثه قارناً المنافقين بالكفار في نفس سورة التوبة

فيقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٧٤﴾ ۞وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٣- ٧٧].

إذن هكذا صور القرآن الكريم المنافقين جبناء يطلبون أن يكونوا مع القاعدين كلما أنزلت سورة أو آيات تطلب من الناس الإيمان بالله ورسوله وأن يجاهدوا مع الرسول وأصحابه. لا بل إن معظم آيات هذه السورة نزلت في أولئك النفر الذين تخلفوا عن الخروج مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك، لاسيما ثلاثة منهم ما كان يُظن يوماً بأنهم سيتخلفون عن الخروج للجهاد في سبيل الله، بينما كان عدد المخلفين جميعاً من الذين كان يجب عليهم الخروج حوالي ثمانون رجلاً. وعندما عاد الرسول ﷺ ومعه من خرج للجهاد أخذ هؤلاء يتعللون ويتكلفون بمختلف الأعذار ويقولون للنبي غير الحق، وجعل النبي يقبل معاذيرهم ويستغفر لهم لأنه لم يؤمر بالتنقيب على قلوب الناس. ولكن ثلاثة من المخلفين كانوا من أشد الناس إيماناً بالله ورسوله وأصدق حباً لهما من أن يضيفا إلى تخلفهم خطيئة الكذب على النبي ﷺ وهم يعلمون أن ضمائر المتخلفين المنافقين لم تكن لتخفى على الله وأن الله جدير بأن ينبئ رسوله بسرائرهم فآثروا الصدق وفاء لدينهم، وإشفاقاً أن يفضح

الله كذبهم وتخلفهم فاعترفوا بذنبهم وسمع النبي منهم وأعلن أنهم قد صدقوه ولم يعف عنهم مع ذلك، وترك أمرهم إلى الله يقضي فيه بما يشاء، ثم لم يلبث أن أمعن في عقابهم فأمر المؤمنين ألا يكلموهم، وما لبثوا أن شعروا أنهم في عزلة بفيضة إلى نفوسهم كان السجن أهون منها ومن أجل ذلك لزم اثنان منهم بيوتهما فلم يخرجا منها ولم يتعرضا لجفوة الناس، وإنما أقاما يؤديان الصلاة في بيوتهما ولا يشهدان جماعة المسلمين، ثم يبكيان أكثر وقتهما، أما الثالث فكان يمشي في الأسواق ويحتمل جفوة الناس متأذياً بها، وكأنه يبالغ في تأديب نفسه بالعقاب الذي فرض عليه، وكان يغشى المسجد أياماً ويصلي بعض النوافل قريباً من مجلس النبي ليرى أينظر النبي إليه أم يعرض عنه، وكان النبي ﷺ ينظر إليه حين يقبل إلى صلاته ولكنه يعرض عنه إذا نظر إليه ومضت عليهم خمسون ليلة في هذه العزلة وقد أخذ الندم من قلوبهم أقوى مأخذ، فإذا بالعزيز الكريم ينزل توبته عليهم فيقول سبحانه ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٨].

فإذا كان مثل هذا الموقف من بعض الصحابة قد أخذ كل هذه الأهمية حتى نزل به قرآن كريم وبعدة آيات، وهو موقف من مسلمين صادقين ولكنهم تخلفوا عن القتال مع رسول الله ﷺ في إحدى غزواته، وفي الوقت نفسه هم مؤمنون صادقون يقيمون أركان الإسلام. فما بالنا اليوم بفئات من المسلمين حكاماً ومحكومين يتآمرون على أرض المسلمين ويتوددون إلى مغتصبي أرض الإسلام

والمسلمين ويلاقونهم بالأحضان والقبل ويتنازلون لهم عن المزيد من حقوق المسلمين ليرضوا عنهم، إنهم يعادون الله ورسوله من أجل صداقة أعداء الإسلام والمسلمين والذين يتربصون بهم كي يضروهم قدر المستطاع لا بل ويقضوا عليهم إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، والغريب أن هؤلاء يدعون أنهم مسلمون ويقيمون الصلاة أحياناً إلى جانب بعض الشعائر.

فماذا عسى أن يوصف أمثال هؤلاء فهل تكفيهم صفة منافقين، إن هؤلاء اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً وصدوا عن سبيله. إنهم أناس باعوا دينهم واشتروا هذه الدنيا الرخيصة الفانية، لم يحسبوا حساباً لكرامة الأمة وعزتها واستقلالها، وخالفوا أهم تعاليم الإسلام وأوامر الله ورسوله، لقد إثاقلوا إلى الأرض ورضوا بالحياة الدنيا عن الآخرة ناسين أن متاع الدنيا في الآخرة أقل القليل، لم ينفروا لقتال العدو ولا حدثوا أنفسهم بذلك فضربت على الأمة الذلة والمسكنة.

هذا هو النفاق والذي قرنه الخالق سبحانه بالكفر وأن ادعوا الإسلام فقد قال سبحانه: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴾ [التوبة ٥٤].

إنه قول رحمان رحيم لا لبس فيه يقرن النفاق بالكفر والمنافق كما صوره الخالق سبحانه في كتابه مراوغ بخيل يحسب أنه بنفاقه يخدع عباد الله ويهزأ بهم قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة: ٦٥]، أما عن بخلهم فيقوله سبحانه: ﴿ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [التوبة: ٦٧].

ما أبشع صورة المنافقين كما أوردها رب العزة في كتابه الكريم إنهم أشد خطراً من الكافرين فالكافر إنسان معروف والجميع يعرف فيه صفة الكفر والعناد ولا يخفي كفره على أحد، فالتعامل معه يكون سهلاً ومعروفة طرقه وأساليبه. أما المنافق الذي يظهر خلاف ما يبطن ففيه تكمن الإشكالية ويصعب التعامل معه، لذلك لم يكن غريباً أن يقرن سبحانه المنافق بالكافر ويعدّ لهم نفس الجزاء قال سبحانه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٨].

إذن اللعنة من الله ونار جهنم هو جزاء المنافقين مع الكفار، وأي جزاء أعظم من ذلك، وأي جريمة هي جريمة النفاق لذلك لم يكن غريباً أن يطلب الله سبحانه من رسوله أن يجاهد الكفار والمنافقين ويغلظ عليهم، فهم كما أسلفنا آفة المجتمع ويشكلون أخطر الأمراض في جسمه، لذلك يجب أن لا يتركوا في حال اكتشافهم يمارسون دورهم التخريبي لأن ذلك يشكل خطراً ليس أكبر منه خطر في حياة الأمة ومسيرتها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣- ٧٤].

أما بخل المنافقين فقد قال عنه الخالق سبحانه: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥- ٧٧].

هؤلاء هم المنافقون بخلاء ولا يوفون بعهودهم وفي الوقت ذاته يتصفون

بالكذب. وهذه من أبشع الصفات التي يمكن أن يتصف بها إنسان في أي زمان ومكان. فهذه الصفات هي نقيض الاستقامة والخلق الرفيع لا بل وتهدم قيم المجتمع ومثله، وإذا ما استشرت هذه الصفات في أبناء مجتمع فإنها تحرفه عن جادة الصواب وتساهم في ضعفه وزواله أو تعرّضه لسيطرة مجتمع أو مجتمعات أخرى لا تتصف بمثل هذه الصفات، لأن المجتمع القويم لا يوجد ولا يستمر ويزدهر إلا إذا كان أبناؤه أناس صادقون مجاهدون ينفقون في سبيل الله ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم لحماية مجتمعهم ورفعته وسؤودة.

فالمنافقون هم أعداء لأمتهم بسبب ما يتصفون به من الكذب والصد عن سبيل الله فهم جبناء ولا يعملون إلا لمصالحهم الذاتية ولو كان على حساب أمتهم ودولتهم ومجتمعهم ولو كانوا غير ذلك لما اتصفوا بالنفاق. قال تعالى في سورة المنافقون: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١-٢]. ولعظم سوء أخلاق المنافقين وخطرهم على الدعوة والمجتمع فإنهم محرومون من أن ينالوا مغفرة الخالق سبحانه جزاء ما يقومون به من أفعال منكرة، فهم أشد خطورة كما أسلفنا من الكفار أو الأعداء الظاهرين. قال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٥].

وفي ختام هذا المبحث فإننا ندعو العلي سبحانه أن يجنبنا ويجنب أبناء مجتمعاتنا الإسلامية كافة شر النفاق والمنافقين. لما رأينا من أخطار أمثال هؤلاء الضالون، إنهم عبيد الدنيا لا يرون كمال الإنسان إلا في جمع الثروة والأموال، وفي الجاه وتولي المناصب الرفيعة حتى لو كان ذلك على حساب سيادة الأوطان وكرامة الإنسان وإذلاله، لذلك يتخذ المنافقون من أمثال هؤلاء الذين هم على شاكلتهم

الأسوة والقدوة محاولين التشبه بهم وتتبع أرجاسهم وهـذا مـا يولـد لـديهم صـفة الجبن والذي يجعل منهم دائماً قاعدين وخالفين إزاء كل خطر يتعرض لـه وطـنهم فقلّ أن نجد جباناً ربح معركة أو بنى مجداً أو عاد إلى مجتمعه بخير.

فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه إن الشجاعة والجبن غرائـز تكـون في الرجال، يقاتل الشجاع عمن لا يعرف، ويفر الجبان من أمه.

والجبن بالتالي يؤدي إلى الاستلاب والخضوع للقـوي مهمـا كانـت عقيدتـه وممارساته.

فاللهم احفظ أبناء هذه الأمة من النفاق وعواقبه من جبن وبخـل وقعـود عـن الجهاد وكل ما تجر إليه هذه الصفات من ويلات.

المراجع

١. القرآن الكريم.

٢. علم النفس الإسلامي، د. محمد القذافي.

٣. خماسيات، الشيخ د. فضل عباس.

٤. الحلال والحرام، د. يوسف القرضاوي.

٥. مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب.

٦. المال في الإسلام، د. محمود محمد بابللي.

٧. أسس التقدم عند علماء المسلمين في العصر الحديث، د. فهمي جدعان.

٨. اشتراكية الإسلام، د. مصطفى السباعي.

٩. الشخصية الكافرة، دراسة قرآنية، حسن محمد علي عبارة.

١٠. حقيقة الإنسان، د. عيسى عبده، أحمد إسماعيل يحيى.

١١. في النفس، أرسطو طالسي، شرح د. عبد الرحمن بدوي.

١٢. النفس الإنسانية بميزان القرآن الكريم، د، عابد توفيق زين العابدين.

١٣. اليهود في القرآن الكريم، محمد عزة دروزة.

١٤. دستور الأخلاق في القرآن: د. محمد عبد الله دراز.